# البردة

## للإمام البوصيري

شرح شيخ الإسلام
الشيخ ابراهيم الباجوري

ضبطها وعلق عليها
الشيخ عبد الرحمن حسن محمود


مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا القاهرة ت ٣٩٠٠٨٦٨

{ الكواكب الدريّة فى مدح خير البريّة }

المعروفة بـــ :

# البـردة

للإمام البوصيرى رحمه الله تعالى

شرح شيخ الأزهر

## الشيخ إبراهيم الباجورى

حققها وضبطها وعلق عليها

الشيخ عبد الرحمن حسن محمود

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ٤٢ ميدانِ الأوبرا - القاهرة

ت : ٣٩٠٠٨٦٨

# ترجمة الشارح رحمه الله تعالى

هو الشيخ إبراهيم بن محمد الجيزاوى ( الباجورى ) نسبة إلى «الباجور » من أعمال المنوفية . ولد رحمه الله تعالى سنة ١١٩٨ هـ ثمان وتسعين ومائة وألف للهجرة النبوية الشريفة .

قرأ القرآن على والده رحمه الله .

انتقل إلى القاهرة والتحق بالأزهر الشريف فى سن الرابعة عشر من عمره ، وبذل جهده فى تحصيل العلم ، وفاق الكثير من أهل زمانه .

تتلمذ للشيخ العلامة محمد الأمير الكبير ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ داود القلعاوى ، وغيرهم .

تقلد مشيخة الأزهر الشريف فى شهر شعبان عام ١٢٦٣ هـ ثلاث وستين ومائتين وألف هجرية .

ألف تآليف كثيرة ، مليئة بالعلم والتحقيقات السنية ، منها هذه الحاشية المباركة ، وحاشية على شمايل الرسول ﷺ للإمام الترمذى الحافظ رحمه الله تعالى صاحب السنن .

قرأ على طلبة الأزهر - أثناء توليه المشيخة - تفسير الإمام الرازى للقرآن الكريم ، وحضر عليه أعيان العلماء ، ولكنه لم يتمه لمرض أصابه رحمه الله .

مكث الأزهر بعده مدة أربع سنوات بلا مشيخة ، لأنه لما كبر سنة قام بمهمة المشيخة أربع وكلاء : انتخبهم علماء الأزهر ، هم :

الشيخ أحمد كيوه ، العدوى ، المالكى .

الشيخ إسماعيل الحلبى ، الحنفى .

الشيخ خليفة الفشنى ، الشافعى .

الشيخ مصطفى الصاوى ، الشافعى .

وتوفى رحمه الله تعالى سنة ١٢٧٧ سبع وسبعين ومائتين وألف للهجرة الشريفة ، رحمه الله تعالى رحمه واسعة وأجزل ثوابة ونفعنا ببركته .

{ راجع مجلة الزهراء ، صفر سنة ١٣٤٤ هـ ص ٤٨٤ }

# تقديم

## بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . لما كان مدح المصطفى ﷺ من أوجب الواجبات على القادرين على المدح ، إذ هو أصل من أصول حبه ﷺ ، لذلك : لجأ كثير من أفاضل العلماء العاملين والعارفين المخلصين ، بل ومن أجلاء الصحابة رضى الله عنهم ، وعلى رأسهم كعب ابن زهير رضى الله عنه فى قصيدته المشهورة .

« بانت سعاد فقلبى اليوم متبول .. .. .. .. »

وكان من أبرز البارزين فى هذا المضمار ، إمام أئمة المديح : الإمام البوصيرى ، رحمه الله تعالى فى قصيدتيه : « الهمزية » و « الكواكب الدرية » ، المشهورة بـ « البردة » . والتى نال بها شرف الإمامة فى هذا المضمار .

وقد ترجم لها – الكواكب الدرية – صاحب « كشف الظنون » رحمه الله تعالى ، فقال : « ... وهى مائة بيت ، واثنان وستون بيتاً ، منها : عشر فى المطلع ، وستة عشر فى النفس وهواها ، وثلاثون فى مدائح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتسعة عشر فى مولده ، وعشرة فيمن دعا به ، وعشرة فى مدح القرآن ، وثلاثة فى ذكر معراجه ، واثنان وعشرون فى جهاده ، وأربعة عشر فى الاستغفار ، وبقيتها فى المناجاة .

روى أنه أنشأها حين أصابه فالج ، فاستشفع بها إلى الله تعالى ، ولما نام رأى النبى ﷺ فى منامه ، فمسح بيده المباركة بدنه ، فعوفى ، وخرج من بيته أول النهار ، فلقيه بعض الفقراء ، فقال له : يا سيدى أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله ﷺ .

قال : أى قصيدة ؟

قال : التى أولها « أمن تذكر جيران ... » إلخ ... فأعطاها له ... وجرى ذكرها فى الناس . ولما بلغت الصاحب « بهاء الدين » وزير الملك الظاهر استنسخها ، ونذر أن لا يسمعها إلاّ حافيا ، واقفا ، مكشوف الرأس ، وكان يتبرك بها هو وأهل بيته ، ورأوا من بركاتها أموراً عظيمة فى دينهم ودنياهم .

وسبب شهرتها بـ : « البردة » أنه أصاب « سعد الدين الفارقى » رمد عظيم ، أشرف منه على العمى ، فرأى فى منامه قائلا يقول له : امض إلى الصاحب بهاء الدين وخذ منه البردة ، واجعلها على عينيك تفق إن شاء الله تعالى ، فنهض من ساعته ، وجاء إليه ، وقال له ما رأى فى نومه ، فقال الصاحب : « ما عندى شئ يقال له البردة ، وإنما عندى مديحة النبى ﷺ ، أنشأها البوصيرى ، فنحن نستشفى بها » فأخرجها ، ووضعها سعد الدين على عينيه ، فعوفى من الرمد .

وهذه القصيدة الزهراء ، والمديحة الغراء : بركاتها كثيرة ، ولا يزال الناس يتبركون بها فى أقطار الأرض » أ هـ .

ثم قال رحمه الله تعالى :

« قال المولى « مصنفك » فى شرحه بعد نقل منامه ورؤيته النبى ﷺ : « فألقى عليه الصلاة والسلام « بُرداً » على عاتقيه ، ومسح بيده ، فلما استيقظ وجد بدنه صحيحاً كله ، ووجد ذلك البرد على عاتقيه ، ففرح به » إ هـ .

ثم قال : « ويروى عن بعض الكبراء : أنه أصابه مرض فطلب القصيدة ، فجاء صاحبها وقرأها ، فشفاه الله سبحانه وتعالى من ساعته ، فأعطاه برداً ، فسميت بـ « البردة » تيمنا » إ هـ .

وقد شرح البردة عدد كبير من علماء المسلمين الأعلام ، منهم :

١ - الشيخ على بن محمد ( البسطامى ( الشاهرودى ، المعروف بـ : « مصنفك » المتوفى سنة ٨٧٥ هـ .

٢ - بدر الدين محمد بن محمد ( الغزّى ) المتوفى سنة ٩٨٤ هـ .

٣ - محيى الدين محمد بن مصطفى ( شيخ زاده ) .

٤ - بحر بن رئيس بن ( الهاروتى المالكى ) ....

٥ - عبيد الله بن يعقوب ( الغفارى ) المتوفى سنة ٩٣٦ هـ .

٦ - عبد الله بن يعقوب ( الصاوى ) .

٧ - حسام الدين : حسن بن عباس .

٨ - شرف الدين : على ( اليزدى ) المتوفى سنة ٨٢٨ هـ .

٩ - محمد بن عبد الرحمن الزمرّدى ( ابن الصائغ ) المتوفى سنة ٧٧٦ هـ .

١٠ - جمال الدين : عبد الله بن يوسف ( ابن هشام النحوى ) المتوفى سنة ٨٦١ هـ .

١١ - كمال الدين : الخوارزمى ، المتوفى فى حدود سنة ٨٤٠ هـ .

١٢ - زين الدين : خالد بن عبد الله ، الأزهرى ، المتوفى سنة ٩٠٥ هـ .

١٣ - جلال الدين المحلى ، المتوفى سنة ٨٦٤ هـ .

١٤ - أحمد بن محمد بن أبى بكر .

١٥ - خير الدين : خضر بن عمر ( العطوفى ) ، المتوفى سنة ٩٤٨ هـ

١٦ - ابن حبيب ( الحلبى ) المتوفى سنة ٨٠٨ هـ .

١٧ - محمد بن أحمد بن مرزوق ( التلمسانى ) المتوفى سنة ٧٨١ هـ .

وخمّسها وشرحها أيضا : بالتركى والفارسى علماء كثيرون رحمهم الله تعالى .

* * *

والشرح الذى نتشرف بإخراجه هنا هو شرح العلامة الشيخ الباجورى شيخ الأزهر - وهو شرح عجيب لطيف ، غير مسبوق - فيما نعلم - .

* * *

وأما ما ذكره الشيخ إبراهيم الباجورى رحمه الله تعالى من أن هذا البيت فائدته كذا وكذا ، فهو أمر معهود ومعروف عند أهل الله تعالى ، وله فى ذلك سوابق كثيرون .

فعلى سبيل المثال لا الحصر : قال ابن عراق ( على بن محمد ) المتوفى سنة ٩٦٣ فى كتابه «الصراط المستقيم فى خواص القرآن الكريم » «إن من كتب فى ورقة فى أول يوم من المحرم البسملة مائة وثلاث عشرة مرة ، وحملها : لم ينله ولا أهل بيته مكروه مدة عمره ، ومن كتب «الرحمن » خمسين مرة وحملها ودخل بها على سلطان جائر ، أو حاكم ظالم : « أمن من شره »أهـ.

* * *

وروى أن قيصر - ملك الروم - كتب إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن بى صداعاً فأنفذ إلىّ شيئا من الدواء ، فأنفذ إليه قلنسوة ، فكان إذا وضعها على رأسه ذهب الصداع ، وإذا رفعها رجع إليه ، ثم فتحها فإذا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال :

ما أكرم هذا الدين وأعزّه : حيث شفانى الله بآية واحدة منه ، فأسلم وحسن إسلامه .

ولعل أحداً يعترض ، ويقول : كيف يستشفى بها ، وهى ليست قرآنا . ولا دعاء من أدعية الرسول ﷺ ، الوارد فيها نصوص صريحة ؟ فنقول له ابتداء : « إن السر فى الكف لا فى الحرف » فكم من كاتب يكتب البسملة والأدعية المأثورة ولا يشفى المكتوب له ، ذلك لأن البركة منزوعة من الكاتب ، ولعل أصدق مثل فى ذلك ما نتداوله نحن فى بلادنا :

« هذه الفاتحة ، وأين عمر ؟ » .

فإذا كان الكاتب سليم الصدر ، طيب العقيدة بينه وبين ربه سبحانه وتعالى : نفعت كتابته » ، وإلاّ ، فلا .

على أن الاستشفاء بالبردة ، أو بأبيات منها ، ليس هو استشفاء بها هى ، وإنما الاستشفاء بالنبى ﷺ ، إذ هو بركة الدنيا والآخرة ﷺ .

هذا هو واقع الأمر وحقيقته ، ومن أراد فليجرب بشروطه المعلومة ، وأولها وأولاها : أن يكون المطعم ، والمشرب ، والملبس ، وكل ما هو فيه حلالا طيبا ، قال رسول الله ﷺ لسيدنا سعد بن أبى وقاص : « يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » . وإلا فلن يستجاب له ، ولو كان على عبادة الثقلين ، والله الموفق ، لا رب غيره .

* * *

# بسم الله الرحمن الرحيم
## مقدمة الشارح

حمداً لمن شرح بمدح نبيه قلوب أوليائه ، ووشحهم ببردة محاسنه وطيب سَنائه [1] .

وصلاة وسلاماً على من خصَّه بخواص هباته ، وكمَّله بأكمل عناياته .

( أما بعد ) فيقول راجي عفو ربه الكريم ، عَبْدُهُ الباجورى إبراهيم : اعلم أن مدحه ﷺ لم يتعاطه فحول الشعراء المتقدمين ، لأن كمالاته ﷺ لا تُحصى ، وشمايله [2] لا تُستقصى ، فالمادحون لجنابه العلى ، والواصفون لكماله الجلى ، مقصِّرون عما هنالك ، قاصرون عن أداء ذلك ، كيف وقد وصفه الله فى كتبه بما يَبْهَر العقولَ ، ولايُستطاع إليه الوصولَ فلو بالغ الأولون والآخرون فى إحصاء مناقبه لعجزوا عن ضبط ما حباه مولاه من مواهبه ، ولقد أحسن من قال :

أرى كلَّ مدح فى النبى مقصِّراً * وإنْ بالغ المثْنِى عليه وأكثَرَ

إذا اللّهُ أثنَى بالذى هو أهلُهُ * عليه فما مقدارُ ما تمدح الورَى ؟

فكل علوّ فى حقه تقصير ، ولا يبلغ البليغ إلا قليلاً من كثير ، لكن المتأخرون رأوا مدحه بالشمايل [2] والكمالات من أعظم القُرَب والطاعات، لأجل التعلق بجنابه الشريف ، والتبرك بخدمة قدره المنيف [3] * فأكثروا

---

(١) السناء : فى المصباح المنير : « السناء « من المدح » .

(٢) الشمايل : جمع شميلة ، بالياء ، لا بالهمزة ، وقد حقق الكلمة الشيخ الباجورى رحمه الله تعالى فى مقدمته على الشمايل المحمدية للإمام الترمذى ، قال بعد كلام : « ... الشمايل بالياء جمع شمال بمعنى الطبع والسجية كما فى كتب اللغة ، أما الشمائل بالهمز جمع شمال ضد اليمين » ص ٦ طبع المطبعة البهية ١٣٠٥ هـ .

(٣) المنيف : أى الزائد .

من مدحه ، وتفننوا فيه فنوناً كثيرة ، ومن أَجَلِّهمُ الإمام الكامل ، والهمام العالم العامل ، البليغ ، الأديب ، أشعر العلماء ، وأفصح الحكماء الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري [1] *

ومما صاغه صوغ الذهب الأحمر ، ونظمه نظم الدر والجوهر ، قصيدته المشهورة بالبردة ، وإنما اشتهرت بذلك لأنه لما نظمها بقصد البرء من داء الفالج (*) الذى أصابه فأبطل نصفه ، حتى أعجز الأطباءَ ، رأى النبيَّ ﷺ فى منامه فمسح بيده عليه ، ولفه فى بردته ، فبرأ لوقته [2] كما ذكره الناظم فى تعليقه .

وقال بعضهم : الأولى أن يقال لهذه القصيدة « بُرأة »لأن المؤلف بَرِئَ [3] بها ، والتى حقها أن يقال لها « بردة » بانت سعاد [4] التى هى قصيدة كعب بن زهير ، لأن النبي ﷺ أجازه عليها بردةً حين أنشدها بين يديه .

وقد سألنى بعض الإخوان ، أصلح الله لى وله الحال والشان ، أن أكتب عليها حاشية تبين مقصودها ، وتبرز مرادها ، فأجبته لذلك ، وإن كنت لستُ أهلاً لما هنالك ، فالتقطت بعض العبارات ، واجتنيت بعض الثمرات ، فقلت - وبالله التوفيق لأقْوَم طريق - : قد اشتهر ابتداء هذه القصيدة ببيت مشتمل على الحمد والصلاة على النبي ﷺ وهو :

« الحمدُ للهِ مُنشِي الخلقِ مِنْ عَدَمِ * ثم الصلاةُ على المختارِ فى القِدَمِ »

---

(١) هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصرى ولد ببهتيم [ كذا في الأعلام للزركلى ] وتوفى بالأسكندرية ، له ديوان شعر مطبوع ، وله قصيدة البردة - التى نحن بصددها ، وله قصيدة الهمزية المشهورة . ترجمته فى فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٥ وخطط على باشا مبارك جـ ٧ ص ٧٠ والوافى بالوفيات جـ ٣ ص ١٠٥ - ١١٣ وآداب اللغة جـ ٣ ص ١٢٠ . ولد سنة ٦٠٨ هـ وتوفى سنة ٦٩٦ هـ .

(*) الشلل . (٢) أى فوراً . (٣) شفى .

(٤) مطلعها : « بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم أثرها لم يفد مكبول » .

وهو ليس منها ، لأنه وإن كان ثناءً حسناً فى ذاته إلا أن ابتداء القصائد به غير مستحسن عند الأدباء ، لما جرت به عادتهم من افتتاح قصائدهم بذكر لوازم العشق ، من ذكر الأحبة وديارهم ومقاساة الأحزان والأشواق وتحمل مكاره الفراق ، ويسمون ذلك غزلاً وتشبيباً ، ويعدّون هذا الصنيع من حسن المطلع لاهتمامهم بشأن العشق واعتنائهم بشدائده [1] ، ولذلك قال بعضهم : الشعر لا يُبدأ بالبسملة والحمدلة . وقد جرت عادة الشعراء بأنهم يجردون من أنفسهم شخصاً يحاورونه دلالاً وعتاباً وسؤالاً وجواباً إيهاماً لندرة خبير يظهرون رموز العشق عليه ، وتخييلاً لقلة صديق يضمرون كنوز الحب لديه . ولما كان الناظم من أبلغهم وأفصحهم ، صنع هذا الصنيع كما ستراه إن شاء الله تعالى :

---

(١) فى طبعة الوهبية « اغتنامهم شدائده » .

# بُرْدَةُ المَديح

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بِذِى سَــلَمِ * مَزَجْتَ دَمعاً جَرى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ (١)

(١) ( قوله أمن تذكر إلخ ) قد جرد المصنف من نفسه شخصاً مزج دمعه الجارى من مقلته بالدم ، وخاطبه بذلك مستفهماً عن سبب مزج الدمع الجارى من المقلة بالدم، ما هو ؟ هل هو تذكر الجيران المقيمين بذى سلم ؟ أو هبوب الريح من جهة كاظمة ؟ وإيماض البرق فى الليلة الظلماء من إضم ؟ وعلم من ذلك أن الهمزة للاستفهام ، و « من » للتعليل ، فهى بمعنى لام الأجل ، وهى متعلقة بقوله « مزجت » ، وقدمها عليه تنبيها على أن الشك ليس فى نفس المزج ، إذ هو ثابت مشاهَد ، بل الشك فى سببه ، والتذكر مصدر تذكر مأخوذ من الذُكر ( بالضم ) وهو ضد النسيان ، والجيران بكسر الجيم ، جمع جار ، وإضافة التذكر إليه من إضافة المصدر لمفعوله بعد حذف الفاعل ، والأصل : تذكرك جيراناً ، فحذف الفاعل وأقيم المفعول مقامه ، والمراد بالجيران : المحبوبون ، لأن مِنْ لازم الجوار الذى هو الملاصقة فى الأصل المحبوبيةُ ، فالناظم قد اطلق اسم الملزوم ، وأراد اللازم ، على سبيل المجاز المرسل ، والباء للظرفية ، فهى بمعنى « فى » ، والمراد بذى سلم موضع بين مكة والمدينة قريب من قديد ، وهو محل هناك أيضاً ، والمزج : الخلط ، وقيل أخص منه ، لأنه لا يكون إلا فيما يصير بعد الخلط حقيقة واحدة ، بخلاف الخلط ، فإنه لا يختص بذلك ، وكنى بمزج الدمع بالدم عن كثرة البكاء ، والدمع ماء يصعد إلى الدماغ فيسيل من مجرى العيون بسبب شدة الحرارة الغريزية عند حادث سرور أو حزن ، ويكون بارداً للسرور ، وساخناً للحزن ، فيكون حينئذ كالماء الشديد الحرارة إذا فارق النار القوية ، لا يبرد إلا بعد حين ، فإذا عظمت الحرارة قلّت الرطوبة ، فيخرج مع الدمع دم ، لأنه أقرب من غيره لعمومه الأعضاء ، وسريانه فى سائر العروق ، فإذا طال البكاء جف الدم فيبيض الدمع ، ويقال حينئذ « شاب الدمع » . والجرى : السيلان بشدة ، ولذلك عبر الناظم بجرى دون سال ، والمقلة : شحمة العين التى تجمع السواد والبياض ، وفيها الحدقة التى هى السواد الذى فى وسط العين ، وتلك الحدقة فيها الناظر ، ولشدة صفائه كانت العين كالمرآة ، إذا استقبلها شخص رأى صورته فيها ، وأفرد الناظم المقلة لأن العرب قد يطلقونها ونظائرها مفردة ، ويريدون بها المثنى كما قال بعضهم :

* بكتْ عينى وحُقَّ لها بُكاها * (١) =

---

(١) وبقية البيت : * وما يُغنِى البكاءُ ولا العويلُ *

أمْ هَبَّتِ الريحُ مِن تِلْقاءِ كاظِمَةٍ    وَأَوْمَضَ البرقُ فى الظَّلْماءِ مِنْ إِضَمِ (٢)

= ويحتمل أنه بنى أمره على الرجاء والخوف ، فإذا نظر بمقلة الخوف بكى ، وإذا نظر بمقلة الرجاء سُر ، قال الشاعر :

ينام بإحدى مقلتيه ويتَّقِي * بأخرى المنايا فهو يَقظانُ نائمُ (١)

و « من » الداخلة على المقلة ابتدائية ، وهى متعلقة بجرى .

واعترض بأنَّ هذه الجملة حشو لا فائدة فيها لأن الدمع لا يكون إلا كذلك .

وأجيب بأنها ليست حشواً ، بل للاحتراز عما يحتمله الكلام لولا هذه الجملة ، من أنه مزج الدمع بعد انفصاله من العين بالدم ، وليس مراداً ، وفى هذا الجواب نظر ، لأن هذا الاحتمال قائم مع هذه الجملة . والأظهر فى الجواب أنها تأكيد ، والدم : أحد الأمشاج الأربعة (٢) التى خُلق منها الإنسان ، والباء الداخلة عليه للتعدية بالنظر ، لقوله مزجت ، وللمصاحبة بالنظر لقوله جرى ، فقد تنازعه كل منهما ، والمراد بدم منك كما قدَّره بعض الشارحين ، ليخرج ما يحتمله الكلام لولا هذا التقدير ، من أنه مزج الدمع بعد انفصاله بدم أجنبى ، والتنوين فى قوله « جيران ، ودمعاً ، ومقلة ، ودم » إما للتعظيم ، وإما للتنويع .

وفى هذا البيت براعة استهلال ، لأن فيه إشارة إلى أن هذه القصيدة فى مدح النبى ﷺ ، حيث ذكر فيه المواضع التى بقرب المدينة الشريفة ، وفيه أيضاً الجناس الناقص حيث ذكر فيه الدمع والدم ، فإنهما مختلفان ، بزيادة العين ونقصانها .

(٢) ( قوله أم هبت الريح إلخ ) لما كانت الهمزة لا بد لها من معادل ، أتى المصنف بما يعادلها فقال : « أم هبت الريح ، إلخ » فأم متصلة ، وهى حرف عطف ، يطلب بها و بالهمزة التعيين ، وجملة « هبت الريح » فى تأويل المفرد أى : أم هبوب الريح ، وكذا جملةُ أومض البرقُ ، أى وإيماض البرق ، فكل من الفعلين مؤوَّل بمصدر ، وإن لم يكن هناك سابك ، لأن وجود السابك أمر أغلبى ، وإلا فقد لا يوجد كما فى قولهم « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » فإن الفعل فيه مؤوَّل بمصدر مع عدم وجود السابك على بعض الأقوال ، وواو العطف إما على حقيقتها كما هو المتبادر ، فيكون =

(١) وهى أيضاً صفة الذئب ، وسبحان من أعطى كل شىء خلقه .

(٢) الأمشاج : جمع مَشِجٍ وهو كل شيئين مختلطين . والأمشاج الأربعة هى : الماء والهواء والتراب والنار .

= الترديد بين الشيء والشيئين ، أو بمعنى « أو » ، فيكون الترديد بين ثلاثة أشياء ، على سبيل منع الخلو ، فإن كلا من تذكر الجيران ، وهبوب الريح من جهة كاظمة ، وإيماض البرق من إضم ، سبب للبكاء وموجب للإفراط فيه ، أما التذكر فلإنه يحصل به التحسر على ما مضى من وصل الأحبة ، ومؤانستهم ، ولقد أحسن من قال :

تــذكــرتُ أيامــاً لنا ولياليا مضتْ فجَـرتْ مِـن ذكرهن دموعُ

ألا هل لنا يوماً مِنَ الدهر أوبَةٌ وهلْ لى إلى أرضِ الحبيب رجوعُ

وأما هبوب الريح من جهة كاظمة فلأن المحب دائما يفكر فى محاسن محبوبه ، فإذا هبت الريح من جهة موضعه ، تخيل أنها حملت روائحه إليه ، وأما إيماض البرق من إضم ، فلأن من عادة المحبين أن يرتاحوا للبرق إذا لمع من جهة ديار الأحبة لكون البرق مما يذكر صفات المحبوبين للطافته ، وأيضاً المحب يتخيل عند لمعان البرق أنه يرى ديار المحبوب ، وهبوب الريح : هيجانها ، والريح جسم لطيف شفاف غير مرئى يهب بمقدار مخصوص ، فى وقت مخصوص ، وإذا أتت مفردة ، فالغالب أنها للعذاب (١) ، وإذا أتت مجموعة فالغالب أنها للرحمة ، ولذلك قال ﷺ : « اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها (٢) ريحاً » وذلك لأن ريح العذاب واحدة ، وهى الدبور (٣) وعليها خَزَنَةٌ فعتت عليهم ، فخرجت من مقدار خاتم فأهلكت عاداً ، ولو خرجت من مقدار أنف ثور لأهلكت الدنيا .

وأفردها الناظم هنا لأن الحب وإن كان عَذْباً لكنه مختلط بعذاب ، و « تلقاء » بمعنى حذاء ، وكاظمة (٣) اسم موضع كما قاله الجوهرى ، وقال غيره : اسم ماء . والإيماض : اللمعان الخفيف ، وإن أطلقه بعضهم عن التقييد بالخفيف ، والبرق : عند أهل السنة أجنحة مَلَك يسوق بها السحاب ، وقيل ضحكة ، فقد نقل الشافعى فى الأم عن الثقة عن مجاهد : أن الرعد مَلَك والبرق أجنحته . =

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا ﴾ ( فصلت : ١٦ ) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وجعلنا الرياح لواقح ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا » لأن الريح تأتى بعنفوان وشدة فإذا ما جعلها الله رياحًا بدد قوتها وصارت رحمة لا عذاباً . والله تعالى أعلم .

(٣) قال فى القاموس : هى ريح تقابل الصَّبا .

..........................................................

= وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « بعث الله السحاب فنطقت أحسن النطق وضحكت أحسن الضحك ، فالرعد نطقها والبرق ضحكها » (١) ، أى لمعان النور من فمها .

وأما قول بعض الشارحين إنه صوت ملك يزجر السحاب إلى الجهة التى يريدها الله تعالى ، ففيه نظر .

وأما عند أهل الهيئة فهو : نار تحدث عند شدة اصطكاك الهواء بعضه مع بعض ، ولذلك أكثر ما يكون عند انتقال الزمان من الحرارة إلى البرودة ، وعكسه . والظلماء : صفة لموصوف محذوف والتقدير فى الليلة الظلماء أى ذات الظلمة ، وإنما خص الليلة الظلماء بالذكر لأن الضوء فى الظلمة أجلى ، وقد اختلف فى الظلمة فقيل أمر وجودى يضاد النور قائم بالهواء ، وقيل أمر عدمى (٢) ، وإضم بكسر الهمزة وفتح الضاد المعجمة اسم لجبل ، وقيل اسم لواد بقرب المدينة الشريفة ، وفائدة هذين البيتين أنهما يكتبان فى جام ( أى قزاز ) ويمحيان بماء المطر ، ويسقى المحو للبهيمة التى صعب تعليمها وتذليلها ، فإذا شربتْ ذلك ذلتْ وانقادتْ وتعلمت بسرعة ، وإذا كان عندك عبد أعجمى وعسر عليك تعليمه كلام العرب فاكتب هذين البيتين فى رق غزال (٣) ثم علقه على عضده الأيمن فإنه يتكلم بالعربية فى أسرع وقت .

---

(١) رواه الإمام أحمد ونصه من ابن كثير فى تفسير سورة الرعد : « إن الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك » .

وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم قال : « يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكاً ، ولا آنس منه منطقا ، فضحكه البرق ومنطقه الرعد » .

(٢) يعنى يظهر عند فقدان النور .

(٣) بفتح الراء من رَقّ : أى وقد اثبتوا هذا بالتجارب مع الاعتقاد بأن الله هو الفاعل لكل شىء ، فإذا حسنت العقيدة فى الله تعالى أدت إلى نجاح العمل ، وقد قالوا : « إن السر فى الكفّ لا فى الحرف » .

والمعنى أن الكاتب لهذه الأشياء إن كان فيه بركة من الله تعالى حدث سره فيما كتب ، وإلا فلو كتب ألف مرة فلا يحدث شىء . وأمر الرجل الذى شفى الله به الملدوغ فى عهد النبى ﷺ وقد قرأ عليه الفاتحة وتفل على مكان اللدغ مروى فى كتب السنة كلها تقريباً وأمره مشهور وذائع .

فما لِعينيـكَ إنْ قلتَ اكْفُفا هَمَتا | وما لِقَلْبكَ إنْ قلتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ (٣)
أيَحْسَبُ الصَبُّ أنَّ الحبَّ مُنْكَتِمٌ | ما بَيْـنَ مُنْسَجِمٍ منهُ ومُضْطَرِمِ (٤)

---

(٣) ( قوله فما لعينيك إلخ ) لما سأل النظام عمّا ذكر ولم يردّ عليه المسؤل جواباً لأن من شأن المحبين أن يكتموا الحب فى أوّل الأمر ، بل جرت عادتهم بإنكاره بالمرة ، نزّل الناظم المسؤلَ منزلة المنكر وتعجب من حاله على فرض صدقه فى الإنكار فقال فما لعينيك إلخ أى إذا صدقتَ فى إنكارك الحب فأى شىء ثبت لعينيك أوجب لهما أنك إن قلت لهما اكففا همتا ؟ وأى شىء ثبتَ لقلبك أوجب له أنك إن قلت له استفق يهم ؟ فالفاء للإفصاح ، وجعلها بعضهم للعطف ، لكن الأوّل أظهر ، « وما » فى الموضعين اسم استفهام مبتدأ خبره الجار والمجرور بعده ، وجملة قوله « اكففا » فى محل نصب مقول القول ، وكذلك جملة قوله « استفق » ، ومعنى اكففا أمسكا عن البكاء ، و « همتا » بمعنى سالتا مأخوذ من الهميان وهو السيلان ، فأصله هميتا قلبت ياؤه ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع التاء التى أصلها السكون ، وإن عرض تحركها لمناسبة الألف ، وفى كلامه حذف التمييز المحول عن الفاعل ، أى همتا دمعاً ، والأصل همى دمعهما ، فحول الإسناد عن الدمع إليهما وأتى به تمييزاً ، لكن حذفه الناظم . والقلب : لحم صنوبرى الشكل أى شكله على شكل الصنوبر لأنه دقيق الأسفل غليظ الأعلى كهيئة قمع السكر ، وقال بعضهم : القلب سرٌّ وضعه الله فى هذه اللحمة فتسميتها قلباً لحلوله فيها . والسين والتاء فى استفق زائدتان فمعناه أفق مما أنت فيه . وقوله « يهم » مضارع هام يهيم إذا قام به الهيام وهو داء كالجنون ينشأ من العشق وغيره . وفى هذا البيت الطباق لأنه جمع فيه بين متقابلين فى كل من الشطرين ، أما الشطر الأول فجمع فيه بين قوله اكففا وقوله همتا ، وأما الشطر الثانى فجمع فيه بين قوله « استفق » وقوله « يهم » .

(٤) ( قوله أيحسب الصب إلخ ) لما سأل المصنفُ المخاطَب السؤالَ المسكت ، وألزمه الإلزام المبهت ، رجع إلى تغليطه فى الإنكار ، فقال : أيحسب الصب إلخ ، والهمزة للاستفهام الإنكارى ، ويحسب : بكسر السين وفتحها أى يظن ، وكان مقتضى ما سبقَ أن يُعبر المصنف بتاء الخطاب لكنه التفت إلى الغيبة لما جرت به عادة الأدباء من تغيير كلامهم من أسلوب إلى أسلوب آخر تكلماً وخطاباً وغيبةً تنشيطا للسامع . والصب : العاشق من قولهم صبَّ الماءَ لأنه لما كان كثير البكاء فكأنه يصب الدمع ، وقال =

لَوْلا الهَوَى لَمْ تُرِقْ دمعاً على طَلَلٍ ولا أَرِقْتَ لِذِكْرِ البانِ والعَلَمِ (٥)

= بعضهم من « الصبابة » وهى رقّة العشق وحرارته . وجملة « أن » واسمها وخبرها سدّت مسد مفعولى يحسب ، و « الحب » عرّفه بعضهم بأنه صفاء الحال بين المحب والمحبوب ، وقوله منكتم أى مستتر ، و « ما » اسم موصول بمعنى الذى فى محل نصب على أنه بدل من الحب ، أو صفة له ، وصدر الصلة محذوف أى الحب الذى هو بيّن إلخ ، كذا قال بعض الشارحين ، وهو أظهر من جعل بعضهم ما زائدة وجعله « بين » ظرفا لقوله منكتم ، وكلٌّ من منسجم ومضطرم صفة لموصوف محذوف ، والتقدير بين دمع منسجم منه وقلب مضطرم . والمنسجم : السائل من قولهم انسجم الماء : سال ، والمضطرم المشتعل من قولهم اضطرمت النار اشتعلت . والمعنى : لا يظن العاشق أن الحب مستتر عن الناس الذى هو بين دمع سائل وقلب مشتعل من نار الحب وكل منهما من آثار الحب مع كونهما ظاهرين ، وحينئذ فإنكار الحب غلط .

(٥) ( قوله لولا الهوى إلخ ) لما غلّط المصنفُ المسؤل فى إنكاره الحب استدل عليه بأدلة فقال « لولا الهوى إلخ » والهوى : مصدر هوى بكسر الواو : إذا أحب ، فهو بمعنى الحب ، وهو مبتدأ والخبر محذوف ، أى موجود ؛ و « لولا » حرف يدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، فالمعنى امتنع عدم إراقتك دمعاً على طلل لوجود الهوى .

وقوله لم ترق دمعاً أى لم تصبّه ، يقال أراق الماء أى صبّه ، ويقال هراق أيضاً بمعناه . وكان مقتضى قوله أيحسب إلخ أن يقول لم يرق بياء الغيبة (١) ، لكنه التفت إلى الخطاب لما تقدم . والطلل : ما بقى من آثار الدار مرتفعا ، فإن لم يكن مرتفعاً بأن كان ملتصقاً بالأرض كان رسما ، و « على » الداخلة عليه للتعليل أى لأجل طلل ، هذا إن لم يقدّر وقوفه على الطلل كما هو المتبادر ، وإلا كانت بمعنى « فى » ، وقوله « ولا أرقت إلخ » عطف على قوله لم ترق إلخ ، وأرقت بكسرالراء بمعنى سهرتَ . والبان شجر طيب الريح ويتخذ منهُ دهن يعرف بدهن البان ، والعلم : يطلق على معان منها الجبل والرمح ، أى ولا سهرت لذكر البان والعلم الكائنين بمحل المحبوب ، وعلى هذا فالبان والعلم باقيان على معناهما . ويحتمل أنه شبه المحبوب بهما فى طيب الرائحة وحسن الهيئة وطول القامة ، وإنما أورثه ذكرهما السهر لأن النوم إنما يكون من =

(١) بفتح الغين .

ولا أعارتْـكَ لَونَيْ عَبْرَةٍ وضَنَـى		ذِكْرَى الخِيامِ وذِكرَى ساكِنِي الخِيَمِ (٦)
فكَيْفَ تُنْكِرُ حبّاً بعدَ ما شَهِدَتْ		بهِ عَلَيْـكَ عُـدولُ الدَمْعِ والسَّقَمِ (٧)

---

= الرطوبة الصاعدة من المعدة إلى الدماغ ، والمحب تكثر حرارته فتنتفى عنه الرطوبة ، وحينئذ فلا ينام ، وتلك الرطوبة تنشأ غالباً عن كثرة الطعام والشراب ، والمحب يلهيه حبه عن أكله وشرابه فتنتفى رطوبته وتتضاعف حرارته لا سيما عند ذكر معاهد الأحباب أو ما هو شبيه بالأحباب ، وفى هذا البيت شبه الاشتقاق حيث جمع فيه بين ترق وأرقت .

(٦) ( قوله ولا أعارتك إلخ ) لما ذكر المصنف دليلين أردفهما بدليل ثالث على ما فى بعض النسخ الذى شرح عليها بعض الشارحين ، لكن لم يوجد ذلك فى كثير من النسخ . وهو معطوف على قوله لم ترق إلخ ، ومعنى أعارتك أعطتك على سبيل العارية ، وقوله لونَيْ عبرة وضنى : معمول لأعارتك ، وفاعله « ذكرى إلخ » ، والمراد باللونين هنا النوعان ، والعبرة بفتح العين : الدموع ، والضنى : المرض ، فانسجام الدموع على النحر بمثابة الدر المعلق عليه وذلك لون العبرة ورقة جسمه وصفرة لونه كثوب بديع الرقة والصبغ ، وذلك لون الضنى ، وفى الكلام استعارة بالكناية وتخييل لأنه شبه لونى العبرة والضنى بلباسين بجامع الزينة فى كلٍّ ، أما فى المشبه به فظاهر ، وأما فى المشبه فلأن آثار الحب زينة عند المحب ، فيتزين بها كما يتزين بالباس تشبيها مضمراً فى النفس ، وطوى لفظ المشبه به ورمز إليه بشىء من ملائماته وهو الإعارة . وقوله « ذكرى الخيام وذكرى ساكنى الخيم » أى تذكر الخيام وتذكر ساكنى الخيم ، فالذكرى فيهما بمعنى التذكر . وكل من الخيام والخيم جمع خيمة وهى بيت تتخذه العرب من عيدان الشجر ، وحذفت النون من « ساكنين » للإضافة ، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين .

(٧) ( قوله فكيف تنكر إلخ ) لما أقام المصنف على المسؤل الأدلة على حبه مع صحة نتيجتها أنكر عليه دوامه بعد ذلك على الإنكار فقال : فكيف تنكر إلخ ، والفاء للإفصاح لأنها أفصحت عن شرط محذوف والتقدير : إذا قامت عليك الأدلة فكيف تنكر إلخ ، و « كيف » حال مقدمة مضمنة معنى الاستفهام على وجه الإنكار ، ومعنى تنكر : تجحد ، والجحد هو النفى بعد العلم بخلافه قبله ، وقوله حبا معمول لتنكر ، و « بعد » ظرف له ، و « ما » يحتمل أن تكون مصدرية وهو الظاهر فالفعل بعدها وهو شهدت مؤوّل بمصدر والضمير فى به عائد على الحب ، والتقدير على هذا : بعد شهادة عدول الدمع والسقم به عليك . ويحتمل أن تكون اسم موصول بمعنى الذى ، وجملة شهدت صلة ، والضمير فى به عائد على ما ، والتقدير علـــى =

وأثبَتَ الوَجْدُ خطَّىْ عَبْرةٍ وضَنًى      مِثْلَ البَهارِ عَلَى خدَّيكَ والعَنَمِ (٨)

---

= هذا بعد الذى شهدت به عليك إلخ . وفى « شهدت » استعارة تصريحية تبعية لأنه شبه الدلالة الواضحة بمعنى الشهادة بجامع الوضوح فى كلٍّ ، واستعار الشهادة للدلالة ، واشتق من الشهادة بمعنى الدلالة شهدتْ بمعنى دلت ، ولفظ العدول ترشيح للاستعارة ، والعدول جمع عدل ، والدمع هو الماء الجارى من العين ، والسقم بفتحتين المرض ، ويقال « فيه سُقم » بضم فسكون لكن فى غير النظم ، كما قاله شيخ الإسلام . وإضافة عدول للدمع والسقم للبيان أو من إضافة الصفة للموصوف ، واستعمال الجمع فى الإثنين كما هنا كثير شائع ، واعترض هذا الجمع بأن العدل مصدر وهو لا يثنى ولا يجمع ، وأجيب بأن محل قولهم إن المصدر لا يثنى ولا يجمع إذا اعتبرت مصدريته ، وهنا قد اعتبر ما نقل إليه ، وإنما ذكر كونهم عدولاً للإشارة إلى أنه لا يمكن المخاطب ردَّ شهادتهم .

(٨) ( قوله وأثبت الوجد إلخ ) أى وبعدما أثبت الوجد إلخ فهو معطوف على شهدت ، والوجد هو الحزن بسبب الحب ، وقيل : نيران أشواق تنشرها رياح المحبة عند سماع ذكر المحبوب . وإسناد الإثبات إلى الوجد مجاز عقلى ، من قبيل الإسناد إلى السبب ، كما فى قولك سرتنى رؤيتك ، وقوله خَطَّى عَبرة بفتح العين كما تقدم أى خطين من الدموع ، وقوله « وضنى » عطف على خطى عبرة لكن على تقدير مضاف أى وأثر ضنى ، وقوله « مثل البهار إلخ » صفة لكل من خَطَّىْ العبرة والضنى ، لكن على اللف والنشر المشوش ، لأن البهار بفتح الباء الموحدة وردٌ أصفر ، وأثر الضنى صفرة الوجه ، فأثر الضنى مثل البهار فى الصفرة . و « العنم » بفتح العين والنون شجر له أغصان حمر ، وقيل ورد أحمر ، والخطان من العبرة أحمران لامتزاج الدم بالدمع ، فالخطان من العبرة مثل العنم فى الحمرة ، وقوله « على خديك » متعلق بأثبت ، فتقدير البيت وأثبت الوجد على خديك خطَّى عبرة مثل العنم ، وأثر ضنى مثل البهار ، والمعنى : وكيف تنكر حباً بعد ما أثبت الوجد على خديك علامتين ظاهرتين على الحب ، فكل من رآك يعرف الحب فى وجهك ؟ .

وفائدة الأبيات الخمسة التى أولها « فما لعينيك » أن الرجل إذا اتهم زوجته أو ابنته أو عيلّته كتب هذه الأبيات فى ورقة من ورق الاترج ، ووضعها على يد المتهوم اليسرى وهو نائم ويجعل أذنه على فمه ، فإنه ينطق بجميع ما فعله فى غيبته خيراً أو شراً ، وكذلك إذا سُرق له شىء واتهم أحداً أو شك فى أحد ، فليكتب هذه الأبيات فى جلد ضفدع مدبوغ ، ويأخذ لسان الضفدع ويصرُّه فى الجلد المذكور ، ويعلق ذلك الجلد فى عنق المتهوم ، فإنه يُقرُّ فى ساعته لدهشته .

نَعَمْ سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوى فأرّقنى           والحبُّ يَعْتَرِضُ اللّذاتِ بِالأَلَمِ (٩)

(٩) ( قوله نعم سرى إلخ ) لما اتضح حال المسئول مما هو عليه من الحب ولم يبق له سبيل إلى الإنكار أقرّ واعترف بذلك ، حيث قال : نعم إلخ ، هكذا قال بعض الشارحين ، وعليه فالناظم لم يرجع من التجريد إلى التكلم ، وقال بعضهم : لما انكشف كون المسئول محباً ، وكان هو المتكلم فى المعنى رجع من التجريد إلى التكلم واعترف بالحب حيث قال « نعم إلخ » ، والأول أقرب . و « نعم » حرف إيجاب لما سبق ، فكأنه قال « صدقت أيها السائل فيما نسبتنى إليه من الحب ، وأن سبب مزج الدمع الجارى من المقلة بالدم تذكر المحبوبين ، كما هو الشق الأول من السؤال السابق ، فقال له السائل : وما سبب تذكرك لهم ؟ فقال « سرى إلخ » وصلة « سرى » محذوفة والتقدير « سرى إلىّ » أى سار إلىّ ليلاً لأن السُّرَى (١) هو السير ليلاً ، وقوله طيف من أهوى : أى خيال من أحب ، فالطيف خيال المحبوب . و « أهوى » مضارع هوى بكسر الواو بمعنى أحب بخلاف هوى بفتح الواو فإنه بمعنى سقط . وسبب ذلك الخيال أن النفس إذا ولعت بشىء حصلت صورته فى القوّة المخيلة فترى خياله فى المنام كثيراً ، وقوله فأرّقنى أى أسهرنى لأنه لما تذكر الحب (٢) ثارت عليه الحرارة وانتفت عنه الرطوبة فارتفع عنه النوم كما تقدم ، وقوله « والحب يعترض اللذات بالألم » أى يدفعها بالألم ، يقال اعترضه بالسهم إذا دفعه به ، فالألم هنا بمنزلة السهم ، واللذات بمنزلة الشخص الرامى .

ويحتمل أن المراد أن الحب يجعل الألم عرضة فى اللذات فيصير الألم كالخشبة المعترضة فى النهر .

ويحتمل أيضاً أن المعنى أن الحب يغيب اللذات بالألم ، فإنه يقال عرض الشىء إذا غيبه ، والمراد باللذات ما كان فيه من النوم والتسلى عن المحبوبين ، وبالألم ما ينشأ عن الحب من شدة الوجد ، وحاصل المعنى أنه صدقه فيما نسبه إليه من الحب بقوله « نعم » ثم ذكر له سبب تذكره للمحبوبين بقوله « سرى طيف من أهوى » ، وذكر أنه =

(١) بضم السين المشددة هو سير عامة الليل . كذا فى القاموس .

(٢) بكسر الحاء المهملة .

يا لائِمِى فى الهَوَى العُذْرِىِّ مَعذرةً     مِنِّى إليكَ ولو أنصَفْتَ لَمْ تَلُمِ (١٠)

= أسهره بقوله « فأرقنى » ، وذكر أنه بعد أن كان فى لذة صار فى ألم ، ولذلك قال : والحب يعترض اللذات بالألم ، ولبعضهم فى هذا المعنى :

وزارنى طيفُ من أهوى على حذرٍ     من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكـدتُ أوقظ مَـن حولى به فرحاً     وكاد يهتـكُ سترَ الحبِّ بـى شغفا

وفائدة هذا البيت أن من كرره بعد صلاة العشاء حتى يغلب عليه النوم ، فإنه يرى المصطفى ﷺ فى منامه إن شاء الله تعالى (١) .

(١٠) ( قوله يالائمى إلخ ) لما أقرّ المسؤل بالحب ، لامه السائل فيه ، فرجع المسئول على السائل يوبخه فى لومه عليه فيه ، فقال : يا لائمى إلخ ، وهذا كما ترى مبنى على بقاء التجريد .

-وأما على أن الناظم رجع من التجريد إلى التكلم ، فيكون المصنف قد استشعر لائما عليه ، لأن المحب إذا أقر بالحب لامه (٢) عليه غيره ، فوبخه المصنف على لومه عليه . وقوله « فى الهوى العذرى » بالذال المعجمة ، أى الهوى المنسوب إلى بنى عذرة بضم العين ، وهم قبيلة مشهورة باليمن ، يؤدّى بهم العشق إلى الموت لصدقهم فى الحب ورقة قلوبهم .

والمقصود من النسبة التشبيه ، فالمراد أن هواه مشبه لهوى بنى عذره .

وقيل الهوى العذرى هو الحب الذى من شأنه أن يقبل عذر صاحبه عند كل أحد لكونه مفرطاً ، وقوله معذرة ، أى أعتذر معذرة أو أقدم معذرة ، فهو بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف ، ويصح قراءته بالرفع على أنه مبتدأ خبره قوله « منى إليك » أى صادرة منى إليك ، أو على أنه خبر مبتدؤه محذوف ، والتقدير هذه معذرة ، وتكون الإشارة راجعة لقوله سابقاً : سرى طيف إلخ ، فالمعذرة على هذا خصوص ذلك ، بخلافه على ما قبله ، فإنه يحتمل أن تكون هى ذلك ، وأن تكون قوله الآتى « لا سرِّى بمستتر عن الوشاة ولا دائى بمنحسم » وأن تكون معذرة معروفة فى الخارج وهى أن يقول المحب للعاذل إنى محب ، والمحب لا يُلام سيما من كان حبه عذريا ، وقوله « ولو أنصفت لم تلم » أى لأن الحب ليس اختيارياً حتى يلام عليه ، بل هو قهرى ولا يلام إلا على الأمر الاختيارى ، كما قال القائل : =

(١) بشرط النية الصادقة فى أنه يريد أن يرى النبىّ ﷺ . (٢) فى نسخة الوهبية : « لام » .

عَدَتْــكَ حــالِــيَ لا سِــرِّى بِمُسْتَتِرٍ عَنِ الوُشاةِ ولا دائى بِمُنْحَسِمِ (١١)

= وعيبُ الفتى فيما أتى باختياره ولا عيبَ فيما كان خُلْقا (١) مركبا

لكن كون الحب ليس اختيارياً ، بل هو قهرى بعد تحكمه ، وإلا فمبدؤه اختيارى ، أو لأن اللوم على الهوى لا يكون إلا ممن ذاقه ، والمخاطَب لم يذقه ، ولذلك قال بعض الصوفية « لا ينبغى للشخص أن يتكلم على حال إلا إذا ذاقها » وإلى هذا المعنى أشار ابن الفارض بقوله :

دع عنك تعنيفى ، وذُقْ طعمَ الهوى فإذا عشقتَ ، فبعد ذلك عَنِّفً

وفائدة هذا البيت وما بعده أنك إذا رأيت منكرا ولم تقدر على إزالته ، فاكتبهما فى ورقة بزعفران ومسك وماء ورد ، ويكون تفصيل الورقة دائرة ، ثم اجعلها بين عينيك تحت العمامة ، فتقوى على إزالته بإذن الله تعالى .

وإذا أردتَ أن تقهر نفسك على إقامة شعائر الدين فواظب على قراءتهما خلف كل صلاة (٢) .

(١١) ( قوله عدتك حالى إلخ ) لما أبدى له المعذرة فى الهوى ، ووبخه فى اللوم عليه فيه ، فلم يرجع عن اللوم ، استعطفه بالدعاء له فقال : عدتك حالى إلخ أى جاوزتك حالى ، كما يقول الشخص لغيره : لا أراك الله حالى ، وعلى هذا فالجملة دعائية ، ويحتمل أنها استفهامية بتقدير همزة الاستفهام ، وعليه ، فالمعنى أجاوزتك حالى فلم تعذرنى ؟ ويحتمل أيضاً أنها خبرية ، وعليه فالمراد الإخبار بأنه جاوزته حاله ، ولم يصب بمصيبته حتى يعلم قدر ما هو فيه ، ولا يلومه ، ولو أصيب لعلم قدْر ما هو =

---

(١) بضم الخاء ، وسكون اللام لضرورة الشعر .

(٢) وهذا من المجربات الصحيحة إن شاء الله تعالى ، ولكن الشرط الأكبر فى هذا صدق النية وبركة الفاعل .

وقد ورد فى كتب التاريخ أن ملكاً من ملوك الروم أرسل إلى سيدنا عمر رضى الله عنه يطلب منه الدواء من صداع فى رأسه ، فكتب إليه سيدنا عمر ورقة فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعها فى قلنسوته التى كان قد بعثها مع رسوله ، فلما وضعها على رأسه ذهب الصداع ، فلما رفعها رجع كما كان ، ثم فعل هذا مراراً ، وأخيراً فتح القلنسوة فوجد فيها بسم الله الرحمن الرحيم ويقال إن الرجل أسلم فى هذا الوقت . والله تعالى أعلم .

مَحَّضْتَنِى النُّصْحَ ، لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ        إِنَّ المحبَّ عَنِ العُذَّالِ فى صَمَمِ (١٢)

= فيه ولم يلمه ، هذا كله إن فسر عدتك بمعنى جاوزتك ، كما تقرر ، فإن فسر بمعنى تعدت إليك ، أى وصلت إليك ، كما قاله بعض الشارحين ، كان القصد الدعاء عليه لا له ، أو الاستفهام عن ذلك بتقدير همزة الاستفهام ، والمعنى عليه : أوصلتْ إليك حالى حتى تلومنى ؟.

وقوله : « لا سرى بمستتر عن الوشاة » مستأنف استئنافاً بيانيا ، لأنه واقع فى جواب سؤال مقدر ، فكأن اللائم قال له : وما حالك التى استعظمتها ؟ فأجابه بذلك . والسر ما يكتمه الشخص عن غيره ، والوشاة جمع واش ، وهو الذى يشى الحديث بين المحب والمحبوب ، أى يزينه ويزخرفه لأجل الفساد بينهما ، ومن المعلوم أن الوشاة أعداؤه فاطلاعهم على سره يسيئه ، وقوله : ولا دائى بمنحسم ، أى ولا دائى الحاصل بسبب الحب بمنقطع بوصل المحبوب ومؤانسته ، كما هو شأن المحب ، فإنه إذا اشتد عليه الحال ، وواصله المحبوب وآنسه ، انقطع داؤه ، لكن هذا أمر أغلبى ، وإلا فهناك من يزيد عليه الحال بوصل المحبوب ومؤانسته .

(١٢) ( قوله محضتنى النصح إلخ ) لما لم يفد معه الاستعطاف فلم يرجع عن اللوم ، اعترف له بأنه أخلص له فى النصح ، من باب التسليم الجدلى ، ليستريح منه ، فقال « محضتنى النصح » إلخ أى أخلصتَ لى النصح عن الأغراض كالالتفات إلى المحبوب ، فإذا كان اللائم له التفات إلى المحبوب ، لم يخلص النصح عن الأغراض ، بل له فيه غرض ، وهو اختصاصه بالمحبوب ، بخلاف ما إذا كان ليس له التفات إلى المحبوب ، فإنه قد أخلص النصح ، وما هنا من هذا القبيل ، على التسليم الجدلى .

وقوله « لكن لست أسمعه » استدراك على قوله محضتنى النصح ، والمنفى إنما هو سماع القبول ، وإلا فقد يسمعه ، بل قد يتلذذ به ، وقوله : « إن المحب » إلخ تعليل لقوله لكن لست أسمعه ، فكأنه قال إنما لم أسمعه لأن المحب إلخ . وفى الحديث « حبك للشىء يعمى ويصم » (١) أى يعميك عن رؤية عيوبه ، ويصمك عن سماعها .  =

(١) رواه الإمام أحمد ، والبخارى فى التاريخ ، وأبو داود عن أيوب ، والخرائطى فى « اعتلال القلوب » عن أبى برزة وابن عساكر عن عبد الله بن أنيس ، رضى الله عن الجميع .

إنّى أتّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيبِ فى عَذَلٍ والشَّيْبُ أبعَدُ فى نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ (١٣)

= وقوله عن العذال :: على تقدير مضاف ، أى عن نصحهم ، والعذال جمع عاذل ، وهو اللائم فى الحب ،. وقوله فى صمم لا يخفى ما فيه من المبالغة ، لأنه بالغ فى الصمم ، حتى كأنه محيط بالمحب ، وجعله ظرفاً له ، والصمم : ضعف فى قوة السمع ، فوق الوقر (٢) ودون الطرش ، ودون الصنج (٣) أيضاً كما علم بالأولى ، ولذلك قال الثعالبى : « يقال فى أذنه وقر، فإن زاد فهو صمم ، فإن زاد فهو طرش ، فإن زاد حتى لا يسمع الرعد فهو صنج » ، وإنما خص المصنف الصمم بالذكر دون غيره ، وإن كان كل من الطرش والصنج أعلى منه ، لأنه هو الذى تستقيم عليه القافية .

(١٣) ( قوله إنى اتهمت إلخ ) لما اعترف له على طريق التسليم الجدلى ، بأنه محضه النصح فلم يرجع عن اللوم ، اتهمه فى عذله ، فكأن السائل قال له : كيف تتهمنى فى العذل ؟ فقال له إنى اتهمت إلخ ، أى فإذا اتهمت نصيح الشيب فى عذله علىّ فى الهوى ، والحال أن الشيب أبعد عن التهم فى النصح ، فكيف بالعاذل الذى ليس أبعد عن التهم فى النصح ، بل من شأنه أن يتهم فيه ؟ .

والإضافة فى قوله « نصيح الشيب » للبيان ، أى نصيحا هو الشيب ، أو من إضافة الصفة للموصوف أى شيبا ناصحا ، وإنما كان الشيب ناصحا ، لأنه يدل على قرب الأجل ، وحصول الموت الموجب لترك دواعى الشباب واشتغال العبد بما يقربه لمولاه زلفى ، وإنما دلّ على ذلك ، لأنه ليس بعد بياض الزرع إلا حصاده ، فهو ناصح بلسان الحال ، وقد قيل فى قوله تعالى ﴿ وجاءكم النذير ﴾ (٤) إنه الشيب .

وقوله « فى عذل » متعلق باتهمت أى اتهمته فى لومه علىّ فى الهوى ودواعى الشباب ، وهو بفتح الذال المعجمة لغة فى العذل ( بسكونها ) ، وقوله « والشيب أبعد فى نصح عن التهم » : أى والحال أن الشيب أبعد عن التهم فى النصح ، فالواو للحال .
=

(١) بمعنى خلص . بفتح الخاء واللام ، والمقصود هنا الشيب الخالص الذى لا سواد فيه .

(٢) قال فى القاموس المحيط : « الوقر » - بفتح الواو وسكون القاف - ثقل فى الأذن ، أو ذهاب السمع كله .

(٣) بفتح الصاد والنون : ذهاب حاسة السمع .

(٤) فاطر : ٣٧

فإنَّ أمَّارتِي بِالسوءِ ما اتَّعَظَتْ مِنْ جَهْلِها بِنَذيرِ الشَّيْبِ والهرَمِ (١٤)

= وفائدة هذين البيتين أنك إذا أحببت شخصاً فى الحلال وتستحى منه ومن الناس أن تكلمه فاكتبهما فى ساعة الزهرة ، فى صحفة من نحاس ، وامح تلك الصحفة بماء المطر ، واشربها ، فإنك تقوى على المحبوب وتجتمع به ، ولا تختشى من أحد أبداً ، وتفشى إليه سرك ، وتبلغ منه مقصودك إن شاء الله تعالى (١) .

(١٤) ( قوله فإن امارتى إلخ ) هذا تعليل للبيت قبله ، فكأنه قال : إنما اتهمت نصيح الشيب فى العذل ولم أقبل نصحه ، لأن أمارتى إلخ ، واستشكل قوله « أمارتى » بأن فيه اتحاد الآمر والمأمور ، لأن نفس الشخص هى هو ، وأجيب بجوابين : أحدهما أن النفس باعتبار تعلقها بالمخالفة آمر ، وباعتبار تعلقها بالصواب مأمور ، فهما مختلفان بالاعتبار ، وثانيهما أن الآمر النفس ، والمأمور البدن ، فالنفس مستولية بسلطانها على البدن ، فتصرفه فى شهواتها ، والامارة من أنواع النفس ، وهى التى تأمر بالمخالفة ، فلا يلوح لها طمع إلا فعلته ، ولا برزت لها شهوة إلا قضتها ، فلم تسلك سبيل الرشاد ، ولم تستضىء (*) بنور السداد ، وقد ذكرها الله فى قوله تعالى : ﴿ إن النفس لامارة بالسوء ﴾ (٢) ومنها اللوامة ، وهى التى ترجع باللوم على صاحبها كثيرا عند الوقوع فى المعصية لسابقة القضاء ، ومنها المطمئنة ، وهى التى اطمأنت للإيمان وللتصديق بوعد الله ، فهى دائماً موفقة للطاعة ، مصدِّقة بلقاء الله تعالى ، وقد ذكرها الله تعالى فى قوله تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ (٣) الآية . وقوله : « بالسوء » متعلق بأمارتى ، والسوء : القبيح ، وقوله « ما اتعظت » خبر إن ، أى ما قبلت الوعظ ، وقوله : « من جهلها » أى من أجل جهلها ، فهو تعليل لقوله « ما اتعظت » وإنما وبخ نفسه على عدم الاتعاظ بسبب جهلها لأنه قادر على دفع الجهل بتحصيل أسباب العلم ، وقوله « بنذير » متعلق باتعظت أو بجهلها . ونذير : إما بمعنى الإنذار فيكون مصدراً ، وعلى هذا فالإضافة فى قوله « نذير الشيب والهرم » من إضافة المصدر لفاعله ، أو بمعنى المنذر ، فيكون اسم فاعل ، =

(١) بشرط أن يكون الحب لله وفى الله ، وليحذر المسلم من استعمال هذه الأشياء فيما حرم الله ، فإنها نكبة عليه وعلى محبوبه ، وقد جرب أناس ذلك فأصيبوا بالدمار الكامل ، والله يتولى هداك .

(٢) سورة سيدنا يوسف صلى الله عليه وسلم ، الآية : ٥٢ (*) فى الوهبية « لم تضىء » .

(٣) سورة الفجر ، الآية ٢٧

وَلا أَعَدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجَمِيلِ قِرَى ضَيْفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ (١٥)

= وعلى هذا فالإضافة فى قوله « نذير الشيب والهرم » من إضافة الصفة للموصوف ، أو للبيان ، وكان عليه أن يقول بنذيرَى الشيب والهرم ، إلا أن يقال الإضافة للجنس فيصدق النذير بالمتعدد ، أو إنه حذف من الثانى لدلالة الأول ، والأصل بنذير الشيب ونذير الهرم .

وهذا البيت والاثنان بعده خاصيتها أن من كانت نفسه غالبة عليه ، وامتنعت من التوبة وعجز عن مخالفة النفس ، فليكتب الأبيات الثلاثة يوم الجمعة بعد الفراغ من صلاتها ، ويمحوها بماء الورد ، ويشربها فإذا شربها استمر جالساً مستقبل القبلة ، حتى يصلى العصر والمغرب ، ويذكر اللّهَ تعالى ، ويكرر هذه الأبيات فى بعض الأوقات أيضاً فإنه لا يفارق هذا المجلس إلا وقد تأدبت نفسه وحسن حالها إن شاء اللّه تعالى ، ويوفقه اللّه للتوبة .

(١٥) ( قوله ولا أعدت إلخ ) عطف على قوله ما اتعظت من قبيل عطف الخاص على العام ، لأن الاتعاظ يكون بالاتيان بالأعمال الحسنة والاجتناب عن الأعمال القبيحة ، وأما إعداد القرَى فلا يكون إلا بالأوّل فقط ، والإعداد التهيئة ، يقال أعدَّ واستعد ، بمعنى هيأ ، وقوله « من الفعل الجميل » أى من الأعمال الصالحة ، وهو بيان مقدم لقوله « قِرَى ضيف » مشوب بتبعيض ، وقرى الضيف بكسر القاف إكرامه ، وفيه استعارة مصرحة مرشحة لأنه شبه الشيب بالضيف بجامع الطروّ فى كلٍّ ، فإن سواد الشعر كان ملازماً للإنسان ، فلما تبدل بالشيب كان كالضيف فى طروّه على الشخص بعد أن لم يكن ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، وذكر القرَى ترشيحاً للاستعارة ، ولما كان الشيب نذيراً بانقضاء العمر ، صار بلسان حاله طالباً للأعمال الصالحة ، التى هى زاد الآخرة ، كما يطلب الضيف قراه تصريحاً أو تلويحاً ، وقوله ألمَّ بتشديد الميم ، بمعنى نزل ، وقوله برأسى ، أى فى رأسى ، فالباء بمعنى فى ، وقوله غير محتشم أى غير مستحيى وهو حال من الضمير الفاعل بألم ، وإنما كان غير محتشم لأن من آداب الضيف أن لا يكثر الإقامة عند من أضافه ، فمن أكثرها عنده كان غير محتشم ، والشيب إذا نزل لا يرتحل إلا بالموت ، فهو غير محتشم ، فعلى العاقل أن يستعد بالأعمال الصالحة لضيافته ، فإن أخر الاستعداد إلى نزوله ، فقد لا يتمكن من شىء من الأعمال لسرعة الرحيل ، وضيق الوقت .

لَوْ كُنْتُ أعلَـمُ أنِّى ما أُوَقِّرُهُ     كَتَمْتُ سِراً بَدَا لِىَ مِنْهُ بِالكَتَمِ (١٦)
مَنْ لِى بِرَدِّ جِماحٍ مِنْ غَوايَتِهَا     كما يُـرَدُّ جِماحُ الخَيلِ بِاللُّجُمِ (١٧)

(١٦) ( قوله لو كنت أعلم إلخ ) لما بين أن نصيح الشيب لا ينبغى أن يُهْمَلَ ، واعتذر عن عدم قبوله بالنفس الأمارة ، ورأى من سوء العتاب وتقبيح الفعال من الناس ما لم يكن رآه ، قال لو كنت أعلم إلخ . والعلم والمعرفة بمعنى واحد على الصحيح . وقوله « أنى ما أوقره » أى أنى ما أعظمه بفعل الجميل وترك القبيح استحياء منه . وقوله « كتمتُ سراً » أى أخفيته ، والمراد بالسر الشيب الذى يظهر أولاً ، وإنما سُمِّىَ سراً لأنه قبل ظهوره يكون خفياً ، كحديث النفس الذى لم يظهر ، وقوله « بدا لى » أى ظهر لى ، وقوله « منه » أى من الشيب ، وقوله « بالكتم » متعلق بكتمت ، والكتم ( بفتح التاء ) نبت يخلط بالحناء ، ويخضب به الشعر فيبقى لونه كما فى القاموس ، وقد قيل « شيئان عجيبان هما أبرد من يَخٍ : شيخ يتصابى ، وصبى يتمشيخ » و . يخ : اسم لبئر شديدة البرودة ، كذا نقل عن بعض الأشياخ . وقال بعض أهل العلم هو اسم لدود يكون فى الثلج الذى هو شديد البرودة ، وذلك الدود أشد برودة من الثلج .

وإنما قيد بقوله « لى » لأنه إذا نزل الشيب بالشخص ظهر له أولاً فى الغالب لاهتمامه بشأن نفسه ، ويحتمل أنه من البيان بعد الإجمال على حد ﴿ رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ﴾ (١) .

وفى هذا البيت تنبيه على توقير الشيب وقد سماه الله تعالى وقاراً ، فقد روى أن أوّل من رأى الشيب إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، فقال : ما هذا يارب ؟ فقال الله تعالى : وقار يا إبراهيم ، فقال : يارب زدنى وقاراً ، فأصبح وقد عمه الشيب » وفى الحديث القدسى « الشيب نورى » (٢) .

(١٧) قوله « من لى » إلخ ... لما لم تتعظ النفس بواعظ الشيب ، استفهم على سبيل الاستعطاف عمن يتكفل له بردّ جماحها بالمواعظ السنية والأسرار الربانية . فقال « من لى » إلخ أى من يتكفل لى إلخ ؟ =

(١) سورة طه - صلى الله عليه وسلم - الآيتان : ٢٥ و ٢٦

(٢) فى كشف الخفا ومزيل الإلباس :

« عن أنس ، رفعه : يقول الله عز وجل ﴿ الشيب نورى والنار خلقى ، وأنا استحى أن أعذب نورى بنارى ﴾ .

فلا تَـرُمْ بالمعاصِـــى كَسْرَ شَهْـوَتِهـا إنَّ الطعامَ يُقَـوِّى شَهْوَةَ النَّهِمِ (١٨)
والنفسُ كالطفلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ على حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ (١٩)

---

= وقوله « برد جماح من غوايتها » أى بصرف قوّة وغلبة ناشئة من ضلالتها ، فالجماح بمعنى القوّة والغلبة ، والمراد برده صرفه ، وغوايتها بفتح الغين المعجمة ، بمعنى ضلالتها ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للجماح ، أى جماح ناشىء من غوايتها ، وقوله « كما يرد جماح الخيل باللجم » أى رداً مثل ردّ جماح الخيل باللجم فى القوّة والعنف ، حيث لم ينفع واعظ الشيب ، فالكاف بمعنى مثل ، وما مصدرية ، واللجم جمع لجام ككتب جمع كتاب ، وفى هذا البيت إشارة إلى أن السلوك لا يتم إلا بشيخ عارف : لأن النفس ربما تستحسن أمراً ، فيكون الهلاك فيه ، فالشيخ العارف كالطبيب الماهر .

وفائدة هذا البيت والاثنين بعده أن من أكثر تلاوتها عند شروعه فى إزالة منكر مفتتحاً بتلاوتها عشر مرات ، فإنه يرى الهيبة والقبول بالكمال بإذن الله تعالى .

(١٨) قوله « فلا ترم بالمعاصى إلخ » لما استفهم عمن يرد جماح نفسه رداً عنيفاً استشعر شخصاً قال له : لا حاجة إلى ردّها لأنك إذا أعطيتها ما تتمناه من المعاصى انكسرت شهوتها ، فردّ عليه ذلك بقوله : « فلا تَرُمْ بالمعاصى » إلخ ، أى لا ترجو ولا تتوقع بتمكينها مما تتمناه من المعاصى دفع شهوتها ، لأنها إذا ألفت المعاصى قويت شهوتها ، وقد استدل على ذلك بقوله « إن الطعام يقوّى شهوة النهم » أى إن الطعام يزيد فى شهوة النهم بتشديد النون وكسر الهاء ، الذى هو شديد الشهوة إلى الطعام ، فتمكينه منه يزيد فى شهوته إليه ، وكذلك النفس تمكينها من المعاصى يزيد فى شهوتها إليها ، واعترض بأن النهِم إنما تَقوى شهوته إلى الطعام إذا لم يشبع منه ، وأما إذا شبع منه فقد أخذ حاجته . وأجيب بأن المعدة تنفتح أبداً لما يلقى فيها من الطعام ، إلا لمانع ، وقوتها الجاذبة لا تزال ، وإن امتلأت ، لا سيما معدة النهم .

(١٩) قوله « والنفس كالطفل إلخ » : شبه النفس بالطفل في عدم الملل والسآمة بالاستمرار على المألوفات ، فكما أن الطفل إن تركته على ما ألفه من الرضاع دام على حبه ، وإن منعته عنه امتنع ، كما ذكره بقوله : « إن تهمله » ، إلخ ، كذلك النفس إن تركتها على ما ألفته من المعاصى دامت على حبه ، وإن منعتها عنه امتنعت ، =

فاصْرِفْ هَواها وحاذِرْ أنْ تُوَلِّيَهُ     إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ (٢٠)

= وقوله :« إن تهمله » أى تتركه على ما ألفه من الرضاع ، وقوله : « شب على حب الرضاع » أى كبر حال كونه مشتملا على حب الرضاع ، وقوله : « وإن تفطمه ينفطم » أى وإن تفصله وتمنعه عن الرضاع انفصل وامتنع عنه ، وصار غير طالب له

قال فى المصباح : فطمت المرأة الرضيعَ فطما من باب ضرب : فصلته عن الرضاع ، فهى فاطمة ، والرضيع فطيم ، والجمع فطم بضمتين مثل بريد وبرد أ هـ .

وعلم من ذلك أن « تفطمه » بكسر الطاء .

واعلم أن النفس لطيفة ربانية ، وهى الروح قبل تعلقها بالأجساد ، وقد خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفى عام ، فكانت حينئذ فى جوار الحق وقربه فتستفيض من حضرته بلا واسطة ، فلما أمرها الحق أن تتعلق بالأجساد عرفت الغير فحجبت عن حضرة الحق ، بسبب بعدها عنه تعالى ، فلذلك احتاجت إلى مذكِّر ، قال تعالى : ﴿ وذَكِّر فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (١) فهى قبل تعلقها بالجسد تسمى روحاً ، وبعد تعلقها به تسمى نفساً ، فالاختلاف بينهما اعتبارى . والطفل بكسر الطاء المهملة : الصغير ذكراً كان أو أنثى .

(٢٠) قوله « فاصرف هواها » إلخ أى إذا علمت ذلك فاصرف هواها إلخ ، فالفاء فاء الفصيحة ، وإنما لم يقل فاصرف النفس عن هواها كما هو مقتضى الظاهر ، لأنه نظر لكونها تابعة لهواها لا تخالفه أبدا ، فلا يمكن صرفها عن هواها ، وإنما الممكن صرف هواها ، بمعنى عدم اتباعه ، فهى لا تخلو عن هوى أبداً ، لكن الشخص لا يتبعه ، وقوله « وحاذر أن توليه » أى واحذر أن تعطى هواها الولاية والإمارة عليك لأنه داع إلى الضلالة غير صالح للإمارة ، وإنما عبر المصنف بـ « حاذر » دون احذر ، تنبيها على أن النفس تراقب غفلة الشخص لتقع فى هواها فهى تحاذره كما يحاذرها ، فالمحاذرة من الجانبين ، وقد علل ذلك بقوله « إن الهوى » إلخ ، فهو فى قوّة قوله لأنه جائر ظالم ، وقوله « ما تولى » ضبطه شيخ الإسلام (٢) بضم التاء والواو وكسر اللام مشددة ، على أنه مبنى للمفعول ، والشائع على الألسنة قراءته بفتحات ، على أنه =

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٥

(٢) هو شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصارى رحمه الله تعالى .

وَراعِها وَهِيَ فى الأعْمالِ سائِمَةٌ      وإنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فَلاَ تُسِمِ (٢١)

= مبنى للفاعل ، وكلٌّ صحيح ، فالمعنى على الأوّل : ما ولاه الشخص ، وعلى الثانى : ما صار والياً ، و « ما » شرطية ، وقوله « يُصَم » بضم الياء وسكون الصاد ، من أصميتُ الصيدَ إذا رميتُه فقتلته (١) ، وقوله « أو يَصِم » بفتح الياء وكسر الصاد من وصمه إذا عابه ، فالمعنى إن الهوى إن ولاه الشخص يقتله أو يعيبه ، وفى هذا الكلام استعارة بالكناية وتخييل ، لأنه شبه هوى النفس بإنسان طالب للولاية والإمارة تشبيها مضمراً فى النفس ، وطوى لفظ المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو منعه من الولاية والإمارة ؛ حيث قال « فاصرف هواها وحاذر أن توليه » ورشحها بذكر أنه جائر ظالم ، لأنه إن تولى قتل أو عاب ، حيث قال : « إن الهوى ما تولى يصم أو يصم » فهى مرشحة لأنها قرنت بما يلائم المستعار منه ، ولما كان الهوى سبباً للهلاك أجمع على ذمه العارفون ، ووردت بذمه الآيات والأحاديث ، لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً ، ومدخل الشر مسلوكاً .

وقال ابن عباس « الهوى إله يُعبد من دون الله » وتلا قوله تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ (٢) الآية .

وقال الشعبى : « إنما سُمِّى هوى لأنه يهوي بصاحبه إلى النار ».

وبالجملة فالهوى أصل كل بلية ، والخلاص منه عسر جداً إلا بتوفيق من الله تعالى

(٢١) قوله « وراعها وهى إلخ » : لما كان ظاهر كلامه أن هوى النفس يصرف حتى عن الطاعة ، شرح الحال بقوله « وراعها وهى » إلخ أى لاحظها والحال أنها فى الأعمال الصالحة سائمة كالبهيمة السائمة فى الكلأ ، فالواو للحال ، وأل فى الأعمال للعهد ، والمعهود الأعمال الصالحة أعم من أن تكون واجبة أو مندوبة ، وفى « سائمة » استعارة تصريحية تبعية ، لأنه شبه أخذ النفس فى الأعمال واشتغالها بسوم =

(١) وفى القاموس المحيط : « وأصمى الصيد : رماه فقتله مكانه » أ هـ .

وفى الحديث الشريف الذى رواه الطبرانى ، قال صلى الله عليه وسلم :

« كُلْ ما أصميت ، ودع ما أنميت » ومعنى أنماه : رماه فأصابه ، ثم ذهب عنه فمات بعيداً عنه ، والمعنى : كل ما رأيته بعينك حين رميته فمات ، ودع عنك ما غاب لأنك لا تدرى أصاده سهمك ، أو كلبك ، أو مات بسبب آخر .

(٢) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣

كَـمْ حَسَّنَتْ لَـذَّةً لِلْمَـرْءِ قَاتِـلَةً ۞ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ (٢٢)

= البهيمة في الكلأ ، بجامع عدم معرفة الصلاح في كل » واستعار السوم للأخذ والاشتغال ، واشتق منه سائمه بمعنى آخذة ومشتغلة ، وإنما أمر بملاحظتها وهي مشتغلة بالطاعة ، لأنه قد يكون لها حظ فيها ، كرياء وحب محمدة وشهرة ، ولذلك قال « وإن هي استحلت المرعى فلا تسم » بضم التاء وكسر السين ، أي وإن هي وجدت المرعى حلواً فلا تبقها فيه ، لأنها لا تميل إلى الطاعة لذاتها ، بل لغرض فيها ، فتنقلب الطاعة معصية ، بل قد تكون أعظم مفسدة من المعصية ، كما يشير لذلك قول صاحب الحكم (١) :

« رُبَّ معصية أورثت ذلا وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » .

وفي بعض الآثار « أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود قل للعاصين المخبتين أبشروا ، وقل للعابدين المعجبين اخسؤا » .

ومن المعلوم أن أداة الشرط وهي « إن » هنا من خواص الفعل ، فقوله و « إن هي » أصله وإن استحلت ، حذف الفعل فانفصل الضمير ، وقوله « استحلت » مفسر للفعل المحذوف ، على حد قوله تعالى ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك ﴾ (٢) . وفي قوله « فلا تسم » استعارة بالكناية وتخييل ، لأنه شبه النفس بالبهيمة ، بجامع عدم معرفة الصلاح في كلٍّ ، تشبيها مضمراً في النفس ، وطوى لفظ المشبه به وذكر المرعى ترشيح ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الإسامة .

(٢٢) قوله « كم حسنت إلخ » هذا البيت استشهاد على البيت قبله ، و « كم » خبرية بمعنى كثيراً ومميزها محذوف ، والتقدير كم مرة ، أي كثيراً من المرات ، وقوله « حسَّنت لذة للمرء قاتلة » أي عدَّت لذة قاتلة حسنةً للشخص رجلا كان أو امرأة ، فلذة مفعول لحسنت ، وقاتلة صفة لها ، وهذا الصنيع أولى من جعل لذة تمييزاً =

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه من أعلام متصوفي القرن السابع الهجري توفي عام ٧٠٩ هـ - ١٣٠٩ م .

والمقصود أن المعصية إذا أعقبتها طاعة وندم على ما فعل : ذل وانكسر صاحبها ، فكانت خيراً من طاعة ، يرى الناس أنها طاعة ، وإنما أراد صاحبها تكبراً على عباد الله بإظهار الطاعة ، فكانت المعصية التي تورث الطاعة على هذه الصفة خيراً من هذه الطاعة التي ظاهرها رحمة وباطنها عذاب .

(٢) سورة التوبة الآية : ٦

واخْشَ الدسائِسَ مِنْ جُوعٍ ومِنْ شِبَعٍ فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُخَمِ (٢٣)

= لـ « كم » ، وجعل مفعول حسنت محذوفاً ، وإن جرى عليه بعض الشارحين ، وقد بين وجه كون اللذة قاتلة بقوله « من حيث لم يدر أن السم فى الدسم » أى من جهة ، وتلك الجهة هى كونه لم يعلم أن السم ( بتثليث أوله ) مدسوس فى الدسم الذى هو الدهن ، وخص السم بالذكر لأنه قاتل ، وخص الدسم بالذكر لأنه يعلو الأشياء فيستر ما تحته ، والمراد بالسم هنا حظ النفس ، والمراد بالدسم هنا الطاعة ، ففى كلامه استعارتان مصرحتان ، أما الأولى فلأنه شبه حظ النفس بالسم بجامع الضرر فى كل ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، وأما الثانية فلأنه شبه صورة الطاعة بالدسم ، بجامع أن كلاً ساتر لغيره ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، والحاصل أن النفس لها حظ فى الطاعة كما أن لها حظاً فى المعصية ، بل حظها فى الطاعة أشد ، لأن حظها فى المعصية ظاهر جلى ، وحظها فى الطاعة باطن خفى .

وفائدة هذه الأبيات الثلاثة التى أولها : فاصرف هواها إلخ أن من واظب على قراءتها خلف كل صلاة مكتوبة عشرين مرة ، استقام أمره على الكتاب والسنة ، وجعله الله آمنا من الأهواء والبدع .

(٢٣) قوله « واخش الدسائس إلخ » أى خف المكائد التى تخفيها النفس فى الجوع والشبع ، فالدسائس من الجوع ، كالحدة وسوء الخلق ، والدسائس من الشبع كالكسل عن العبادة ، والكلام فى الجوع والشبع المفرطين ، لأن المذموم منهما ليس إلا المفرط ، وأما المعتدل الذى بين الإفراط والتفريط فممدوح ، كما يشير لذلك قوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ (١) هذا على كون الجوع والشبع على ظاهرهما ، ويحتمل أن المصنف كنّى بالجوع عن قلة العبادة ، وبالشبع عن كثرتها ، لأن قلة العبادة تئول إلى الجوع فى الآخرة ، وكثرة العبادة تئول إلى الشبع فى الآخرة ، فالدسائس من الجوع بمعنى قلة العبادة ، كالميل إلى الراحة ، وترك العبادة بالكلية ، ، والدسائس من الشبع بمعنى كثرة العبادة ، كحب الشهرة ، والمحمدة ، وهو مفسدة عظيمة ، لأنه حينئذ يكون قاصداً بالعبادة غير وجه الله تعالى ، ولما كان قد يقع فى بادى (٢) الرأى أن الجوع لا دسائس فيه ، لأن العرب والحكماء تمدح بقلة الأكل ، =

(١) سورة الأعراف الآية : ٣١

(٢) ظاهر .

واستفرِغْ الدَّمع منْ عَيْنٍ قَدْ امْتلأتْ    منَ المحارمْ والزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ (٢٤)

= وتذم بكثرته ، وحينئذ فلا وجه للتحذير من مكائد الجوع ، دفع المصنف ذلك بقوله : « فرب مخمصة شر من التخم » فكأنه قال : لا تستبعد ذلك ، إذ رُبَّ مجاعة مفرطة شر من كثرة الأكل ، باعتبار الآفات المترتبة عليها ، فالعبادة قد لا تحصل بالكلية مع الجوع المفرط ، وتحصل مع كثرة الأكل ، وإن كان فيها كسل ، ولا شك أن ترك العبادة بالمرة شر من الكسل فيها ، هذا على أن المراد بالجوع والشبع حقيقتهما ، وأما على أن المراد بالجوع قلة العبادة ، وبالشبع كثرتها ، فكأنه قال لا تستبعد ذلك إذ رب عمل قليل شر من عمل كثير ، فإن النفس قد تزين له قليل العبادة ، كأن تقول له : لازم القليل من العبادة وداوم عليه ، لأن الكثير يضر البدن ، فيؤدِّى إلى العجز بالكلية ، وربما يكون فيه الرياء ، وقصدها بذلك الراحة ، وقد تزين له كثير العبادة ، كأن تقول له : عليك بالكثير من العبادة ، ليكثر ثوابك ، وقصدها بذلك أن تمجد عند الناس ، وتعظم عندهم ، وهذه مفسدة عظيمة ، لكن مع الاستكثار من العبادة قد يسلم كثير منها ، بل قد ينصلح باطنه فى آخرة أمره .

وقد كان بعض المشايخ يقول : عليكم بإصلاح ظواهركم ، فإنه يوشك أن تنصلح بواطنكم .

وحكى أن رجلا تعبد سنين ليشتهر بذلك ، وتودَعَ عنده الأمانات فينتفع بها ، فلم يودَع عنده شىء ، فلما طال عليه الأمر وبخ نفسه ، وتاب إلى الله تعالى ، فلما أصبح أُتِىَ بأمانة ، فقال لصاحبها : « ما كان بيننا وبينها إلا ظلام الليل ، اذهب بسلام » .

و « رب » هنا للتقليل ، والمخمصة : المجاعة ، والتخم : بضم التاء وفتح الخاء جمع تخمة ، وهى فساد المعدة بالطعام وقيل فساد الطعام فى المعدة ، وفسرت أيضاً بأنها ضد المخمصة ، وهذا قد يقتضيه كلام المصنف ، وتعقب بأن ضد المخمصة الشبع وإن لم يحصل تخمة .

وهذا البيت ، والذى بعده خاصيتهما أن من قسا قلبه ، واستولت عليه نفسه ، وكررهما ليلة الجمعة عند السحَر ، فإنه لا يصبح إلا وقد رأى رقة فى قلبه ، وكسراً فى نفسه ، ونهوض أعضائه فى العبادة ، وندم على ما فرّط ، وتاب الله تعالى عليه .

(٢٤) قوله « واستفرغ الدمع إلخ » أى أفرغ الدمع بالبكاء أو اطلب فراغه بذلك ، فالسين والتاء إما زائدتان ، وهو الأظهر ، أو للطلب ، وقوله « من عين قد امتلأت من المحارم » من الأولى ابتدائية ، والثانية تبعيضية ، وامتلاء العين من المحارم ، كناية =

وخالِفِ النفْسَ والشَيْطَانَ واعْصِهِما وإنْ هُما مَحَّضاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ (٢٥)

= - عند الفقهاء - عن كثرة النظر بها لما لا يجوز شرعاً ، وعند الصوفية وأهل الحب : رؤية الأغيار بها ، ولذلك يقال للعارف « أدِّبْ عينيك بدمع الندامة إذا نظرت لغير ذلك الجمال ، واقصر نظرك على كمال الكبير المتعال » . ولم يزل السلف الصالح يبكون على ما حصل منهم ، والبكاء على الخيبة معظم العزم حتى قال بعضهم « لو لم يبك الإنسان إلا على ما ضاع من عمره النفيس من غير طاعة لكفاه » .

وقال سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم « طوبى لمن بكى على خطيئته » .

وكان عليه الصلاة والسلام كثير البكاء ، وقيل فى قوله تعالى : ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ (١) إنهما لمن له فى الدنيا عينان تجريان .

وقوله « والزم حمية الندم » أى والزم حماية الندم لك عن المحارم ، ويحتمل والزم الندم الحامى لك عن عقاب المحارم ، والمراد من الندم التوبة المستكملة للشروط الشرعية ، وإنما عبر بالندم لأنه العمدة فى التوبة ، ولذلك ورد :« الندم توبة » (٢) .

(٢٥) قوله « وخالف النفس والشيطان إلخ » أى إذا أمرتك نفسك والشيطان بشىء ، أونهتك نفسك والشيطان عن شىء ، فخالفهما لأنها عدواك ، وقوله « واعصهما » أشار به إلى أنه لا يكفى مجرد مخالفتهما ، لأنه قد يخالفهما إلى ما يرضيان به ، بل لا بد من عصيانهما ، وإن خصت المخالفة بالمكروه ، والعصيان بالمحرم كان من عطف المغاير ، وإن أبقيت المخالفة على عمومها ، وخص العصيان بالمحرم ، كان من عطف الخاص على العام ، للاهتمام بذلك الخاص ، وإنما قدم المصنف النفس على الشيطان لأنها أضرّ منه ، وفتنتها أعظم من فتنته ، إذ هى عدوّ فى صورة صديق ، والإنسان لا يتنبه لمكائد الصديق ، وأيضاً هى عدوٌ من داخل ، بخلاف الشيطان ، فإنه عدو ظاهر ، وقد قيل : الخروج عن النفس هو النعمة العظمى لأنها أعظم حجاب بين الشخص وبين الله تعالى . =

(١) سورة الرحمن ( جل وعلا ) : ٥٠

(٢) قال رسول الله ﷺ : « الندم توبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له »

رواه الطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية

وَلا تُطِعْ مِنْهُما خَصْماً وَلا حَكَماً      فأنتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ والحَكَمِ (٢٦)

= وقد سُئِلَ بعض الأشياخ عن الإسلام فقال : « ذبح النفوس بسيف المخالفة » .

وقال سهل بن عبد الله : « ما عُبِد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوى » .

وبالجملة فمخالفة النفس رأس العبادة ، وأوّل مراتب السعادة ، وانظر فعل الشيطان مع أبيك ، وقد أقسم إنه له لمن الناصحين ، فكيف بك وقد أقسم إنه ليغوينك ! . وقوله « وإن هما محضاك النصح فاتهم » أى وإن هما أخلصا لك النصح فيما أبدياه لك ، كأن يقولا لك تمتع بهذه الشهوة ، لكى تتوجه إلى الطاعة فارغ القلب ، أو يقولا لك أرفق على نفسك فى العبادة لتدوم عليها ، أو أكثر من العبادة لتفوز بالدرجات العلى ، أو نحو ذلك ، فاتهمهما بأن تنسبهما إلى الخيانة ، لأن مرادهما بذلك الخديعة والمكر ، وقد تقدم أن أداة الشرط وهى هنا ، « إن » من خواص الفعل ، فقوله « وإن هما » أصله ، وإن محضا حذف الفعل ، فانفصل الضمير ، والفعل المذكور تفسير للمحذوف ، على حد قوله تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك ﴾ [1] وعبر المصنف بإن التى للشك ، إشارة إلى أن إخلاصهما النصح أمر مشكوك فيه ، بل لا يفرض إلا كما يفرض المحال ، إذ لا يصدر منهما إلا الغش ، ولذا قيل : « إن الشيطان يفتح للإنسان تسعا وتسعين بابا من الخير ، ليوقعه فى باب من الشر » .

وخاصية هذا البيت والذى بعده : أن من واظب عليهما غلب نفسه وشيطانه ، ورزقه الله الحفظ منهما إن شاء الله تعالى .

(٢٦) قوله « ولا تطع منهما إلخ » هذا البيت تأكيد للبيت قبله ، ومعناه أنه إذا تخاصم العقل مع النفس ، وجعلا الشيطان حكما ، أو تخاصم العقل مع الشيطان ، وجعلا النفس حكما ، فلا تطع واحداً من النفس والشيطان ، لا الخصم ولا الحكم ، لأن كلا منهما يدعو إلى الشر ، وأما العقل فيدعو إلى الخير ، فإذا تخاصم العقل مع أحدهما ، كان الحكم مع خصم العقل ، لأنه من ناحيته ، فلا يحكم إلا بما هو على مراده . وقيل : صورة كون أحدهما خصماً والآخر حكما أن أحدهما يزين لك الإقدام على المعصية ، وأنت تمتنع من ذلك ؛ لما تعلم من سوء العاقبة ، فقد صار خصما لك ، ثم بعد الإقدام على المعصية يزين أحدهما لك البقاء عليها ، وأنت تريد الخروج منها ، فيضرب لك أجلا بعد أجل ، كما يفعله الحكام ، فقد صار حكما فى ذلك . =

---

(١) التوبة : ٦

أَستغْفِرُ اللّهَ مِنْ قَوْلٍ بلا عَمَلٍ     لقدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِى عُقُمِ (٢٧)

= وبما تقرر : علم أن الخصم قد يكون النفس ، والحكم الشيطان ، وبالعكس .و « من » فى قوله منهما للتبعيض ، والضمير فيه عائد للنفس والشيطان ، ولا فى قوله « ولا حكماً » زائدة لتأكيد النهى ، وقوله « فأنت تعرف كيد الخصم والحكم » أى لأنك تعرف كيد الخصم والحكم من الناس ، وكيد النفس والشيطان أشد .

(٢٧) قوله « أستغفر الله إلخ » لما كان المصنف معترفا بأنه غير عامل بقوله ، وقد قال تعالى : ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ (١) استغفر من ذلك حيث قال : أستغفر الله إلخ ، والمقصود من قوله أستغفر الله ، الإنشاء ، وهو يطلب مفعولين ، ثانيهما مجرور بمن كما هنا ، ويجوز حذف من نحو استغفر الله ذنبا ، أى من ذنب ، وقوله « من قول بلا عمل » أى من قول مصحوب بعدم العمل ، أو متلبس بعدم العمل ، فالباء للملابسة ، أو المصاحبة ، و « من » للتعديه ، أو للتعليل ، وذلك كأن يأمر ولا يأتمر ، وينهى ولا ينتهى .

وظاهر كلام المصنف : أن الاستغفار من القول المذكور ، ووجهه بعضهم بأن المتبادر من الأمر والنهى أن يكون الشخص مؤتمراً بما أمر به منتهيا عما نهى عنه ، فإن لم يكن كذلك فى الواقع ، كان أمره ونهيه رياء ونفاقا ، فيحتاج للاستغفار منه ، وبعضهم جعل الاستغفار منصبا على القيد فقط ، أعنى عدم العمل ، لأن القول فى ذاته طاعة ، فلا يحتاج للاستغفار منه ، وعدم العمل ترك طاعة ، فيحتاج للاستغفار منه ، وهذا هو الموافق لمذهب أهل السنة ، من أنه لا يتوقف الأمر والنهى على العمل بهما ، لأن عدم الأمر والنهى معصية ، وعدم العمل معصية أخرى ، وتقليل المعاصى مطلوب ما أمكن ، ولذلك قالوا : « يجب على مدير الكاس الإنكار على الجلاّس ، ويجب على الزانى بامرأة أن يأمرها بستر وجهها » ومن هذا يُعلم أن العالم الذى لا يعمل بعلمه خير من الجاهل ، وأما قول صاحب الزبد :

وعالم بعلمه لن يعملنْ     معذَّبٌ مِنْ قَبْلِ عُبّادِ الوثَن

فمحمول على علماء أهل الكتاب ، الذين غيروا وبدلوا ، وكتموا الحق (٢) ، وقيل : إن تعذيبه من قبل عباد الوثن ، ليس لكونه أسوأ حالا منهم ، بل للإسراع بتطهيره .=

(١) سورة الصف الآية : ٢

(٢) ولأن عابد الوثن إنما ضل على مرأىً منه ، ولم يعلمه دين الحق الذى هو مكلف بإظهاره للناس ، والله تعالى أعلم .

أمرتُكَ الخير ، لَكِنْ ماا ئتَمرتُ بِهِ      وما استَقمتُ فَماقَولِي لَكَ استَقِمِ (٢٨)

= وقوله « لقد نسبت به نسلا لذى عقم » مستأنف استئنافا بيانيا ، لأنه واقع في جواب سؤال مقدر ، فكأنه قيل له لم استغفرت من ذلك القول ؟ فقال : لقد نسبت به نسلا لذى عقم ، أي لقد نسبت بهذا القول نسلا ، وهو الذريه لشخص صاحب عقم ، بضم القاف ، كما هو لغة فى العقم بسكونها ، وليس جمع عقيم لأن إضافة « ذى » إليه تمنع من ذلك ، لا يقال إن المصنف لم يقع منه نسبة نسل لذى عقم ، فكيف يقول : لقد نسبت به نسلا إلخ ؟ لأنا نقول : المعنى على التشبيه ، أى كأنى قد نسبت به نسلا إلخ ، ووجه ذلك أن المتبادر من الأمر والنهى أن يكون الآمر والناهى مؤتمراً منتهيا ، فذلك القول يتضمن نسبة العمل إلى القائل ، فإذا كان بلا عمل فقد أشبه نسبة النسل لذى العقم ، وهو الذى لا يولد لمثله ، وذلك كذب يستغفر منه ، فكذا ما أشبهه ، وهذا يؤيد أن الاستغفار من القول المذكور ، وفى ذكر فضل الاستغفار طول يخرجنا عن المقصود .

وما أحسن قول القائل :

ولو أن فرعـــون لما طغى      وقال على الله إفكا وزوراً
أناب إلى الله مستغفرا      لما وجـــد الله إلاَّ غفــوراً

(٢٨) قوله « أمرتك الخير إلخ » هذا البيت بيان للبيت قبله ، و « أمر » يتعدى لمفعولين ثانيهما بنفسه تارة كما هنا ، وبالباء تارة أخرى كما فى قولك « أمرت زيدا بكذا » ومراده بالأمر ما يشمل النهى ، كما فى قولهم أمر السلطان أن لا يؤذى أحد أحداً وأن يجامل في المعاملة ، فاندفع ما يقال لم خص الأمر بالذكر ، مع إنه سبق منه أمر ونهى ؟ والمراد أمرتك بفعل الخير ، ونهيتك عن تركه ، والخير ما له عاقبة محمودة .

وقوله « لكن ما ائتمرت به » أى لكن ما عملت به ، وقوله « وما استقمت » أى بفعل المأمورات وترك المنهيات ، لأن الاستقامة هى الاعتدال ، وعدم الاعوجاج ، وذلك يكون بفعل المأمورات وترك المنهيات .

وقد أمر الله نبيه ﷺ بها في سورة هود وأخواتها . قال تعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ (١) ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « شيبتنى هود وأخواتها » (٢) وقيل :=

(١) سورة سيدنا هود صلى الله عليه وسلم : ١١٢

(٢) رواه ابن مردوية فى تفسيره ، ولفظه : قيل يا رسول الله ، أسرع إليك الشيب ؟ قال : شيبتنى هود والواقعة وأخواتها .
=

ولا تَزَوَّدْتُ قبلَ الموتِ نافلَةً ولم أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ ولَمْ أَصُمِ (٢٩)

= قال ذلك لما فيها من الأخبار عن إهلاك الأمم الماضين ، وقوله « فما قولى لك استقم » أى فما ثمرة قولى لك استقم حيث لم استقم ؟ والاستفهام إنكارى بمعنى النفى ، أى لا ثمرة له ولا فائدة له ، لأنه لا ينفع غالبا إلا إذا استقام القائل ، ولذلك قيل فى هذا المعنى :

يا أيهـــا الرجـــلُ المعلم غيْرَهُ هلاَّ لنفســك كان ذا التعليمُ

تصف الدواءَ لذى السقام وذى الضنى كيْمــا يصِـحَّ به وأنت سقيمُ

ابدأ بنفسك فانهها عـــن غيِّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

فهناك يُسمَعُ ما تقـول ويُشتَفى بالقول منـــك وينفـع التعليمُ

لا تنه عن خلــق وتأتــى مثْلَهُ عــارٌ عليــك إذا فعلتَ عظيمُ

فإن قيل : لَمْ يتقدم منه أمر بالاستقامة حتى يظهر قوله « فما قولى لك استقم » ؟ أجيب بأنه تقدم ضمنا ، لأنه يُعلم من كلامه السابق .

(٢٩) قوله « ولا تزوَّدت قبل الموت إلخ » المراد بالتزوّد هنا العمل ، وإنما عبر بالتزوّد نظراً لكون الموت سفرا طويلا محتويا على الأهوال والمشاق ، والسفر المذكور يناسبه التزوّد ، قال تعالى : ﴿ وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ (١) والذى عليه المحققون من المفسرين : أن المراد بالتزوّد أخذ الزاد الذى هو ما يوصلهم لمقصودهم ، والمراد بالتقوى فى هذه الآية ما يتقى به ذل السؤال . وقوله « نافلة » أى مستقلة ، فاندفع ما يقال : إن الفرائض مشتملة على النوافل ، فلا يتم قوله « ولا تزوّدت قبل الموت نافلة » مع كونه كان يفعل الفرائض ، وقد اشتهر أن النافلة يُجبر بها ما نقص من الفرائض ، لكن نقل القرطبى فى « التذكرة » عن الشافعى رضى الله تعالى عنه أن ذلك فيما نقص من الفرائض سهوا ، وأما ما نقص منها عمداً فلا يجبر بالنافلة ، وإن =

= وفى سنن الترمذى والحلية عن عبد الله بن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله قد شبتَ ؟ قال : شيبتنى هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » وصححه الحاكم ، وقال الترمذى حسن غريب ، وأخرجه ابن أبى شيبة فى مسنده ، ورواه أبو يعلى ، وله ترجمة حافلة فى كشف الخفا ومزيل الإلباس ، فارجع إليه .

(١) سورة البقرة : ١٩٧

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيا الظَّلامَ إلى أنِ اشتكتْ قَدَماهُ الضُرُّ مِنْ وَرَمِ (٣٠)

= كثرت جدا ، وقوله « ولم أصل سوى فرض ولم أصم » إنما خص الصلاة والصوم بالذكر ، لأنهما محض عبادة بدنية ، وإنما سكت عن الإيمان لأنه لا يتنفل به (١) ، وفي كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأول ، أى ولم أصم سوى فرض ، لا يقال : يبعد أنه لم يقع منه صلاة السنن كالوتر وغيره ، وصوم السنن كصوم عاشوراء وغيره ، لأنّا نقول إنما نفى ذلك تنزيلا لما فعله من النوافل منزلة العدم ، لاتهامه نفسه فى الإخلاص فيه ، وما قيل من أنه كان إذا صلى نافلة نذرها أو صام نفلا نذره ، فهو بعيد .

وفائدة هذا البيت واللذين قبله ، أن من دخله العجب أو الرياء فى علم أو عمل ، كتبها عند طلوع الفجر ، وكررها إحدى وسبعين مرة ، ثم علق ذلك المكتتب على عضده الأيسر ، مائلا لجهة جنبه ، فإنه يتواضع حينئذ ، ويصير آمنا من العجب والرياء .

(٣٠) قوله « ظلمت سنة من إلخ » هذا تخلص للشروع فى المقصود ، وهو مدحه صلى الله عليه وسلم ، ولم يشرع فيه إلا بعد الوعظ والاستغفار والندم ، تأهلا لمدح هذا الجناب الشريف ، ولما أخبر عن نفسه بما أخبر من كثرة التفريط ، وأخبر بأنه لم يتزوّد من النافلة ، حكم بأنه ظلم سنة سيد المرسلين ، أى جار فيها ووضعها فى غير موضعها ، لأن الظلم هو الجور ووضع الشىء فى غير محله ، والسنة لغةً الطريقة ، وشرعاً الطريقة المسلوكة فى الدين من غير افتراض ولا وجوب ، و « من » واقعة على نبى ، وهو نبينا ﷺ ، وقوله « أحيا الظلام » أى أنار الليل المظلم بالصلاة فالمراد بالظلام المظلم ، والمراد بإحيائه إنارته بالصلاة إذ العبادة كما تؤثر النور فى وجه العابد ، تؤثره فى زمنها ، ولا يخفى أن فى كلامه استعارة تصريحية تبعية أو استعارة مكنية ، فيكون قد شبه الإنارة بالإحياء بجامع النفع فى كل ، واستعار الإحياء للإنارة ، واشتق من الإحياء بمعنى الإنارة أحيا بمعنى أنار ، أو شبه الظلام بمعنى الليل المظلم بميت يحيا تشبيها مضمراً فى النفس ، وطوى لفظ المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وهو الإحياء . وقوله « إلى أن اشتكت قدماه الضر من ورم » أى واستمر إحياؤه ﷺ للظلام إلى ذلك ، فهو غاية فى الإحياء ، لكن =

(١) ولأن الذى يصلى الفرض ويصوم الفرض إنما هو المؤمن ، لا الكافر ، فلذلك لم يذكر الإيمان لأنه ثابت فى قلبه والحمد لله .

وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وطَوَى تَحْتَ الحِجَارَةِ كَشْحاً مُتْرَفَ الأَدَمِ (٣١)

= لا مفهوم لهذه الغاية ، واشتكاء القدمين كناية عن شدة الألم الحاصل لهما من كثرة القيام ، على وجه المبالغة ، والورم ازدياد الحجم على غير اقتضاء طبيعى ، وسبب ورم القدمين من كثرة القيام : انصباب المواد التى فى أعالى الجسم إليهما لطول القيام ، فإنه ﷺ وإن لم يكن يزيد بالليل على اثنتى عشر ركعة ، لكن كان يطيل القيام فيها ، وقد روى المغيرة أنه قام ﷺ حتى تورمت قدماه ، فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! قال « أفلا أكون عبداً شكوراً » وفى رواية أنه قال له جبريل « أبق على نفسك ، فإن لها عليك حقا » ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ (١) . وفى هذا البيت مزيد التقريع لنفسه ، فكأنه يقول لها : ما بالك فى هذا التقصير وعدم الاقتداء به ﷺ فى كثرة عبادته ، وغلبة طاعته ، ولهذا اختار هذه الصفة من بين الصفات .

وخاصية هذا البيت والأربعة بعده أن من ثقل عليه قيام الليل ، وغلب عليه النوم والكسل ، ولا زالت نفسه تمتد لراحة الدنيا فليكتب هذه الأبيات فى لوح ، ويجعله عند رأسه ، فيتزين له حينئذ العمل الصالح ، وتحدثه نفسه بأمور الآخرة .

(٣١) قوله « وشد من سغب إلخ » عطف على أحيا الظلام إلخ ، فهو عطف على الصلة فيكون صلة ، وإنما أتى بذلك نظراً لقوله فى البيت السابق « ولم أصم » عقب قوله « ولم أصل سوى فرض » وبهذا أظهر حكمة تخصيصهما فيما تقدم ، والشد : العصْب والربط ، والسغب : بسين مهملة وغين معجمة الجوع ، و « من » الداخلة عليه للتعليل ، أى عصب وربط من أجل جوع ، وقوله « أحشاءه » مفعول لشد ، والأحشاء جمع حشى ، وهو كما فى الصحاح ما انضمت عليه الضلوع ، وقيل : القلب ، وقيل : الأمعاء .

وفائدة هذا الشد انضمام الأحشاء على المعدة ، فتخمد الحرارة بعض خمود ، لأن المعدة إذا امتلأت بالطعام اشتغلت الحرارة بهضمه ، وإذا خلت عن الطعام طلبت الحرارة رطوبة الجسم ، فيتألم الإنسان ، فبالشد تضعف تلك الحرارة ، وقد روى الشد مسلم عن أنس قال : « جئت رسول الله ﷺ يوماً فوجدته جالسا مع أصحابه يحدثهم ، وقد عصب بطنه بعصابة ، فقالوا : من الجوع » . =

(١) أول سورة طه ( صلى الله عليه وسلم ) .

وراوَدَتْهُ الجِبالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ عَنْ نَفْسِهِ فَأَراها أَيَّما شَمَمِ (٣٢)

= وقوله « وطوى تحت الحجارة كشحا مترف الأدم » عطف أيضاً على الصلة ، والطى : اللف ، والكشح : الخاصرة ، والمترف الناعم من الترف ، وهو النعومة المفرطة ، والأدم : الجلد ، أى ولف تحت الحجارة خاصرة ناعمة الجلد نعومة مفرطة .

وفائدة هذا الطى : أن برودة الحجارة تخفف حرارة الباطن ، وقد روى البخارى الطى عن جابر قال : مكث ﷺ لم يذق الطعام ثلاثا ، وهم يحفرون الخندق ، فقالوا : يا رسول الله إن ههنا كدية (١) من الجبل ، قد عجزت معاولنا عنها ! فقال رسول الله ﷺ : رشوها بالماء ، فرشوها به ثم جاء رسول الله ﷺ ، فأخذ المعول ، ثم قال بسم الله ، فضرب ثلاثا فصارت كثيباً .

قال جابر : فحانت منى التفاتة ، فإذا رسول الله ﷺ قد شدَّ على بطنه حجراً .

واستشكل ما ذكر من الشد والطى بقوله صلى الله عليه وسلم « أبيتُ عند ربِّى يطعمنى ويسقينى » (٢) لأن من هذا حاله لا يعصب أحشاءه ويطوى كشحه تحت الحجارة من الجوع ، وأجيب بأنّ معنى الحديث « أبيت مستحضراً جلال ربى فيعطينى قوّة الطاعم والشارب » ، والمراد بذلك أنه ضمن له قوّة بدنه ، ونضارة جسمه ، حتى أن مَن رآه لا يظن به جوعا ولا عطشا ، كما أشار إلى ذلك الناظم بقوله « مترف الأدم » فهو من قبيل الاحتراس ، وحينئذ فحصول الجوع له ﷺ لا ينافيه الإطعام فى الحديث .

(٣٢) قوله « وراودته الجبال إلخ » لما كان قد يتوهم من قوله « وشد من سغب إلخ » أنه ﷺ كان فقيراً من المال ، دفع ذلك التوهم بقوله « وراودته الجبال إلخ » والمراودة : المطالبة ، يقال راوده : أى طلب منه أن يكون على مراده ، وإسناد المراودة للجبال مجاز ، لأن الله هو الذى خيره فى ذلك ، ويحتمل أن يكون حقيقة إذ لا مانع من أن يخلق الله فيها إدراكاً ، وتراوده حقيقة ، وأل فى الجبال للعهد الذهنى ، والمعهود ذهنا هو جبال مكة ، كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة ، فقد روى أنه ﷺ =

(١) بضم الكاف وسكون الدال ، وفى القاموس : الكدية : الشىء الصلب بين الحجارة والطين .

(٢) حديث صحيح ومعروف .

وأكَّدَتْ زُهْدَهُ فيها ضَرورَتُهُ     إنَّ الضَرورةَ لا تَعْدو عَلَى العِصَمِ (٣٣)

= قال « عرض علَّى ربى بطحاء مكة ذهبا ، فقلت : لا يا رب ، ولكن أجوع يوما وأشبع يوماً ؛ فإذا شبعت حمدتك ، وإذا جعت تضرعت إليك ودعوتك » (١) .

وروى أن جبريل عليه السلام نزل عليه صلى الله عليه وسلم فقال له : إن الله يقرئك السلام ، ويقول لك : أتحب أن تكون لك هذه الجبال ذهبا وفضة ، تكون معك حيثما كنت ؟ فأطرق ساعة ، ثم قال : يا جبريل إن الدنيا دارُ مَن لا دارَ له ، ومال من لا مال له ، يجمعها من لا عقل له » (٢) ، فقال له جبريل : ثبتك الله بالقول الثابت » . وقوله الشم : أى المرتفعة وهى جمع أشم ، مشتق من الشمم ، وهو الارتفاع ، وقوله « من ذهب » أى أن تكون من ذهب فهو خبر لتكون المحذوفة ، وليس حالا ، خلافا لبعضهم لأنها لم تكن من ذهب حين المراودة وإنما طلبت منه أن تكون كذلك ، وقوله « عن نفسه » أى من أجل نفسه ، فعن للتعليل ، وقوله « فأراها أيما شمم » : أى فأراها شمما أيما شمم ، أى شمما عظيما أى إعراضا شديداً علماً منه بأن ما عند الله خير وأبقى .

(٣٣) قوله « وأكدت زهده فيها إلخ » التأكيد : التقوية ، والزهد : ترك الشيء وقلة الرغبة فيه ، والضمير المجرور بفى راجع للجبال التى تكون من ذهب ، وبعضهم جعله راجعا للدنيا ، والأوّل أولى لعدم تقدم ذكر الدنيا ، وإن كانت معلومة من المقام ، والضرورة : شدة الحاجة ، ولا يخفى أن زهده مفعول مقدم ، وضرورته فاعل مؤخر ، وإنما أكدت ضرورته زهده فيها لأن الإعراض عن الشيء ، وقلة الرغبة فيه ، مع شدة الاحتياج إليه دليل جلى وبرهان قطعى على الزهد فى ذلك الشيء ، وقوله : إن الضرورة إلخ مستأنف استئنافا بيانياً لكونه واقعا فى جواب سؤال مقدر ، فكأنه قيل له : كيف تؤكد ضرورته زهده فيها ، مع أن الضرورة تقتضى الإقبال عليها ، وعدم الإعراض عنها ؟ فقال : إن الضرورة إلخ ، وقوله لا تعدو على العصم : أى لا تتعدى عليها ، يقال عدا عليه أى تعدى عليه ، وفى كلامه حذف مضاف ، أى على ذوى العصم ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، هذا إن قرىء العصم بكسر العين وفتح الصاد كما هو المشهور ، على أنه جمع عصمة ، فإن قرىء العصم بفتح العين وكسر الصاد ، كما استصوبه ابن مرزوق ، على أن أصله عصيم بمعنى معصوم ، حذفت ياؤه =

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى .

(٢) رواه الإمام أحمد ، والبيهقى عن السيدة عائشة والبيهقى عن عبد الله بن مسعود موقوفاً .

وكيفَ تَدْعُو إلى الدنيا ضَرورةُ مَنْ    لَوْلاهُ لَمْ تُخْرَجُ الدُنيا مِنَ العَدَمِ (٣٤)

---

= للضرورة ، فلا حذف فى كلامه ، وعلم من ذلك الفرق بين ضرورة من عصمه اللّه تعالى وضرورة غيره ، لأن ضرورة من عصمه اللّه تعالى لا تدعوه إلى أحسن الأشياء ، فضلا عن أخسها ، وضرورة غيره تدعوه إلى أخس الأشياء ، حتى أنها تبيح له تناول ما لا ينبغى تناوله ، ولو كان محرم الأصل ، كالميتة ، وفى كلام المصنف إشارة إلى جواز وصفه صلى اللّه عليه وسلم بالزهد ، وهو الحق خلافا لمن منعه ، معللا بأن الزهد فى الشىء فرع عن التعلق به .

لكن قد عيب على هذا البيت والذى بعده فى إثبات الضرورة له صلى اللّه عليه وسلم مع أنه لم يثبت له عليه الصلاة والسلام أصل الحاجة ، فضلا عن الضرورة ، وما أحسن قوله فى الهمزية :

مستقل دنياكَ أنْ يُنسبَ    الإمساكُ منها إليه والإعطاء

(٣٤) قوله « وكيف تدعو إلخ » استفهام إنكارى بمعنى النفى ، أى لا تدعو إلخ، والدعاء : الطلب والميل ، وقوله « إلى الدنيا » متعلق بتدعو ، والدنيا صفة فى الأصل ثم نقلت إلى الإسمية ، فجعلت اسماً لهذه الدار التى نحن فيها ، وقد تطلق على أعراضها وزخارفها من المال والجاه وما أشبههما ، وهذا هو المراد هنا ، وقوله « ضرورة من » أى ضرورة نبى أو رسول ، فـ « من » واقعة على نبى أو رسول ، وقد تقدم الكلام على الضرورة ، وقوله « لولاه لم تخرج الدنيا من العدم » ببناء الفعل ، وهو تخرج للمفعول أو للفاعل ، وإن اقتصر بعضهم على الأول ، أى لولا وجوده ﷺ لاستمرت الدنيا على عدمها ، ولم توجد ، فوجوده ﷺ علة فى وجودها ، فلو كانت ضرورته تدعو إلى الدنيا لكان وجوده معلولا لوجودها ، وهو خلف ، والأصل فى ذلك ما رواه الحاكم ، والبيهقى ، من قول اللّه تعالى لآدم لما سأله بحق محمد أن يغفر له ما اقترفه من صورة الخطيئة ، وكان رأى على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه : « سألتنى بحقه أن أغفر لك ، وقد غفرت لك ، ولولاه ما خلقتك » فوجود آدم عليه السلام متوقف على وجوده ﷺ ، وآدم أبو البشر ، وقد خلق اللّه لهم ما فى الأرض وسخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وغير ذلك ، كما هو نص القرآن ، قال تعالى : ﴿ خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾ (١) ، ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ (٢) . وإذا كانت هذه الأمور إنما =

---

(١) سورة البقرة : ٢٩    (٢) سورة سيدنا إبراهيم عليه السلام الآية : ٣٣

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الكونَيْنِ والثَّقَلَـــيْنِ والفريقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ ومِنْ عَجَمِ (٣٥)
نَبِيُّنا الآمِــرُ الناهِي فلا أحَدٌ أبَرَّ فــي قَــوْلِ لا مِنْــــهُ ولا نَعَمِ (٣٦)

---

= خلقت لأجل البشر ، وأبو البشر إنما خلق لاجله ﷺ . كانت الدنيا إنما خلقت لأجله فيكون ﷺ هو السبب فى وجود كل شىء .

(٣٥) قوله « محمد إلخ » أى الممدوح محمد إلخ ، فهو خبر مبتدأ محذوف على قراءته بالرفع ، ويصح فيه النصب على أنه مفعول لفعل محذوف ، أى أمدح محمداً . ويجوز الجر على إنه بدل من الموصول ، الذى فى قوله « وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من » إلخ ، وقوله « سيد الكونين » أى أشرف أهل الكونين ، فهو على تقدير مضاف ، والمراد بالكونين الدنيا والآخرة ، وقوله « والثقلين » أى الإنس والجن » وإنما سميا ثقلين لإثقالهم الأرض ، أو لثقلهما بالذنوب ، والعطف فى ذلك من عطف الخاص على العام ، وكذلك العطف فى قوله والفريقين ، ونكتته التصريح به فى مقام المدح . ونصف البيت الياء من الثقلين ، فزيادة بعض الناس لفظ « خير » قبل الفريقين خطأ . وقوله « من عرب ومن عجم » بيان للفريقين . والعرب بضم العين وسكون الراء لغة فى العرب بفتحهما ، والمراد بالعجم جميع غير العرب .

(٣٦) قوله « نبينا إلخ » يجرى فى قوله نبينا أوجه الإعراب الثلاثة كما تقدم فى محمد ، والإضافة فى نبينا لتشريف المضاف إليه ، وقوله « الآمر الناهى » أى عن الله تعالى ، وهذا يستلزم كونه رسولا ، فهو فى قوّة أن يقول « الرسول » (١) ، وقوله « فلا أحد أبر فى قول لا منه ولا نعم » أى إذا أمر ونهى ، فلا أحد أصدق منه فى الأمر والنهى ، وقد عبر عن النهى بقول « لا » وعن الأمر بقول نعم ، ويحتمل أنه كنى بلا عن الخبر المنفى ، وبنعم عن الخبر المثبت ، إما مطلقا أو عن الثواب والعقاب . =

---

(١) لأن أىّ نَبى يأمر وينهى بشرع الرسول الذي هو من أمته ، ومن هنا كانت وظيفة العلماء فى أمة سيدنا محمد ﷺ كوظيفة الأنبياء ولذلك جاء فى الحديث الصحيح « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » أى فى تبليغ رسالة الرسول ﷺ وليس فى قيمة النبوة وقدرها كما يتوهم كثير من الناس . فلما قال « الآمر الناهى » عرفنا أنه يقصد بالنبوة الرسالة لأن الأمر والنهى إنما هو للرسول ( أىّ رسولٍ كان ) صلى الله عليه وعليهم جميعاً .

= وبالجملة فهو ﷺ أصدق الناس فى الخبر ، و « لا » فى قوله ولا نعم زائدة لتأكيد النفى ، وما ورد من أنه لم يقل « لا » قط محمول على أنه لم يقل لا فى شىء سئل عنه من حوائج الدنيا ، بل إن كان عنده شىء أعطاه للسائل ، وإن لم يكن عنده شىء سكت ، أو وعده ، وبالغ بعضهم حتى قال :

ما قال لا قط إلاّ فى تَشَهده لولا التشهدُ كانت لاؤه نعما

وهذا باعتبار الغالب ، وإلا ففى صحيح البخارى أن الأشعريين جاؤا إليه ﷺ وطلبوا منه أن يحملهم فقال : والله لا أحملكم إلى آخر الحديث [1] . وهذا البيت والذى بعده خاصيتهما التخلص من الوقوع فى الشدائد ، فمن واظب على قراءتهما خلص من الوقوع فى الشدائد ، ومن وقع فى شدة قبل قراءتهما وكرر قراءتهما فى جوف الليل ، وتوسل بالنبى ﷺ رفعت عنه تلك الشدة [2] .

(١) وقد شرح الشيخ الباجورى نفسه رحمه الله تعالى هذا الكلام فى تعليقه على كتاب «الشمايل » للترمذى ص ١٩٧ طبعة سنة ١٣.٥ هـ حيث قال : « والمعنى المراد أنه لم يقل « لا » منعًا للإعطاء ، فلا ينافى أنه قال اعتذاراً إن لاق الاعتذار كما فى قوله لا أجد ما أحملكم عليه ، أو تأديبا للسائل إن لم يلق به الاعتذار كما فى قوله للأشعريين « والله لا أحملكم » فهو تأديب لهم لسؤالهم ما ليس عنده مع تحققهم ذلك ، ومن ثم حلف حسماً لطمعهم فى تكليفه التحصيل مع عدم الاضطرار إليه » .

(٢) قال ابن حجر فى مقدمة فتح البارى جـ ١ ص ٤٩ : ما نصه :

« ... وأنبأنى غير واحد عن القاضى نور الدين بن الصائغ الدمشقى قال : حدثنى سيف الدين { فليح المنصورى } قال : أرسلنى الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب بهدية ، فأرسلنى ملك المغرب إلى ملك الفرنج فى شفاعة فقبلها ، وعرض علىّ الإقامة عنده فامتنعت ، فقال لى لأتحفنك بتحفة سنية . فأخرج لى صندوقاً مصفحاً بالذهب ، فأخرج منه مقلمة ذهب ، فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه ، وقد التصقت عليه خرقة حرير ، فقال هذا كتاب نبيكم إلى جدى قيصر ، ما زلنا نتوارثه إلى الآن ، وأوصانا آباؤنا أنها ما دام هذا الكتاب عندنا : لا يزال الملك فينا ، فنحن نحفظه غاية الحفظ ، ونعظمه ، ونكتمه على النصارى ليدوم الملك فينا » إ هـ .

ويؤيد هذا ما وقع فى حديث سعيد بن أبى رشاد : أن النبى ﷺ عرض على التنوخى – رسول هرقل – الإسلام ، فامتنع ، فقال : يا أخا تنوخ ، إنى كتبت إلى ملككم بصحيفة ، فأمسكها ، فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام فى العيش خير » .

هُوَ الحبيبُ الذى تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأهْوَالِ مُقْتَحَمِ (٣٧)

(٣٧) قوله « هو الحبيب » إلخ الضمير راجع لمحمد ، أو لنبينا ، والحبيب إما بمعنى محب فيكون اسم فاعل ، أو بمعنى محبوب ، فيكون اسم مفعول ، وعلى كل فالمراد هو الحبيب لله أو لأمته لأنه أعظم محب لله ، وأفضل محبوب له ، وهو أيضاً محب لأمته ، ومحبوب لها ، إذ من شرط كمال الإيمان أن يكون أحب من المال والولد والنفس ، فقد قال عمر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ لأنت أحب إلىّ من مالى وولدى والناس أجمعين ، دون نفسى » [١] فقال له عليه الصلاة والسلام « لا يكمل إيمانك حتى أكون أحب إليك من نفسك التى بين جنبيك » فقال عمر رضى الله عنه « أنت أحب إلىّ من نفسى » فقال له عليه الصلاة والسلام : قد كمل إذن إيمانك » وهذا ترقٍّ لسيدنا عمر فى الحال ببركته ﷺ ، أو أن ذلك كان كامنا فى نفسه ، غير أنه لحدته لم يتنبه لذلك إلا بعد أن نبهه ﷺ ، وهذا هو اللائق بالأدب ، لكنه بعيد جدا ، وقوله « الذى ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم » أى الذى تتوقع شفاعته ، وهى طلب الخير للغير عند كل هول ، فاللام بمعنى عند ، والهول هو الأمر المخوف حال كون ذلك الهول بعض الأهوال المفزعة ، موصوف ذلك الهول بأنه مقتحم فيه ، أى واقع فيه الناس ، فهو من باب الحذف والايصال ، فحذف الجار ، واتصل الضمير ، والاقتحام هو الوقوع فى الشىء كرها ، يقال اقتحم زيد الأمر ، إذا وقع فيه كرها ، وإنما عبر بالرجاء مع أن شفاعته ﷺ مقطوع بها ، إشارة إلى أنه لا ينبغى للشخص أن ينهمك فى المعاصى ، ويتكل على الشفاعة ، وله ﷺ شفاعات ، منها شفاعته فى فصل القضاء حين يتمنى الناس الانصراف من المحشر ولو للنار ، لشدة الهول ، وهذه هى الشفاعة العظمى ، وتسمى المقام المحمود ، لأنه يحمده عليها الأولون والآخرون ، وهى مختصة به ﷺ ، ومنها شفاعته ﷺ فى دخول جماعة الجنة بغير حساب ، بل يقومون من قبورهم لقصورهم ، وهذه مختصة به ﷺ أيضاً ، ومنها شفاعته ﷺ فى جماعة استحقوا النار ، لا يدخلوها ، بل يدخلون الجنة ، وكذلك هذه مختصة به ﷺ ، =

(١) أعتقد - والله أعلم - أن سيدنا عمر قال هذا من باب الاستعلام الخفى عن مثل هذه الحالة كيف يكون صاحبها وما حاله ؟ وهل يكون فيه نقص أو لا ؟ فلما قال له سيدنا رسول الله ﷺ ما قال ، فزع سيدنا عمر رضى الله عنه وأرضاه إلى ما يرضى الله ورسوله . والحقيقة الكامنة فى نفسه رضى الله عنه وأرضاه أن الله تعالى ورسوله أحب إليه . والله تعالى أعلم .

دَعا إلى اللهِ فالمستَمْسِكونَ بِهِ    مُسْتَمْسِكونَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ (٣٨)

= ومنها شفاعته ﷺ فى جماعة دخلوا النار أن يخرجوا منها ، وهذه غير مختصة به ﷺ ، بل تكون لغيره أيضاً من العلماء والأولياء ، ومنها شفاعته ﷺ فى رفع درجات إناس فى الجنة ، وهذه لم يثبت اختصاصها به ﷺ ، لكن جوَّزه النووى ، ومنها شفاعته ﷺ فى تخفيف العذاب عن بعض الكفار ، كعمه أبى طالب على القول بأن الله لم يحيه فآمن به ﷺ (١) ، وهو المشهور ، والذى يحب أهل البيت يقول بأن الله أحياه وآمن به ﷺ ، والله قادر على كل شيء ، ولا ينافى شفاعته ﷺ فى تخفيف العذاب عن بعض الكافرين قوله تعالى : ﴿ لا يخفف عنهم ﴾ (*) لأن المنفى إنما هو تخفيف عذاب الكفر فلا ينافى أنه يخفف عنهم عذاب غير الكفر ، على أحد الأجوبة فى ذلك .

(٣٨) قوله « دعا إلى الله إلخ » أى دعا إلى دين الله ، كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك ﴾ (٢) وهو الإسلام ، ففى كلام المصنف حذف مضاف ، والمفعول محذوف أى عباده ، وهو شامل للملائكة ، فقد دعاهم ﷺ تشريفاً لهم ، وتعريفا لما لم يكونوا يعرفونه ، لأنهم إذا عرفوا من آدم عليه السلام ما لم يكونوا يعرفونه ، فليعرفوا منه ﷺ ما لم يكونوا يعرفونه بالطريق الأولى ، وقوله « فالمستمسكون به مستمسكون بحبل غير منفصم » أى كما قال تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ (٣) والمراد من الحبل السبب ، كما هو أحد إطلاقيه ، والفصم بالفاء القطع من غير إبانة ، بخلاف القصم بالقاف فإنه القطع مع الإبانة ، ونفى الأضعف يستلزم نفى الأقوى ، فكونه غير منفصم يستلزم كونه غير منقصم ، وإنما لم يقل فالمجيبون له إلخ وإن كان هو المناسب للدعاء ، تنبيها على أن مجرد الإجابة بالقول ونحوه لا يكفى فى النجاة من المهالك ، بل لا بد من الاستمساك به ﷺ ، كما يفعل من يصعد من مهوى فى تعلقه بالحبل ، والتزامه به ، وإن قصر فى الاستمساك ، ولو لحظة ، هوى .

---

(١) وللشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى بحث طيب فى إسلام أبى طالب فى كتابه « خاتم النبيين » صلى الله عليه وسلم .

(*) الآية ١٦٢ سورة البقرة

(٢) سورة النحل ، الآية : ١٢٥

(٣) الآية ٢٥٦ سورة البقرة

فاقَ النَبيِّينَ فِي خَلْقٍ وفى خُلُقٍ ولَمْ يُدانُوهُ فى عِلْمٍ ولا كَرَمِ (٣٩)

= وفائدة هذا البيت حفظ الإيمان والأمان من سلبه ، بأن يقال بعد كل صلاة عشر مرات مفتتحة بالصلاة والسلام على النبى بصيغة مخصوصة ، وهى « اللهم صل وسلم على نبيك البشير الداعى إليك بإذنك السراج المنير » .

(٣٩) قوله « فاق النبيين إلخ » أى زاد ﷺ على النبيين ، وكذا على غيرهم بالطريق الأولى ، « فى خلق » بفتح الخاء وسكون اللام ، وهوالصورة والشكل ، وفى خلق بضمهما وهو ما طبع عليه الإنسان من الخصال الحميدة ، كالعلم ، والحياء ، والجود ، والشفقة ، والحلم والعدل ، والعفة ، وأمثال ذلك ، فقد اجتمع فيه ﷺ ما تفرق فى غيره ، من تلك الخصال ، وقد ذكر بعضهم أن من تمام الإيمان أن يعتقد الإنسان أنه لم يجتمع فى أحد من المحاسن الظاهرة والباطنة مثل ما اجتمع فيه ﷺ (١) .

واعترض على الناظم بأن مقتضى كلامه أنه ﷺ فاق النبيين فى بعض الخلق بفتح الخاء وسكون اللام ، وبعض الخلق بضمهما ، لأن كلا منهما نكرة ، وهى فى سياق الإثبات لا تعم ، وهذا ليس بمدح تام ، لأنه يحتمل بعد ذلك أن يساويهم فى البعض الآخر ، ويحتمل أن يفوقوه فيه .

وعلى هذا فإن كان ما فاقوه فيه مثل ما فاقهم فيه ، حصلت المعادلة ، وإن كان أكثر انعكس ما قصده المصنف من المدح . =

---

(١) وذلك لقوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » رواه ابن سعد ، والبخارى فى الأدب ، والحاكم ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والإمام أحمد ، والخرائطى فى أول المكارم ، وروى الإمام مالك فى الموطأ قوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

قال العلماء رضى الله عنهم : ومعناه أن جميع الأنبياء جاءوا بمكارم الأخلاق وبقيت بقية ، فأوتى رسول الله ﷺ أخلاق الأنبياء والبقية الباقية ، فكان عليه الصلاة والسلام متمما ومكملاً للبناء عليه الصلاة والسلام .

وكُلُّهُمْ مِنْ رَسولِ اللّهِ مُلْتَمِسٌ    غَرْفاً مِنَ البَحرِ أو رَشْفاً مِنَ الدِيَمِ (٤٠)

= وأجيب بأن المراد « في خلقهم وفي خلقهم » ، فهما مضافان في المعنى ، فيعمان ، على أن النكرة في سياق الإثبات قد تعم ، ولما لم يلزم من كونه فاقهم في ذلك ، نفيُ مقاربتهم له ، نفاها بقوله « ولم يدانوه » أي لم يقاربوه ، وقوله « في علم ولا كرم » أي ولا غيرهما ، وإنما اقتصر المصنف عليهما ، لأن العلم رأس الفضائل (١) ، والكرم رأس الفواضل (٢) ، ولا يرد على ذلك ما ورد من النهي عن التفضيل بين الأنبياء ، كقوله ﷺ « لا تفضلوا بين الأنبياء » (٣) لأنه محمول على تفضيل يؤدّي إلى تنقيص ، وليس في ذلك تنقيص لأحد من النبيين ، لأنا نعتقد أنهم متصفون بالكمال ، والنبي أكمل ، قال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ (٤) قال ابن عباس : المراد بالبعض الأول : محمد ﷺ .

(٤٠) قوله « وكلهم من رسول إلخ » هذا البيت كالدليل للبيت قبله ، والجار والمجرور متعلق بقوله ملتمس ، والإضافة في رسول الله للعهد ، والمعهود هو سيدنا محمد ﷺ ، والمراد من قوله ملتمسٌ : آخذ ، وإن كان الالتماس معناه في الأصل الطلب ، وقوله « غرفا من البحر أو رشفا من الديم » أي حال كون بعض الملتمسين مغترفا من البحر ، وبعضهم مرتشفا من الديم ، فهو إشارة إلى اختلاف أحوال الملتمسين ، فأولوا العزم مثلا أكثر التماسا من غيرهم ، فـ « أو » في ذلك للتنويع والتقسيم ، والغرف مصدر غرف بمعنى أخذ ، والبحر ضدّ البر ، سمي بذلك لعمقه واتساعه ، والرشف : المص ، والديم : جمع ديمة وهي المطر الدائم يوما وليلة من غير رعد (٥) ، =

---

(١) الفضائل جمع فضيلة .    (٢) الفواضل : جمع فاضلة ، وهي الأمر الزائد .

(٣) متفق عليه من البخاري ومسلم ، ولهذا الحديث سبب ، وهو أن أحد اليهود زمن النبي ﷺ قال : والذي اصطفى موسى على العالمين ، يقصد تنقيص النبي ﷺ ، فقام رجل من الصحابة فصك اليهودي ، وقال : والذي اصطفى محمداً على العالمين ، فنبه رسول الله ﷺ أصحابه إلى أن الذي يقصده اليهود إنما هو سب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فلذلك نهاهم عن أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود . والله تعالى أعلم .    (٤) سورة البقرة : ٢٥٣

(٥) جمع ديمة ، قال في القاموس : والديمة - بالكسر - مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق .

وواقفـــــونَ لَدَيْهِ عِنْـدَ حَـدِّهِـمُ مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أوْمن شَكْلَةِ الحِكَمِ (٤١)

= والمراد من البحر والديم هنا علمه وحلمه ﷺ ، فكل منهما استعارة تصريحية ، وكل من الغرف والرشف ترشيح ، وإنما عبر في جانب البحر بالغرف ، وفي جانب الديم بالرشف ، لأن الغرف مناسب للبحر ، لكثرته دون الديم ، لأنها تجري على وجه الأرض فلا يجتمع منها ماء غالبا حتى يغترف .

(٤١) قوله « وواقفون إلخ » عطف على قوله « ملتمس » ، لكن نظر في أحدهما للفظ « كل » (١) وفي الآخر لمعناه ، ومعنى كونهم واقفين لديه عند حدهم ، أنهم ثابتون عنده ﷺ في العلم والحكم عند الحدّ الذي حدّ لهم من ذلك فلا يتجاوزونه ، وأما هو ﷺ فلم يزل يترقى بعد ذلك ، فنهاية مراتبهم في العلم والحكم مبدأ ما أوتيه ﷺ منهما ، فوقوفهم لديه ﷺ وقوف ذي الغاية عند مبدأ غيره ، وقوله « من نقطة العلم أو من شكلة الحكم » بيان لحدهم ، والمعنى على التشبيه والإضافة في الموضعين على معنى « من » ، أي الذي هو كنقطة من العلم ، أو كشكلة من الحكم ، والمراد من العلم والحكم علم الرسول وحكمه كما قاله بعض الشارحين ، وقيل « المراد بهما علم الله وحكمه » .

وحاصل المعنى على الأول أنهم ثابتون لديه ﷺ في العلم والحكم عند حدهم الذي هو كالنقطة من علم الرسول أو كالشكلة من حكمه ﷺ .

وحاصل المعنى على الثاني : أنهم ثابتون لديه في العلم والحكم عند حدهم الذي هو كالنقطة من علم الله ، أو كالشكلة من حكمه تعالى ، فعلمهم بالنسبة لعلمه ﷺ كنقطة من علم الله ، وحكمهم بالنسبة لحكمه ﷺ كشكلة من حكمه تعالى ، وهذا أبلغ في مدحه ﷺ من الأول ، لكن الأقرب الأول ، وعلى كل فـ « أو » ، للتنويع والتقسيم ، وإنما خص النقطة بالعلم والشكلة بالحكم لأن النقطة تميز الحروف المشتبهة الصور ، والعلم خاصته التمييز ، لأنه صفة تقتضي تمييزاً لا يحتمل النقيض بوجه ، والشكلة بها يضاف الحكم لصاحبه مع زوال اللبس والاختلال ، والحكمة فائدتها وضع الشيء في المكان الذي يستحقه على أكمل وجه ، لئلا يختل النظام .

---

(١) من قوله « كلهم من رسول الله ملتمس » .

فَهْــوَ الذِى تَــمَّ معنـــاهُ وصورَتُهُ ثُمَّ اصْطفاهُ حبيباً بارِىءُ النَّسَمِ (٤٢)
مُنَــزَّهٌ عَـــنْ شريكٍ فى مَحاسنِهِ فَجَوْهَرُ الحسْنِ فيه غَيرُ مُنْقَسِمِ (٤٣)

---

(٤٢) قوله « فهو الذى تم إلخ » مفرع على قوله « فاق النبيين » إلخ لكن على اللف والنشر المشوّش ، لأن معناه يرجع للخلق بضمتين ، وصورته ترجع للخلق بفتح الخاء وسكون اللام ، فإن المراد من معناه كمالاته الباطنية ، كما هو المراد من الخلق بضمتين ، والمراد بصورته صفاته الظاهرية كما هو المراد بالخلق بفتح الخاء وسكون اللام ، وقوله « ثم اصطفاه حبيباً بارىء النسم » أى ثم اختاره حبيبا خالق الخلق ، والنسم بفتح النون المشددة : جمع نسمة بفتحات ، وهى الإنسان ، وإنما خص الوصف المذكور من بين أوصافه تعالى تنبيها على أنه تعالى خلقه على تلك الصورة ، ووفقه لتلك الأخلاق الحميدة ، ومن ذلك يعلم أن « ثم » ليست للترتيب فى الصفات كما قاله بعضهم ، بل للترتيب فى الذكر والإخبار ، ويمكن حمل كلام بعضهم على ذلك بأن يُجعل على تقدير مضاف ، والأصل للترتيب فى ذكر الصفات .

(٤٣) قوله « منزه إلخ » أى وهو منزه إلخ ، وقوله عن شريك أى عن كل شريك ، لأنه نكرة فى سياق النفى معنًى ، فإن المعنى : لا يوجد له شريك ، والنكرة فى سياق النفى ، ولو معنًى ، تعم ، وقوله « فى محاسنه » أى صورة ومعنى ، وقد تنازعه كل من منزه وشريك ، والمحاسن جمع محسن على القياس ، وقيل جمع حسن على غير قياس .

واعترض على المصنف بأن النبيين مشاركون له ﷺ فى المحاسن ، كالنبوة والرسالة ، فكيف يقول « منزه عن شريك فى محاسنه » وأجيب بأن ما عندهم من المحاسن مثل النقطة أو الشكلة ، كما يدل عليه ما ذكره سابقا فى العلم والحكم ، وحينئذ فلا مشاركة ، وقوله « فجوهر الحسن » إلخ مفرع على قوله « منزه عن شريك » إلخ والمراد من جوهر الحسن ذاته وحقيقته ، وقوله « فيه » أى الكائن فيه ، وقوله غير منقسم : أى بينه وبين غيره لاختصاصه به ، بخلاف يوسف فإنه أعطى شطر الحسن ، وإنما لم يفتتن به ﷺ كما افتتن بيوسف عليه السلام ، لأن جماله ﷺ سُتر بجلاله (١) فلم يمكن أحداً أن يتأمّل فيه حتى يفتتن به (٢) .

---

(١) فما رآه أحد ﷺ إلاّ هابه ، وقد ورد أن أعرابيًا جاءه ، فلما رآه أرعد وارتعدت فرائصه ، فقام إليه ﷺ وسكّن من روعه ، وقال له « هوّن عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » . { رواه ابن ماجه والحاكم عن أبى مسعود البدرى ، ورواه الحاكم عن جرير } .

(٢) وقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها فيه ﷺ :

=

دَعْ ما ادَّعَتْه النصارَى فى نَبِيِّهِمُ　　　واحْكُمْ بما شئتَ مَدحاً فيهِ واحْتَكِمِ (٤٤)

(٤٤) قوله « دع ما ادعته النصارى إلخ » هذا البيت احتراس عما يوهمه قوله : « منزه عن شريك فى محاسنه » من شموله لصفات الإله ، فدفع ذلك بهذا البيت ، وفيه إشارة إلى قوله ﷺ « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ، ولكن قولوا عبد الله ورسوله » (١) والمراد بما ادعته النصارى فى نبيهم قولهم بأنه إله ، لأنهم يقولون بأن الله إله ، وعيسى إله ، ومريم إله ، وبعض فرقهم يقول بأنه ابن الله ، كما قال تعالى ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ (*) والنصارى هم قوم عيسى وسموا بذلك لأنهم نصروه (٢) . والإضافة فى نبيهم للرد عليهم فى دعواهم الألوهية له ، مع أنهم يسلمون أنه نبيهم ، والنبى ليس إلها ، فلا تنافى الإضافة أن سيدنا محمداً نبيهم أيضاً خلافا لما قد يتوهم من ظاهر الإضافة من أنه ﷺ ليس نبيا لهم ، وقوله « واحكم بما شئت مدحا فيه » أى احكم بما شئت مما يدل على شرفه وعلو شأنه وعظم جاهه من جهة المدح فيه ﷺ ذاتا وصفات ، أخذاً من قوله « وانسب » إلخ . وقوله « واحتكم » =

---

= فلو سمعوا فى مصر أوصاف خدِّه　　　لما بذلوا فــى سوم يوسف من نقد

وصحب زليخا لو رأيــن جبينـــه　　　لآثرن بالقطع القلوب على الأيدى

وقال سيدنا حسان رضى الله عنه أيضا :

له راحــة لو آن معشار جــودهــا　　　على البرّ كان البر أندى من البحر

له هم لا منتهــى لكبــارهــــا　　　وهمته الصغــرى أجــل مــن الدهر

(١) وفى لفظ رواه البخارى « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » .　　　(*) الآية ٣٠ سورة التوبة .

(٢) إننا نخالف الشيخ رحمه الله تعالى فى هذا كل المخالفة ، لأن قوم عيسى الذين أرسل إليهم : هم بنو إسرائيل ، لقوله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ﴾ ( الصف : ٦) ، وأما النسبة ، فلو كانوا ناصروا المسيح عليه الصلاة والسلام لسمو « أنصاراً » لا نصارى .

وقد افترقت بنو إسرائيل على ثلاث فرق : فرقة ثبتت على الإسلام الذى جاء به رسلهم ، وفرقت تهودّت – اتخذت اليهودية دينا – وفرقت تنصرت : اتخذت النصرانية دينا .

واليهودية نسبة إلى يهوذا بن يعقوب ، حرفت منها الذال دالا .

والنصرانية : نسبة إلى نصراتة : بلدة بالشام نشأت بها عقيدة النُّصارى ، ولذلك تكون النسبة صحيحة : نصرانى .

ولو كانوا نصروه لاقتضى هذا أن يكون عيسى أيضاً نصرانياً ، وعيسى ﷺ وأنصاره مسلمون والحمد لله بنص القرآن : ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ ( آل عمران : ٥٢) والله أعلم .

وانسُبْ إلى ذاتِه ما شئْتَ مِنْ شَرَفٍ    وانْسُبْ إلى قَدْرِه ما شئْتَ مِنْ عِظَمِ (٤٥)
فَـإنَّ فَضْـلَ رَسولِ اللّهِ لَيْسَ لَهُ    حَـدٌّ فَيُعْـرِبَ عَنْـهُ ناطقٌ بِفَمِ (٤٦)

---

= أى راع الحكمة فى مدحك له ﷺ بأن تأتى بالمدح اللائق بجنابه الشريف وقدره المنيف ، دون غير اللائق بذلك الجناب ، فليس قوله « واحتكم » حشوا كما قيل ، لأنه أفاد أنه وإن جاز لك مدحه ﷺ بما شئت ، غير ما ادعته النصارى فى نبيهم ، يتعين عليك مراعاة الحكمة فى مدحه ﷺ . ومن هذا يُعلم أن ما يقع من التغزل بأبيات مشتملة على صفات الأحداث لا يجوز حمله على النبى ﷺ ، لأن ذلك إساءة أدب ، لكونه لا يليق بالجناب الشريف ، ولذلك لم يقع مثل هذا من أحد من مُداحه ﷺ كحسان والمصنف ، وابن رواحة .

(٤٥) قوله « وانسب إلى ذاته إلخ » هذا البيت تفصيل لما أجمله فى قوله «واحكم بما شئت مدحاً » إلخ ، ويؤيد ذلك ما فى بعض النسخ من التعبير بالفاء بدل الواو ، وبعض الشارحين حمل قوله « واحكم بما شئت إلخ » على أن المراد أنك تحكم بصحة ما شئت مما سمعته من جهة المدح الكائن من غيرك ، وحمل قوله « وانسب إلى ذاته » إلخ على أن المراد أنك تباشر المدح وتنشئه ، والأول أقرب كما لا يخفى . وقوله « ما شئت من شرف » أى الذى شئته من صفات الشرف ، كتناسب الأعضاء ، والبياض المشرب بحمرة ، ونظافة الجسم ، وطيب العرق ، وفصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، ووفور العقل ، وذكاء اللب ، وغير ذلك . وقوله « وانسب إلى قدره ما شئت من عظم » أى وانسب إلى كماله الذى شئته من صفات العظم كالكرم والعفو والصفح والحلم والعلم وأمثال ذلك ، و « من » فى الموضعين لبيان الجنس ، وخص الذات بالشرف لمناسبته لها فى العلو ، وخص القدر بالعظم لمناسبته له فى عدم النهاية .

(٤٦) قوله « فإن فضل رسول الله إلخ » .

هذا البيت تعليل للبيت قبله ، فكأنه قال : لأن فضل رسول الله إلخ .

وقوله : « ليس له حد » أى ليس له غاية ومنتهى ، لأنه ﷺ لم يزل يترقى فى الكمال كل لحظة ، قال سيدى على وفا : ويشير لهذا قوله تعالى : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ (*) لأن معناه الإشارى : وللّحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة ، لأنه ﷺ يترقى فى المتأخرة إلى كمالات زائدة عما ترقى إليه فى المتقدمة ، ولهذا قال =

---

(*) سورة والضحى الآية ٤ .

لَوْ ناسبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عِظَما     أحيا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دارِسَ الرِّمَمِ (٤٧)

= ﷺ : « إنه ليغانّ (١) على قلبى فأستغفر الله » ، أى إنه لتتراكم الأنوار على قلبى ، فأستغفر الله مما قبل ذلك ، ولهذا قال ﷺ لأبى الحسن الشاذلى لما رآه فى النوم وسأله عن معنى هذا الحديث : « إنه غين أنوار لا غين أغيار يا مبارك » .

وقوله « فيعرب عنه ناطق بفم » أى فيفصح عن فضله ﷺ متكلم بلسان ، فمعنى يعرب يفصح ، وهو بالنصب فى جواب النفى ، والضمير راجع لفضل رسول الله ، ومعنى « ناطق » متكلم ، والمراد من الفم اللسان ، وعبر عنه بالفم ، لأنه محله ، فهو مجاز مرسل من باب إطلاق اسم المحل على الحالّ فيه ، وقوله « بفم » بَعْد « ناطق » للتأكيد ، على حد قولك سمعت بأذنى ، ونظرت بعينى ، أو للإشارة إلى التعميم فى الناطق فيشمل العربى والعجمى ، كما قيل به فى قوله تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ فإن كلاً من قوله « فى الأرض » بعد « دابة » ، وقوله « يطير بجناحيه » بعد « طائر » للتعميم فيهما .

(٤٧) قوله « لو ناسبت إلخ » كأن المصنف ادّعى أن آياته لم تناسب قدره فى العظم ، وذكر هذا البيت استدلالا على ذلك ، فإنه إشارة إلى قياس استثنائى نظمة هكذا : لو ناسبت آياته قدره فى العظم لكان من جملة آياته أن يحيى اسمه دارس الرمم حين يدعى به ، لكن لم يكن من آياته أن يحيى اسمه دارس الرمم حين يدعى به ، فلم تناسب آياته قدره فى العظم ، وهو المطلوب ، لأن الواقع أن قدره ﷺ أعظم من آياته حتى من القرآن المتلو بخلاف القرآن غير المتلو ، وهو المعنى القائم بذاته تعالى ، فإنه أعظم منه لأن القديم أفضل من الحادث ، وما شاع على الألسنة من أن كل حرف من القرآن أفضل من محمد وآل محمد ، فكلام باطل ، ولا يصح حمله على القرآن القديم لأنه ليس بحرف ولا صوت ، خلافا لمن زعم ذلك ، وقد ذكر المصنف الشرطية =

(١) الغين : التغطية ، ومعنى « ليغان على قلبى » أى يغطى عليه ، والذى ذكره سيدى أبو الحسن الشاذلى هو الحق لأن الأنبياء قلوبهم محفوظة عليهم الصلاة والسلام .

وقول الله تبارك وتعالى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ كاف فى ذلك ووافٍ لأن الأنبياء هم أخص عباده وأخص الخاصة سيدنا رسول الله ﷺ .

والحديث رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، ولفظه : « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » .

لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَـا تَعْيَـا العُقُـولُ بِهِ  حِرْصاً عَلَيْنا فلم نَرْتَبْ ولَمْ نَهِمِ (٤٨)

= وحذف الاستثنائية والنتيجة ، ووجه الملازمة فى الشرطية أن الإحياء المذكور أعظم آية ، وبه تكون الآيات مناسبة لقدره ﷺ ، أى يكون مجموعها بواسطة كون الإحياء المذكور منه مناسباً لقدره الشريف ، لا كل فرد منها ؛ لأنه لا يلزم من جعل الإحياء المذكور منها أن يكون كل فرد منها مناسبا لقدره ﷺ ، لا يقال : كيف لم يجعل الإحياء من آياته ﷺ مع جعله من آيات عيسى عليه السلام ، لأنّا نقول الكلام فى إحياء اسمه دارس الرمم حين يدعى به ، وهذا كما لم يجعل من آياته ﷺ ، لم يجعل من آيات عيسى عليه السلام ، وإنما الذى جعل من آيات عيسى إحياؤه الموتى بإذن الله ، ولا يخفى أن « قدره » مفعول مقدم ، وآياته فاعل مؤخر ، والمراد من قدره ، كمال قربه من الله تعالى ، والمراد بآياته أعلام [١] نبوّته ، كالمعجزات ، وقوله عظما منصوب على نزع الخافض كما أشرنا إليه ، ويصّح أن يكون تمييزا ، بل هو الأولى ، لأن النصب على نزع الخافض سماعى ، لكن كثر فى كلام المؤلفين حتى جرى مجرى القياسى ، وقوله « أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم » أى أحيا الله بسبب اسمه دارس الرمم حين يدعى به كأن يقال : يا ألله بمحمد أحى هذا الميت ، فإسناد الإحياء إلى اسمه مجاز عقلى ، وصلة « يدعى » محذوفة ، أى به ، والظرف متعلق بقوله « أحيا » ، و « دارس الرمم » مفعول أحيا ، فهو منصوب ، وجوّز بعضهم أن يكون مرفوعاً على أنه نائب فاعل يدعى ، ودعاؤه باسمه كأن يقال : يا ميت احى باسم محمد ﷺ ، و « دارس » بمعنى مدروس ، وإضافته لما بعده من إضافة الصفة للموصوف ، أى الرمم المدروسة ، والرمم جمع رمة ، وهى الشىء البالى ، والمدروسة : التى زيد فى بلائها .

وخاصية هذه الأبيات ، التى أولها « محمد سيد الكونين » [٢] إلى آخر هذا البيت شدة قلب المُغازى فى سبيل الله ، فإنه يكتبها ويمحوها بالماء الموجود فى شهر برمودة ويشربها ، فإنه بعد ذلك لا يخاف من الحرب ، ولا يزول ، وكذلك من كتبها بماء ورد وزعفران وشربها ، فإن الله يثبته عند سؤال منكر ونكير .

(٤٨) قوله « لم يمتحنا إلخ » أى لم يختبرنا بشىء تعجز عنه عقولنا ، ولا تهتدى لوجهه لشدة رغبته فى هدايتنا ، بل أتى بالحنيفية الواضحة ، فلم نتردد فيما أتانا به ولم نتحير فيه ، فالامتحان : الاختبار ، و « ما » واقعة على شىء ، والعى بالأمر : =

---

(١) بفتح الهمزة : الدلائل عليها .  (٢) البيت ٣٤

أعْيا الوَرَى فَهْمُ مَعْناهُ فَلَيْسَ يُرَى     فِي القُرْبِ والبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُنْفَحِمِ (٤٩)

= العجز عنه ، وعدم الاهتداء لوجهه ، والعقول : جمع عقل ، وهو قوة يميز بها بين المصالح والمفاسد ، والحرص على الشيء : شدة الرغبة فيه ، والارتياب : الشك ، والهيام : التحير ، ولا يخفى أن قوله « حرصا علينا » على تقدير مضاف ، أي حرصا على هدايتنا ، وهو مفعول لأجله ، وقد كان ﷺ يضرب الأمثال بالمحسوسات ، ليتضح ما يخفى إدراكه على بعض العقول ، فإن قيل : كيف يصح قول المصنف « لم يمتحنا بما تعيا العقول به » مع أن في القرآن المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ؟ أجيب بأن المراد : لم يمتحنا فيما كلفنا به بما تعيا العقول به ، وحينئذ فلا يرد المتشابه لأنه لا يتعلق به تكليف ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ ، على أن التحقيق أن الوقف على قوله تعالى : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ (*) فهم يعلمون تأويله ، ويعلمونه لغيرهم (١).

(٤٩) قوله « أعيا الورى إلخ » : لما أخبر المصنف فيما تقدم بعجز اللسان عن التعبير بفضائله ﷺ بقوله : « فإن فضل رسول الله ليس له حد » إلخ ، أخبر هنا بعجز العقول عن إدراك كمالاته ، بقوله « أعيا الورى » إلخ ، والإعياء : الإعجاز ، والورى : الخلق ، وقوله « فهم معناه » أي إدراك حقيقته ﷺ ، مع ما خصه الله به من المعارف الإلهية والأسرار الربانية ، وإسناد الإعياء إلى الفهم مجاز عقلي ، لأن الذي =

(*) آل عمران : ٧

(١) هذا قول بعض أهل العلم لكن الأصح قول بعض آخر معناه أن الواو في قوله – والراسخون في العلم تفيد العطف ، ويكون المعنى أن المتشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم ، والله سبحانه وتعالى لا يحب المشاركة في شيء أبداً ، وعلى هذا يكون المعنى فاسداً ويكون الوقف الصحيح على قوله تعالى : ( إلا الله ) ويكون الواو في قوله تعالى : ( والراسخون في العلم ) واو الاستئناف ، و « الراسخون » مبتدأ ، وجملة « يقولون آمنا به » خبر المبتدأ . والله أعلم بأسرار كتابه .

وقد ذكر الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه « الأربعين في أصول الدين » مبينا معنى التأويل الذي قصده العلماء أن التأويل لا يناله كل أحد فقال : « ولو نال كل أحد مقام التأويل لما قال ﷺ داعيا لابن عباس رضي الله عنهما « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » ، ولما قال يعقوب ليوسف عليهما السلام ﴿ كذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ قال صاحب الكشاف يعني في تفسيرها : يعني معاني كتب الله وسنن الأنبياء عليهم السلام وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها : تفسرها وتشرحها وتدلهم على مودعات حكمها .

كالشَّمْسِ تَظْهَرُ للعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ    صغيرةً وتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ (٥٠)

---

= أعياهم إنما هو الله تعالى ، وقوله « فليس يرى » إلخ تفريع على قوله « أعيا الورى » إلخ .. وفى « ليس » ضمير الشأن ، وهو مفسر بما بعده ، كما هو القاعده ، ويُرى بالبناء للمفعول ، وهى بصرية ، و « فى القرب والبعد » متعلق بيرى ، و « فيه » متعلق بمنفحم ، و « فى » بمعنى « عن » ، والضمير المتصل بها راجع لفهم معناه ، وقوله « غير منفخم » نائب فاعل يرى ، والمنفحم : العاجز ، وحاصل المعنى أنه أعجز الخلق فهم حقيقته فليس يبصر شخص غير عاجز عنه فى القرب والبعد منه ﷺ ، والمتبادر أن المراد القرب والبعد بحسب المكان ، أى فليس يرى فى المكان القريب والمكان البعيد منه ﷺ غير عاجز عن إدراكه ، ويحتمل أن المراد القرب والبعد بحسب الزمان ، أى فليس يرى فى الزمان القريب والزمان البعيد منه ﷺ غير عاجز عن إدراكه ، ويحتمل أيضاً أن المراد القرب والبعد فى المعنى ، فأهل الباطن والناظرون له ﷺ فى عالم الشهود تضعف بصائرهم عن إدراكه ﷺ لقوة إشراقه عليه الصلاة والسلام مع قربهم منه ﷺ ، وأهل الظاهر الناظرون له ﷺ فى عالم الحس لا يدركون إلا شخصاً مصوراً وجسماً مقدراً لبعدهم منه ﷺ .

(٥٠) قوله « كالشمس إلخ » أى هو كالشمس إلخ ، فهو خبر لمبتدأ محذوف ، والمقصود تشبيهه ﷺ بالشمس فى أنه لا يحاط بكنهه وحقيقته فى حالتى القرب والبعد ، كما وضّح ذلك المصنف بقوله « تظهر للعينين » إلخ لأنه قصد بذلك بيان وجه الشبه ، وقوله « من بعد » أى فى حالة البعد ، فمن بمعنى « فى » ، وبُعُد بضمتين كما هو لغة فى بُعْد بضم الباء وسكون العين ، وقوله « صغيرة » أى حال كونها صغيرة بقدر المرآة مثلا ، فهو حال من فاعل تظهر ، وقوله « وتكل الطرف » بضم التاء وكسر الكاف من « تكل » وسكون الراء من « الطرف » : أى وتعيى البصر وتضعفه لقوة شعاع نورها ، وهذا هو الأقرب . وقيل لعظم جرمها ، فإنه قيل إنها قدر كرة الأرض مائة مرة ونيفا وستين مرة ، فلا يمكن الطرف أن يحيط بها ، وقوله « من أمم » أى فى حالة القرب ، فمن بمعنى « فى » ، والأمم بفتح الهمزة القرب ، والمراد القرب منها فرضا ، فهو فرضى فقط ، وأما بعدها فهو واقع مطلقا ، وقيل إن البعد يكون فى حال طلوعها وغروبها ، والقرب يكون فى غير ذلك ، والأول أقرب ، ولذلك اقتصر عليه بعض الشارحين .

وكَيْفَ يُدْرِكُ فى الدُّنيا حقيقَتَهُ قَوْمٌ نِيامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بالحُلْمِ (٥١)

(٥١) قوله « وكيف يدرك إلخ » هذا البيت فى قوّة التعليل ، لقوله « أعيا الورى فهم معناه إلخ » وكيف : للاستفهام الإنكارى ، وهو بمعنى النفى ، أى لا يدرك إلخ ، واحترز بقوله « فى الدنيا » عن الآخرة ، فإنهم يدركون فيها حقيقته ﷺ ، لأنه يحصل لهم إذ ذاك الانتباه ويكمل نور أبصارهم وبصائرهم فيدركون الحقائق والدقائق والأسرار ، فيظهر لهم حينئذ قدره ﷺ ومنزلته ، ولذلك قدروا حينئذ على رؤية الحق سبحانه وتعالى لعدم رؤيتهم له تعالى فى الدنيا لضعف (١) قواهم ، وكونها عرضة للفناء ، فإذا رزقوا قوى قوية مثبتة رأوا الباقى بالباقى (٢) ، والمراد بحقيقته ﷺ قدره ومنزلته ، وقوله « قوم نيام » أى قوم غافلون عن النظر فى حقيقته ، وهذا وصف لازم لا مخصص ، كما يؤخذ من قوله ﷺ : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » (٣) . والمراد بالقوم جميع الورى ، وقوله « تسلوا عنه بالحلم » بضم اللام كما هو لغة فى الحلم بسكونها ، أى اكتفوا عن النظر فى حقيقته تفصيلاً بما يشبه الحلم ، مما أدركوه بالخبر جملة ، كذا يؤخذ من كلام بعض الشارحين ، ويحتمل أنه على ظاهره من أنهم اكتفوا عن النظر فى حقيقته بما يرونه فى منامهم ، إن صحت لهم رؤيته فى النوم ، وقد اقتصر على هذا بعض الشارحين ، والأصح أن رؤيته ﷺ فى النوم حق ، وإن رؤى =

(١) رؤية الحق سبحانه وتعالى فى الآخرة حق لا شك فيه ، لكن بالتجلى لا بالإحاطة – أى يتجلى الله للمؤمنين ، ويحجب عن الكافرين ، بدليل قوله تعالى فى حق الكافرين : ﴿ كلاَّ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ ( المطففين : ١٥ ) ، فإذا كان الكافرون محجوبين ، فالمؤمنون غير محجوبين وهى قضية مسلَّمة لا جدال فيها ولا نقاش .

(٢) أى لأن الله تعالى يعيد خلق النظر يوم القيامة للبقاء ، فيرى الباقى بالباقى ، وإن كان بين البقائين بون بعيد وفرق كبير . فإن الله تعالى باق بذاته والعبد باق بإبقاء الله له ، لأن الله حكم على المؤمن والكافر ، وكل أهل الجنة والنار وغيرهم بالبقاء ﴿ يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت ﴾ والله تعالى أعلم .

(٣) لأنهم فى الدنيا غافلون عن الآخرة ، فإذا ماتوا انكشفت لهم الحقائق .

فَمبلَغُ العلْمِ فِيهِ أنَّهُ بَشَرٌ    وأنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللّهِ كُلِّهِمِ (٥٢)

وكُلُ آيٍ أتَى الرُسْلُ الكِرامُ بها    فإنما اتصلت مِنْ نورِهِ بِهِمِ (٥٣)

---

= على غير هيئته التى كان عليها فى الدنيا لحديث « من رآنى فقد رآنى حقا » ، وقيل : لا تكون حقا إلا إن رؤى على هيئته الشريفة (١) .

(٥٢) قوله « فمبلغ العلم فيه إلخ » هذا البيت مفرع على قوله « أعيا الورى فهم معناه » إلخ ، فيترتب على ذلك أن ما يبلغه علم الناس فى حقه ﷺ : أنه بشر ، لا إله ولا ملك ، وأنه خير مخلوقات اللّه كلهم إنسا وجنا وملكا وغيرهم ، وقوله « فيه » أى في حقه من حيث الذات ومن حيث الصفات ، وقوله « أنه بشر » راجع للذات ، وقوله « وأنه خير خلق اللّه كلهم » راجع للصفات ، فعلم من ذلك القصور عن إدراك الكنه فى الجانبين ، والبشر : اسم لبنى آدم ، سموا بذلك لبدوّ بشرتهم ، وهى ظاهر الجلد ، وخير : أصله « أخير » حذفت منه الهمزة لكثرة الاستعمال ، ثم نقلت حركة الياء للخاء ، فصار خير ، فهو أفعل تفضيل ، ولذلك لا يثنى ولا يجمع ، وأما قوله تعالى : ﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ (*) فالمجموع فيه خير مخفف خيّر بالتشديد ، والخلق بمعنى المخلوقات ، على سبيل المجاز المرسل ، بحسب الأصل ، لكن صار حقيقة عرفية .

(٥٣) قوله « وكل آى أتى الرسل إلخ » أى وكل المعجزات التى أتى بها الرسل الكرام لأممهم فلم تتصل بهم إلا من معجزاته ﷺ ، أو من نوره الذى هو أصل الأشياء كلها ، فالسموات والأرض من نوره ، والجنة والنار من نوره ، ومعجزات الأنبياء من نوره (١) ، وهكذا ... فالآى بمعنى المعجزات ، جمع آية بمعنى المعجزة ، والرسل =

---

(١) من رآه ﷺ فقد رآه حقا ، إلاّ أن أهل العلم قالوا : من رآه على غير صورته الأصلية ، فإنما تكون الرؤيا بقدر الرائى وعلى حسب طاقته هو ، وبقدر قيمة المصطفى ﷺ عنده ، أما حقيقته ﷺ فلا يطيقها أحد كائنا من كان .    (*) سورة ص الآية ٤٧ .

(٢) للحديث الصحيح الثابت – عند أهل الحق – أن سيدنا جابر بن عبد اللّه قال : يا رسول اللّه بأبى أنت وأمى أخبرنى عن أول شىء خلقه اللّه تعالى قبل الأشياء ؟ قال : يا جابر إن اللّه تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء اللّه تعالى » إلى آخره ، وهو حديث طويل فيه خلق كل الأشياء من نور حضرة المصطفى ﷺ . فراجعه فى مسند عبد الرزاق ، وقوله « من نوره » أى النور الذى خلقه اللّه تعالى ، لا أن اللّه تعالى « نور » فأخذ قطعة منه فجعلها محمداً ، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيراً ، وإنما هو نور منسوب إليه ، نسبة الخلق للخالق .

فإنَّه شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كواكِبُها　　يُظْهِرْنَ أنْوارَها للناسِ فی الظُّلَمِ (٥٤)

= بسكون السين ، ويقال فی غير النظم رسل بضمها جمع رسول ، والكرام جمع كريم ، وقوله« بها » متعلق بأتی ، والضمير راجع للآی ، و « إنما » للحصر ، والمراد بنوره معجزاته ، وسميت نورا لأنه يهتدى بها ، ويصح حمله على النور المحمدی الذی هو أصل المخلوقات كلها ، كما حمله عليه بعض الشارحين ، و « من » للابتداء ، والباء للإلصاق ، لا يقال : كيف تكون المعجزات التی أتی بها الرسل الكرام لأممهم من نوره ﷺ ، مع أنهم متقدمون عليه فی الوجود ؟ لأنَّا نقول هو ﷺ متقدم على جميع الأنبياء من حيث النور المحمدی .

(٥٤) قوله « فإنه شمس فضل إلخ » هذا البيت تعليل للبيت قبله ، والمعنى على التشبيه ، أی فإنه كالشمس فی الفضل ، وقوله « هم كواكبها » أی الرسل : كواكب الشمس ، والمعنى على التشبيه أيضاً ، أی مثل كواكبها ، ووجه التشبيه فيهما أن الشمس جرم مضیء بذاته ، والكواكب أجرام غير مضيئة بذاتها، لكنها صقيلة تقبل الضوء ، فإذا كانت الشمس تحت الأرض فأضاء نورها من جوانبها ، فيطلب الصعود ، لأن النور يطلب مركز العلو فيصادف أجرام الكواكب الصقيلة المقابلة له ، فيرتسم فيها ، فتضیء فی الظلمات ، وتظهر أنوار الشمس فيها للناس من غير أن ينقص من نور الشمس شیء ، فنوره ﷺ لذاته ، ونور سائر الأنبياء ممتد من نوره من غير أن ينقص من نوره شیء ، فيظهرون ذلك النور فی الكفر الشبيه بالظلم فلذلك قال المصنف : « يُظهرن أنوارها للناس فی الظلم » وكما أن الشمس إذا بدت لم يبق أثر للكواكب ، فكذلك شريعته ﷺ لما بدت نسخت غيرها من سائر الشرائع ، كما يشير لذلك قوله فی بعض النسخ :

حتـــى إذا طلعت فـــی الأفـــق عَمَّ　　هُداها العالمين ، وأحيتْ سائر الأمم

وظاهر هذا البيت ، أنه ﷺ مرسل للأمم السابقة ، لكن بواسطة الرسل ، فهم نواب عنه ﷺ ، وبهذا قال الشيخ السبكی ومن تبعه أخذاً من قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ (*) والذی عليه الجمهور أنه ﷺ مرسل لهذه الأمة دون الأمم السابقة ، فالمسألة خلافية ، والحق الأول (١) .

(١) أی قول السبكی ومن تبعه ، لأنه ما من نبی أرسل إلى قوم إلا ويشر به ﷺ ، وأمر قومه باتباعه إن خرج فيهم بنص القرآن . واقرأ فی ذلك كتاب « شفاء السقام » للحافظ السبكی فقد أورد فيه أدلة صحيحة على ما قاله رحمه الله ورضی عنه .

(*) الآية ٨١ آل عمران .

أكْـــرِمْ بِخَلْقِ نَبِـــىٍّ زانَــهُ خُلُقٌ بالحُسْنِ مُشْتَمِـلٍ بالبِشْرِ مُتَّسِمِ (٥٥)
كالزَّهْرِ فى تَرَفٍ والبَدْرِ فى شَرَفٍ والبَحرِ فى كَرَمٍ ، والدَّهْرُ فى هِمَمِ (٥٦)

---

(٥٥) قوله « أكرم بخلق نبى إلخ » أى ما أكرم خلق نبى إلخ ، فأكرم فعل تعجب لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر ، وفاعله ظاهر ، وهو الخلق بفتح الخاء وسكون اللام ، لكن دخلت عليه الباء الزائدة لتحسين اللفظ ، وقوله « زانه خلق » أى حسَّنه خلق بضم الخاء واللام ، بمعنى زاده حسنا ، قال الله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (*) وقال أنس : « كان ﷺ أحسن الناس خلقا » . وقوله « بالحسن مشتمل بالبشر متسم » أى متصف بالحسن ، فاشتماله به من اشتمال الموصوف بالصفة ، متصف بالبشر ، وهو بكسر الباء وسكون الشين المعجمة : بشاشة الوجه وطلاقته ، والاتسام : الاتصاف ، ولا يخفى أن قوله بالحسن متعلق بمشتمل ، وهو بالجر على أنه صفة لنبى ، فهو من باب الوصف بالمفرد بعد الوصف بالجملة ، وكذا يقال فى قوله « بالبشر متسم » . وحاصل المعنى : ما أحسن صورة نبى حسَّنه خلق ، متصف بالحسن ، متصف بالبشاشة وطلاقة الوجه .

(٥٦) قوله « كالزهر فى ترف إلخ » صفة رابعة لنبى ، وتشبيهه ﷺ بالزهر فى الترف وبالبدر فى الشرف راجع إلى صورته الشريفة ، وتشبيهه ﷺ بالبحر فى الكرم وبالدهر فى الهمم راجع إلى خلقه الكريم ، والزهر : نَور النبات بفتح النون ، والترف : بفتح التاء المثناة الفوقية والراء المهملة النعومة ، قال أنس : « ما مسستُ حريرا ولا ديباجا ألين من كف النبى ﷺ » . والبدر هو القمر ليلة كماله ، وهى ليلة أربعة عشر ، وإنما سمى فى تلك الليلة بدراً لأنه يبدر الشمس بالطلوع ، والشرف بفتح الشين المعجمة والراء المهملة : العلو ، وشرف البدر على سائر الكواكب الليلية ، وشرف النبى ﷺ على سائر الخلق ، وكرم البحر مذكور فى قوله تعالى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ (١) . وكرم النبى ﷺ مذكور فى الأحاديث الكثيرة ومنها حديث أنس قال : « ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام ( أى لأجل الإسلام ) شيئا إلا أعطاه إياه » قال : فسأله رجل غنما بين جبلين ، فأعطاه إياها ، فأتى قومه فقال : يا قوم أسلموا فوالله إن محمداً يعطى عطاء من لا يخاف الفقر » . والدهر : الزمن ، والهمم : جمع همة وهى العزم على =

---

(*) الآية ٤ سورة القلم .
(١)

كأنهُ وهْوَ فَرْدٌ مِنْ جَلالتهِ ... فى عَسْكرٍ حينَ تَلقاهُ وفى حَشَمِ (٥٧)

---

= الشيء والإرادة له ، ونسبة الهمم إلى الدهر على عادة العرب ، فإنهم يجعلون للدهر عزمات وارادات ويشبهون الممدوح به فى تلك العزمات والإرادات ، وسبب ذلك أن الحادثات الدقيقة إنما تقع فى الدهر فينسبونها إليه على سبيل المجاز العقلى ، كقولهم : نهاره صائم وليله قائم ، ولقد تغالى أى تجاوز الحد من قال :

له هِمَمٌ ، لا مُنتهَى لكِبارِها ... وهِمَّتُهُ الصغرَى : أجلُّ مِنَ الدهْرِ

له راحةٌ لو آن معشارَ عُشْرِها ... على البَرِّ : كان البرُّ أَنْدى مِنَ البَحْرِ (١)

ووجه الغلوّ أي مجاوزة الحدّ ، أنه أثبت لممدوحه همما صغرى وكبرى ، وجعل همته الكبرى لا منتهى لها ، وجعل همته الصغرى أجلّ من الدهر ، أى من همم الدهر ، والمصنف جعل همم النبى مثل همم الدهر ، فيلزم من ذلك أن همم الممدوح أجلّ من همه ﷺ ، وهو باطل ، وبعضهم نسب هذين البيتين لحسان يمدح بهما النبى ﷺ ، وعليه فلا غلو لأنه ﷺ كان كذلك ، وهذا أبلغ فى مدحه ﷺ من كلام الناظم ، لكن لم يوجد ذلك فيما جُمع من شعر حسان .

(٥٧) قوله « كأنه وهو فرد » إلخ ، صفة خامسة لنبى ، وكأن للتشبيه ، والضمير اسمها ، وجملة « وهو فرد » حال من المفعول فى « تلقاه » ، فالواو للحال ، ومن جلالته أى من أجل جلالته ، فهو تعليل للتشبيه المستفاد من « كأن » ، وحين تلقاه ظرف لما هو معنى « كأن » من التشبيه ، وقوله « فى عسكر » و « فى حشم » خبر كأن ، وتقدير البيت كأنه حين تلقاه وهو فرد فى عسكر وفى حشم من أجل جلالته ، وقصد المصنف تشبيهه ﷺ وهو منفرد بنفسه إذا كان فى عسكر وفى حشم ، وهو ﷺ إذا كان فى عسكر وفى حشم له هيبة ووقار ، فكذلك وهو منفرد ، فيكون له أيضا هيبة ووقار من أجل جلالته : الجلالة : العظمة ، والعسكر : الجيش ، والحشم : بفتح الحاء والشين المعجمة الخدم ، والخطاب فى « تلقاه » لكل من صَلَح للخطاب ، وحكى أن بعضهم رأى فى المنام أن الصّديق رضى الله عنه يزف النبى ﷺ بهذا البيت ، والذى بعده .

---

(١) لو كان هذا الشعر فى حق رسول الله ﷺ لكان القائل صادقاً أما فى حق غيره فكذب محض . والله أعلم .

لأن همة المصطفى ﷺ لا يساويها شيء إذ هى هبة من الله لأكرم خلق الله تعالى ﷺ .

كأنّما اللـــؤلؤُ المكنـــونُ فى صَدَفٍ   مِنْ مَعْدَنَىْ مَنْطِقٍ مِنْهُ ومُبْتَسَمِ (٥٨)
لا طِيبَ يَعْـــدِلُ تُـــرْباً ضمّ أعْظُمَهُ   طُـــوبَـــى لمنتَشِقٍ مِنْهُ ومُلْتَثِمِ (٥٩)

---

(٥٨) قوله « كأنما اللؤلؤ المكنون فى صدف » إلخ صفة سادسة لنبى ، وقد جرى المصنف فى البيت السابق وهو قوله « كالزهر فى ترف » إلخ على ما جرت به العادة فى التشبيه ، وجرى فى هذا البيت على عكسه ، لأنه شبه اللؤلؤ المكنون فى صدفه بكلامه وثغره ﷺ اللذين يبرزان من معدنى منطقه ومبتسمه ، والأصل أن يشبه كلامه وثغره ﷺ اللذان يبرزان من معدنى منطقه ومبتسمه باللؤلؤ المكنون فى صدفه ، بجامع الحسن فى كل ، فالمصنف عكس التشبيه ، كما فى قول الشاعر :

وبدا الصباحُ كأنَّ غُرَّتَهُ   وَجْهُ الخليفة حين يمتدح

وفى ذلك إشارة إلى أن الفرع لقوّة وجه الشبه فيه صار أصلا ، والأصل لضعف وجه الشبه فيه صار فرعا ، ويسمى التشبيه المقلوب ، وهو أبلغ فى المدح ، واللؤلؤ هو الدر المسمى بالجوهر ، والمكنون : المصون ، و « فى صدف » متعلق بالمكنون ، والصدف : المحار الذى يتولد فيه ، وهو وعاء له يحفظه حتى ينشق عنه ، كما أن القلب وعاء للكلام النفسى ، حتى يبرزه اللسان ، وكما أن الشفتين المنضمتين على الثغر كالوعاء له ، وإنما قيد اللؤلؤ بالمكنون فى صدف لأنه يكون فى الصدف أحسن منظراً منه خارج الصدف ، والإضافة فى معدنى منطق منه ومبتسم للبيان ، أى من معدنين هما منطق منه ومبتسم ، ويصح أن تكون من إضافة المشبه به للمشبه ، أى من منطق ومبتسم شبيهين بالمعدنين ، والمنطق : محل النطق ، وهو راجع لكلامه ﷺ ، والمبتسم بفتح السين محل الابتسام ، لا بكسرها خلافا لبعض الشارحين ، وهو راجع لثغره ﷺ . ومعنى البيت كأنما اللؤلؤ المصون فى صدفه كلامه وثغره ﷺ اللذان يبرزان من معدنى منطق منه ومبتسم ، وفى كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأول أى و « مبتسم » منه .

(٥٩) قوله « لا طيب يعدل » إلخ : لما مدحه ﷺ بما اتصف به من المحاسن قبل مفارقته الدنيا ، مدحه بما اتصف به من المحاسن بعدها ، فقال لا طيب الخ ، والطيب : ما يتطيب به من مسك ونحوه ، والترب بسكون الراء لغة فى التراب ، والضم : الجمع ، والأعظم : جمع عظم ، وطوبى : إما مصدر بمعنى التطيب أو اسم لشجرة فى الجنة يسير الراكب فى ظلها مائة عام ولا يقطعها .

وعلى الاول ، فهو بدل من اللفظ بفعله ، وهو طاب ، والأصل طاب المنتشق والملتثم ، فحذف الفعل وأتى بالمصدر بدلاً من التلفظ به ، وزيدت اللام لتبيين الفاعل . =

.......................................

= وعلى الثانى فهو مبتدأ خبره ما بعده ، وعلى كل فيحتمل أنه إخبار ، وأنه دعاء ، وحاصل المعنى : لا طيب يساوى التراب الذى جمع الجسد الشريف ، وهو تراب قبره ﷺ ، تطيبا ، أو الشجرة التى فى الجنة لمنتشق منه وملتثم على التفسيرين السابقين فى طوبى ، ولما كان الطيب يستعمل على وجهين تارة ، يستعمل بالشم ، وتارة يستعمل بالتضمخ ، أشار للأول بقوله « منتشق » وللثانى بقوله « ملتثم » ، والمراد بالملتثم هنا المعفر موضع اللثام ، وهو الوجه ، وليس المراد المقبِّل أخذاً له من الالتثام وهو التقبيل ، لأن تقبيل القبر الشريف ، وكذا ما فيه من التراب مكروه (١) . ومعلوم أن طيب التراب المذكور إنما سرى له من طيبه ﷺ الذى هو أعلى أنواع الطيب ، ولذلك قال أنس : «ما شممت عنبراً ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله ﷺ » ثم أنّ أطيبية ذلك التراب يحتمل أنها باعتبار ما عند الله تعالى ، ويحتمل أنها باعتبار ما عند غيره أيضاً ، لكن لا يدرك ذلك إلا من كشف له الغطاء من الأولياء المقربين ، لأن أحوال القبر من الأمور التى لا يدركها إلا من ذُكر ، فاندفع ما يقال : لو كان التراب المذكور من الطيب لزم أن يدرك طيبه كل أحد كالمسك ، فإنه يدرك طِيبَه كل أحد ، على أنه لا يلزم من قيام المعنى بمحل إدراك كل أحد له ، لجواز انتفاء شرط أو وجود مانع ، وعدم الإدراك لا يدل على انتفاء المدرك ، ألا ترى أن المزكوم لا يدرك رائحة المسك ، مع أنها قائمة به ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » ولا شك أن قبره ﷺ روضة من رياض الجنة ، بل أفضلها ، وقد قال أيضاً عليه الصلاة والسلام « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » وكلٌّ من القبر والمنبر داخل فى حكم ما بينهما ، أما القبر فللخبر العام الذى ذكر ، وأما المنبر فلقوله ﷺ فى آخر الحديث « ومنبرى على حوضى ، والحوض من الجنة » وإذا تقرر كون هذا المكان من الجنة ، لم يبق عند العاقل المصدق بالشريعة امتراء فى أنه لا طيب يعدله ، وفى كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأول : أى وملتثم منه ، كما تقدم فى البيت السابق .

---

(١) كيف وقد قبلت السيدة فاطمة رضى الله عنها تراب قبر أبيها ﷺ ، وقالت :

« ماذا على من شمَّ تربةَ أحمد ... ألاَّ يشم مـدى الزمـان غواليا

صُبَّتْ عَلَـيَّ مصائب لَوْ أنها ... صبت على الأيام عدن لياليا » إ هـ

والغالية : طيب معروف .

أبانَ مَـولِدُهُ عَنْ طِيبِ عُنْصُرِهِ يا طِيبَ مُفْتَتَـحٍ مِنْـهُ ومُخْتَتَمِ (٦٠)

يَوْمٌ تَفَرَّسَ فيهِ الفُرْسُ أنَّهُمُو قَد أُنْذِروا بِحُلولِ البُؤْسِ والنِّقَمِ (٦١)

---

(٦٠) قوله « أبان مولده إلخ » الإبانة : الكشف والإظهار ، والمولد : مصدر ميمى يصلح لأن يراد به الولادة أو زمانها أو مكانها ، وعلى كل من الاحتمالات الثلاثة لا بد من تقدير مضاف ، والأصل أبان آيات مولده ، و « عن » للتعدية ، والطيب الخلوص عما لا ينبغى فى النسب ، و « العنصر » بضم العين المهملة وسكون النون وضم الصاد هو الأصل ، والمراد به آباؤه الذين تناسل هو منهم ، وقوله « يا طيب إلخ » نداء للطيب على سبيل التعجب لأن العرب إذا استعظمت شيئا نادته على سبيل التعجب ، أى : يا طيب مفتتح إلخ احضر ليتعجب منك ، والمراد بالمفتتح بفتح التاءين المثناتين : مَن فوق آدم عليه السلام ، وبالمختتم كذلك : سيدنا عبد الله ، خلافا لما قاله بعض الشارحين من أن المراد بالمفتتح هاشم ، وبالمختتم النبى ﷺ ، لأن افتتاح عنصره ليس بهاشم ، بل بآدم ، واختتامه ليس بالنبى ﷺ ، بل بسيدنا عبد الله ، وإذا تعجب من طيب المفتتح والمختتم لزم أن يتعجب من طيب ما بينهما ، وفى بعض النسخ بدل المفتتح : المبتدأ ، والضمير فى قوله « منه » راجع للعنصر ، وفى كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأول ، أى ومختتم منه ، كما فى البيتين قبله ، وحاصل معنى البيت : أظهرت وكشفت آيات مولده عن خلوص آبائه ﷺ عما لا ينبغى فى النسب يا طيب مفتتح إلخ احضر ليتعجب منك . ومن آيات مولده ﷺ ما ذكروه عن أمه أنها قالت : لقد أخذنى الطلق ، وإنى لوحيدة فى المنزل ، وعبد المطلب فى طوافه يوم الإثنين ، فسمعت وجبة ( أى سقطة ) هالتنى ، ورأيت كأن جناح طير أبيض مسح فؤادى ، فذهب رعبى ، وكلُّ وجع أجده ، وكنت عطشى فإذا بشربة بيضاء فشربتها ، فأصابنى نور عال » إلى آخر الحديث ، وقد ذكره بطوله القسطلانى .

(٦١) قوله « يوم إلخ » أى هو يوم إلخ ، فهو خبر مبتدأ محذوف ، والضمير راجع لمولده ، بمعنى زمان الولادة فقط ، وإن كان محتملا فيما تقدم للحدث وللزمان وللمكان ، وقوله تفرس فيه الفرس : أى ظهر لهم بطريق الفراسة بكسر الفاء ، وهى قوة يدرك بها الإنسان المعانى اللطيفة بسبب المخايل الظاهرة ، بخلاف الفراسة بفتح الفاء فإنها الحذق فى ركوب الخيل [1] ، والفرس : بضم الفاء وسكون الراء أهل مملكة =

---

(١) قال فى القاموس : « والفراسة – بالكسر – اسم من التفرس ، وبالفتح : الحذق بركوب الخيل وأمرها » .

وباتَ ايوانُ كِسْرَى ، وَهْوَ مُنْصَدِعٌ كَشَمْلِ أَصْحابِ كِسْرَى غَيْرِ مُلْتَئِمِ (٦٢)

= فارس ، وكانوا مجوسا يعبدون النار بعد رفع كتابهم حين بدَّلوه ، وإنما سُمّوا فرساً لأنه وُلد لأبيهم بضعة عشر رجلا ، كلٌ منهم شجاع فارس ، فسُمُّوا الفرس لذلك ، وقوله « أنهمو » بالإشباع ، وقوله « قد أنذروا » أى أعلموا بالبناء للمجهول ، وقوله « بحلول البؤس والنقم » أى بنزول البؤس والنقم بهم ، والجار والمجرور متعلق بأنذروا ، والحلول من حل يحل بالضم أو بالكسر ، إذا نزل ، والبؤس : هو الشدة المؤثرة فى القلب الهم والحزن ، و « النقم » جمع نقمة وهى العقوبة ، والمراد بالبؤس والنقم ما حصل لهم من خراب ملكهم وتشتيت أمرهم وتفريق قبائلهم وتمزيقهم كل ممزق كما دعا عليهم رسول الله ﷺ . وحاصل المعنى أن يوم ولادته ﷺ يوم ظهر للفرس فيه أنهم أنذروا بنزول الشدة والعقوبات بهم حيث قارنه ما سيذكره الناظم من الإرهاصات المؤسسة لنبوته ﷺ .

(٦٢) قوله « وبات إيوان كسرى » إلخ عطف على قوله تفرس إلخ ، أى وبات فى ليلة ولادته ﷺ إيوان كسرى إلخ . والإيوان كديوان بناء يبنى طولا غير مسدود الوجه ، يعده الملك لجلوسه فيه لتدبير ملكه ، وقد كان سمك ذلك الإيوان مائة ذراع فى مثلها ، ومكث فى بنائه نيفا وعشرين سنة ، ولهذا كان يظن إنه لا يهدمه إلا نفخة الصعق ، وقد أراد هارون الرشيد هدمه لما بلغه أن تحته مالا عظيما فعجز عنه ، فأبقاه على حاله ، وكسرى بكسر الكاف لقب لكل من ملك الفرس ، والمراد به هنا أنوشروان بن قباد بن فيروز ، وقوله « وهو منصدع » أى والحال أنه منشق شقا بينا أشرف به على الهدم ، لا لخلل فى بنائه ، بل ليكون آية من آياته ﷺ ، ومع انصداعه سقط منه أربع عشرة شرافة من شرافاته ، وكانت اثنين وعشرين ، وقد روى أنه لما ارتج ايوان كسرى وسقط منه الأربع عشرة شرافة أحزنه ذلك ، فتوجه إلى النعمان ملك العرب يستفسره عن سر ما بدا ، فرفع النعمان الخبر إلى سطيح وقد أشرف على الضريح وهو القبر ، فقال : « يكون سبى وسبايات ، ويموت ملوك وملكات ، بعدد الشرافات » ، ثم قضى على سطيح . وقوله : « كشمل أصحاب كسرى » بفتح الشين أى حالهم ، وقوله « غير ملتئم » خبر بات . وحاصل المعنى : وصار ايوان كسرى والحال أنه منصدع غير ملتئم كشمل أصحاب كسرى ، فإنه بات أيضا غير ملتئم ، بل تفرق ، ولم يتفق لأحد مثل ما اتفق لكسرى فى كثرة جيوشه وأعوانه ، ولم يزالوا فى تفرق وتشتت حتى جاءت بشائر الإسلام .

والنارُ خامِدَةُ الأنْفاسِ مِنْ أَسَفٍ عليه ، والنَّهْرُ سَاهِي العَيْنِ مِنْ سَدَمِ (٦٣)

---

(٦٣) قوله « والنار خامدة الأنفاس » إلخ يجوز فيه رفع الجزأين على الابتداء ، والخبر والعطف حينئذ من عطف الجمل لأن هذه الجملة معطوفة على جملة قوله « وبات إيوان كسرى » إلخ ، ويجوز رفع الأوّل على أنه معطوف على « إيوان » ونصب الثانى على أنه معطوف على « غير ملتئم » ، وهكذا يقال فى قوله « والنهر ساهى العين » إلخ على لغة من أعرب المنقوص نصبا كإعرابه رفعا وجرا ، والعطف حينئذ من عطف المفردات ، والمراد من النار نار الفرس التى كانوا يعبدونها ، وكان لها خَدَمة يوقدونها ، ولم تخمد قبل تلك الليلة بألف عام ، وفى عبارة بعضهم : بألفى عام ، ومعنى كونها خامدة الأنفاس كونها منطفئة اللهب مع بقاء الجمر ، فخمود النار انطفاء لهبها مع بقاء جمرها ، وأما الهمود فانطفاء لهبها مع جمرها . والأنفاس : جمع نفس بفتح الفاء ، والمراد به هنا لهب النار ، على طريق الاستعارة التصريحية ، وقوله « من أسف » أى من أجل أسف ، فمن للتعليل ، والأسف بفتح الهمزة والسين : شدة الحزن ، وقوله « عليه » متعلق بأسف ، والأظهر أن الضمير المجرور بعلى راجع للإيوان ، وجوّز بعض الشارحين أن يكون راجعا إلى النبى ﷺ ، ووجه ذلك بأن ولادته ﷺ سبب فى ترك عبادتها ، وهذا من حسن التعليل تقريعا بهم ، وهو أن يدّعى لحكم علة مناسبة ، لكنها غيره موافقة للواقع ، كما فى قوله :

وما نزل الغيث إلا لكى يقبِّل بين يديك الثرَى

وقوله « والنهر ساهى العين » قد عرفت إعرابه ، والمراد بالنهر : نهر الفرات ، الذى كان به قوامهم ، وكان قد ضل الطريق ، ووقع فى ساوة ، وهى بادية بين دمشق والعراق ، والمراد بكونه ساهى العين أنه ساكن العين التى هى مادته عن الجرى ، على سبيل الاستعارة ، ويحتمل أن فى الكلام استعارة بالكناية ، فيكون قد شبه النهر بإنسان ساهى العين ، تشبيها مضمرا فى النفس ، وطوى لفظ المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وهو « ساهى العين » ، وقوله « من سدم » أى من أجل سدم ، فمن للتعليل ، والسدم بفتح السين والدال : الحزن ، وهذا من حسن التعليل أيضاً ، وبعضهم جعل إثبات الأسف للنار والسدم للنهر مجازا عقليا ، لتنزيل كل منهما منزلة العاقل ، وقد عرفت أنه من حسن التعليل ، فلا حاجة لذلك ، وفى كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأوّل أى من سدم عليه ، كما تقدم فى نظائره .

وَساءَ ساوَةَ أنْ غاضَتْ بحيـــرتُها ورْدٌ واردُها بالغيظِ حينَ ظَمى (٦٤)

كـــأنّ بالنارِ مـــا بِالماءِ مِـــنْ بَلَـلٍ حُـزْناً ، وبالماءِ ما بِالنارِ مِنَ ضَرَمِ (٦٥)

---

(٦٤) قوله « وساء ساوة » إلخ أي وساء أهل ساوة إلخ ، فهو على تقدير مضاف على حد قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ (*) أى أهلها ، وساوة اسم لمدينة من مدن الفرس وهى بين همدان والرى ، وقوله « أن غاضت بحيرتها » فاعل ساء ، ومعنى غاضت ( بضاد معجمة ، قيل وبصاد مهملة ) غار ماؤها وذهب بالمرة ، حتى أن لهب النار ينبع من قعرها ، كأنما طبخت أرضها ، وكانت هذه البحيرة بركة عظيمة تسير فيها السفن للبلاد التى على ساحلها ، وكان طولها ستة أميال فى مثلها عرضا ، وقيل ستة فراسخ فى مثلها عرضا ، وقال البكرى : كان طولها عشرة أميال وعرضها ستة ، وكان حولها بيع وكنائس ، فخربت ، ومن ذلك يعلم أن التصغير فيها ليس للتحقير (١) ، وقوله « وردّ واردها » إلخ « أى وأن ردّ واردها » إلخ ، فهو معطوف على مدخول أن فى قوله « أن غاضت بحيرتها » والباء فى قوله « بالغيظ » للملابسة ، أو المصاحبة ، أى ملابسا للغيظ أو مصاحبا له ، والجار والمجرور متعلق بردّ ، وقوله « حين ظمى » ظرف لواردها ، أى الذى يردها ويأتى إليها ليستقى من مائها حين عطش .

وحاصل المعنى : وأحزن أهل المدينة المسماة بساوة أمران : أحدهما غيض مائها ، والثانى ردّ الذى يردها ليستقى منها بالغيظ حين عطش .

(٦٥) قوله « كأن بالنار » إلخ لا يخفى أن بالنار خبر كأن مقدم ، وما بالماء اسمها مؤخر ، والأصل كأن ما بالماء بالنار ، وما : اسم موصول بمعنى الذى ، وقوله من بلل : بيان لها ، وقوله « حزنا » أى للحزن ، فهو علة لقوله « كأن بالنار ما بالماء من بلل » ، وقوله : « وبالماء ما بالنار من ضرم » ، فيه ما تقدم فيما قبله ، أى وكأن بالماء ما بالنار من ضرم ، والضرم : الالتهاب ، وفيه الحذف من الثانى لدلالة الأوّل أى حزنا ، وحاصل المعنى أن النار التى خمدت تلك الليلة صارت كأن بها ما بالماء من البلل ، فصارت مبتلة لحزنها ، وأن الماء الذى غاض تلك الليلة صار كأن فيه ما بالنار من الضرم لحزنه أيضا ، فكأن ما بكل من نار فارس وماء بحيرة ساوة انتقل للآخر من الحزن ، وخص الناظم من أوصاف الماء البلل دون البرودة مثلا ، ومن =

---

(*) سورة يوسف : ٨٢

(١) لأن بحيرة : بضم الباء تصغير : بحر .

والجِـــنُّ تَهْتِفُ والأنْـــوارُ ساطِعَـــةٌ    والحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنًى ومِنْ كَلِمِ (٦٦)

= أوصاف النار الإضرام دون الحرارة مثلا ، لأن البلل هو الذى يخرج النار عن حقيقتها ، بخلاف البرودة فإنها لا تخرجها عن حقيقتها ، قال الله تعالى : ﴿ يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ (*) والإضرام هو الذى يخرج الماء عن حقيقته ، بخلاف الحرارة ، فإنها لا تخرجه عن حقيقته ، فإنه يقال : ماء حار ، ولا يقال ماء مضطرم ، لأن الاضطرام يستلزم غاية اليبس ، فإن قيل : الجمادات كلها لا توصف بالكفر ، بل منقادة خاضعة لله ، قال تعالى : ﴿ وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ﴾ (**) فكيف يقول الناظم حزنا ، واللائق أن يكون ذلك فرحا ؟ أجيب بأن النار تحزن على نفسها من أجل أنها لا توقد ، والماء يحزن على نفسه من حيث أنه لا يجرى ، فكل منهما شبيه بالحزين لأجل ذلك ، هذا إن كان المراد حزن ذاتهما كما هو المتبادر ، وإن كان المراد حزن أهلهما ، فلا إشكال ؛ لأن أهلهما يحزنون على تغيير ملكهم وتشتيت أمرهم .

(٦٦) قوله « والجن تهتف » إلخ أى وصارت الجن تهتف فى الجبال والأودية ، فمن ذلك ما جاء أنه حين ولد ﷺ هتف هاتف على الحجون (١) وهو ينشد ويقول :

فأقسمُ ما أنثى منَ الناس أنجبتْ    ولا ولدتْ أنثى من الناس واحِدَهْ
كما ولدت زهرية (٢) ذات مفخر    مجنبـــة لؤم القبائـــل مـــاجِـــدَهْ

ومنها أن هاتف سواد بن قارب أنشده أبياتا ثلاث ليال فيها الحث على المجى لرسول الله ﷺ والإيمان به وعظيم مدحه . والجن : هم أولاد إبليس ، كما أن البشر أولاد آدم ، وقيل : الجن أولاد الجان ، فإبليس أبو الشياطين ، والجان أبو الجن ، والقول الأول أقوى (٣) . والهتف : قيل الصوت مطلقا ، وقيل الصوت الخفى ، وقوله =

---

(١) بفتح الحاء ، جبل بمعلاة مكة المكرمة .   (*)   (**) الإسراء : ٤٤

(٢) هى السيدة آمنة أم النبىّ ﷺ .. رضى الله عنها وأرضاها ، وهى من بنى زُهرة : بضم الزاى .

(٣) الأصناف ثلاثة : بنو آدم ، والجن ، والملائكة : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » رواه الإمام أحمد والإمام مسلم ، وليس هناك صنف رابع اسمه الشياطين ، وإنما هم من ذرية إبليس لعنه الله ، ولعن كافرهم معه . والجن أجناس وقبائل كما أن بنى آدم أجناس وقبائل .

عَمُوا وصَمُّوا فَإِعْلانُ البَشائِرِ لَمْ تُسْمَعْ ، وبارِقَةُ الإِنْذارِ لَمْ تُشَمِ (٦٧)

مِنْ بَعْدِ ما أَخْبَرَ الأَقْوامَ كاهِنُهُمْ بِأَنَّ دِينَهُمُ المُعْوَجَّ لَمْ يَقُمِ (٦٨)

---

= « والأنوار ساطعة » أى والأنوار التى خرجت معه ﷺ عند ولادته لامعة ظاهرة ، ففى الحديث عن آمنة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : لما ولدته خرج من فرجى نور أضاء له قصور الشأم ، فولدته نظيفا ما به قذر » وإلى ذلك يشير عمه العباس بقوله :

وأنتَ لمَّا وُلِدْتَ أشرقتْ الـ أرضُ وضاءتْ بنورك الأفقُ

فنحنُ فى ذلك الضياءِ وفى النو رِ و سُبُلِ الرشادِ نَخْتَرِقُ

وقوله « والحق يظهر من معنى ومن كلم » أى والحق الذى هو أمره ﷺ من نبوّته ورسالته يظهر من معنى ، كالأنوار ، ومن كلم كهتف الجن ، ففى ذلك مع قوله « والجن تهتف والأنوار ساطعة » لف ونشر مشوش .

(٦٧) قوله « عموا وصموا إلخ » هذا البيت واقع فى جواب سؤال مقدر ، فكأن شخصا قال له : إذا كان الحق يظهر من معنى ومن كلم ، فما بال الكفار جحدوا نبوّته ﷺ ؟ فأجابه المصنف بأنهم عموا وصموا إلخ فالضمير راجع للكفار ، فلكونهم لم ينتفعوا بما شاهدوه من المعنى ، ولا بما سمعوه من الكلم ، حيث جحدوا نبوّته ﷺ ، مع كون الحق يظهر من معنى ومن كلم ، كأنهم عموا عن مشاهدة المعنى ، كالأنوار ، وصموا عن سماع الكلم كهتف الجن ، ففى ذلك مع قوله « والحق يظهر من معنى ومن كلم » لف ونشر مرتب ، وقوله « فإعلان البشائر لم تسمع » أى فإظهار البشائر به ﷺ كهتف الجن لم تسمع لهم سماع قبول ، وهذا مرتب على قوله « وصموا » وإنما قال : « لم تسمع » بالتاء الفوقية ، لأن المضاف إليه أكسب المضاف التأنيث ، وقوله « وبارقة الإنذار لم تشم » أى ولامعة الإنذار به ﷺ ، أى تخويفهم به ، كالأنوار لم تنظر لهم نظر قبول ، فالمراد بالبارقة : اللامعة ، وهى فى الأصل اسم للسيف اللامع ، يقال بيده بارقة ، أى سيف لامع ، والمراد بقوله « لم تشم » لم تنظر ، يقال شام البرق : نظر إليه ، وهذا مرتب على قوله « عموا » ، ففى ذلك مع قوله « عموا وصموا » لفٌّ ونشر ، معكوس .

(٦٨) قوله « من بعد ما أخبر » إلخ متعلق بقوله « عموا وصموا » وفى ذلك غاية التقبيح بهم ، حيث جحدوا من بعد ما علموا حقيقة الحال من كاهنهم الذى كانوا يصدقونه ويتبعونه فيما يقوله ، و « ما » مصدرية ، فيؤوّل الفعل بعدها بمصدر ، =

وبعْدَ ما عاينَوا فى الأفْقِ مِنْ شُهُبٍ    مُنْقَضَّةٍ وَفْقَ ما فى الأرْضِ مِنْ صَنَمِ (٦٩)

= و « الأقوام » مفعول مقدم ، و « كاهنهم » فاعل مؤخر ، والكاهن من كان له تابع من الجن يخبره بخبر السماء ، لاستراقه السمع ، فيحدثهم بذلك ، لكن يزيد على الكلمة الحق مائة كذبة ، وقوله « بأن دينهم المعوج لم يقم » أى بأن ما هم عليه من الدين المعوج ، لاشتماله على عبادة الأصنام ، لا قيام له ، مع وجوده ﷺ ، والمراد أنه أخبرهم بما يفيد ذلك ، لأنه أخبرهم بأنه يبعث رسول الله ﷺ بذهاب دينهم المعوج .

(٦٩) قوله « وبعد ما عاينوا » إلخ أى ومن بعد ما عاينوا إلخ ، فهو معطوف على بعد ، فى قوله « من بعد ما أخبر » إلخ فيقرأ لفظ بعد بالجر نظرا لذلك ، ويصح قراءته بالنصب نظرا لمحل الجار والمجرور ، و « ما » موصولة بمعنى الذى ، والعائد محذوف ، والتقدير عاينوه أى شاهدوه وأبصروه ، وقوله « فى الأفق » بسكون الفاء ، كما هو لغة فى الأفق بضمها ، والمراد به هنا السماء : لا حقيقته ، التى هى أطراف السماء المماسة للأرض لعدم وجود الشهب فى ذلك ، وقوله « من شهب » بيان لما عاينوه ، والشهب : جمع شهاب [1] وهو شعلة من نار ساطعة ، وليس هو النجم كما قد يتوهم لأنه لا ينقض ولا يسقط ، وقوله « منقضة » أى ساقطة من السماء على الشياطين الذين كانوا يسترقون السمع من الملائكة ليلة ولادته ﷺ ، ولم يكن للكفار عهد بمثل ذلك ، وإن كان لهم به عهد فى الجملة ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السموات كلها ، فلما ولد عيسى عليه السلام مُنعوا من ثلاث سموات بسقوط الشهب عليهم ، ولما وُلد ﷺ زيد فى حراسة السماء ، فمُنعوا من سائرها بسقوط الشهب عليهم بكثرة ، لكن كانوا يقعدون فى مقاعد قريبة من السماء بحيث يسمعون صريف الأقلام أى صوت أقلام الملائكة التى تكتب ما يقع فى العالم . ولما بعث ﷺ منعوا من ذلك بالشهب أيضا ، كما قال الله تعالى حكاية عنهم ﴿ وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ﴾ (*) وقوله : « وفق ما فى الأرض » أى مثل ما فى الأرض فى الانقضاض والسقوط ، لأن أصنام الدنيا أصبحت منكوسة تلك الليلة ، و « ما » موصولة بمعنى الذى ، وقوله « من صنم » بيان لها ، أى من جنس الصنم الصادق بالكثير ، والصنم والوثن بمعنى واحد ، وقيل الصنم ما كان مصورًا والوثن ما كان غير مصوّر ، وقيل الصنم ما كان من حجر ، والوثن ما كان من غيره كنحاس .

(*) سورة الجن : ٩

(١) شهاب : بكسر الشين ، قال فى القاموس : « شهاب ككتاب : شعلة من نار ساطعة » .

حَتَّى غَدا عَنْ طريقِ الوَحْيِ مُنْهَزِمٌ مِـنَ الشَياطِيـنِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمِ (٧٠)
كـأنَّهُـمْ هَـرَبـاً أبطالُ أَبْـرَهَةٍ أَوْ عَسْكَرٌ بالحصَى مِنْ راحَتَيْهِ رُمِي (٧١)

---

(٧٠) قوله « حتى غدا » إلخ أى ولم تزل الشهب تنقض إلى أن غدا إلخ ، فهو غاية لمحذوف ، و « حتى » بمعنى ، إلى وغدا بمعنى صار ، وقوله عن طريق الوحى : متعلق بمنهزم الواقع اسما لغدا ، وطريق الوحى : هو السّماء ، والوحى : الكلام الخفى ، والكتاب والإشارة ، والرسالة ، والإلهام ، إلى غير ذلك ، والمنهزم : الهارب ، وقوله « من الشياطين » بيان لمنهزم مشوب بتبعيض ، وقوله « يقفو إثر منهزم » أى يتبع أثر هارب آخر . وحاصل المعنى ولم تزل الشهب تنقض إلى أن صار هارب من الشياطين عن السماء التى هى طريق الوحى يتبع أثر هارب آخر ، وهلم جرا .

(٧١) قوله « كأنهم هربا » إلخ الضمير للشياطين ، وهربا حال ، أى فى حال كونهم هاربين ، والأبطال جمع بطل ، وهو الشجاع القوى جداً ، وسمى بطلا لبطلان همم الشجعان عند ملاقاته ، أو لأن الدماء تبطل عنده ، فلا يؤخذ بثأرها ؛ وأبرهة بالصرف للضرورة ، وإلا فهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، ومعناه بلسان الحبشة أبيض الوجه ، والمراد به هنا ملك اليمن . والعسكر الجيش كما تقدّم ، والحصى حجارة صغيرة صلبة ، والراحتان : بطنا الكف ، وقوله رمى بالبناء للمجهول : صفة لعسكر ، ويتعلق به كل من قوله بالحصى ، وقوله من راحتيه ، والمقصود تشبيه الشياطين في حال هربهم من الشهب بأبطال أبرهة أو بالعسكر الذى رمى بالحصى من راحتيه ﷺ ، والمصراع الأوّل إشارة إلى قصة أصحاب الفيل ، والمصراع الثانى إشارة إلى غزوة بدر ، على ما رواه البخارى ، من أن رمى الحصى كان فى غزوة بدر ، أو إلى غزوة حنين ، على ما رواه مسلم ، من أن رمى الحصى كان فى غزوة حنين ، ولا مانع من تعدّد الرمى ، وأشار بقوله « رُمِى » بالبناء للمجهول ، إلى أن النبى ﷺ وإن باشر الرمى ظاهراً لكن الرامى حقيقة هو الله ، قال تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ (*) ولما رماه ﷺ فى وجوه الأعداء لم يبق منهم أحد إلا دخل التراب فى عينيه ، وانهزموا جميعا ، فتبعهم المسلمون يأسرونهم ويقتلونهم ، وحاصل قصة أصحاب الفيل أن أبرهة رأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج ، فقال : أين يذهبون ؟ فقيل : يحجون بيت الله بمكة ، قال : وممّ هو ؟ قيل : من الحجارة =

---

(*) سورة الأنفال الآية ١٧ .

نَبْــذاً بِهِ بَعْــدَ تَسْبيــحٍ بِبَطْنِهِما  نَبْذَ المُسَبِّحِ من أحشاءِ مُلْتَقِمِ (٧٢)

= فقال : والمسيح لأبنين لكم بيتا خيراً منه ، فبنى لهم كنيسة [١] من الرخام الأسود والأحمر والأصفر ، وحلاها بالذهب والفضة وأنواع الجواهر ، وأراد صرف الحج إليها ومنع الناس من الذهاب إلى مكة ، فلما اشتهر الخبر عند العرب خرج رجل من كنانة مغضبا ، وتغوّط فيها ، ولطخ قبلتها بالعذرة ، ولحق بأرضه ، فأغضب ذلك أبرهة ، وحلف لينقضن الكعبة حجرا حجراً ، وكتب إلى النجاشي يخبره بذلك وسأله أن يبعث إليه فيله ، فلما قدم إليه الفيل خرج فى ستين ألفا ، فلما بلغ المغمس [٢] { بضم الميم الأولى ، وفتح الغين المعجمة ، وتشديد الميم الثانية مفتوحة أو مكسورة } أمر أبرهة رجلا بالغارة إلى مكة ، فمضى إليها واستاق إبل قريش وغنمهم ، فهموا بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا يطيقون قتاله ، فتركوه ، ثم لما تهيأ أبرهة لدخول مكة برك الفيل ، فضربوه فى رأسه ، ليقوم ، فأبى ، فوجهوه إلى غير مكة ، فقام يهرول ، ثم وجهوه إلى مكة فبرك ، ثم أرسل الله عليهم الطيور الأبابيل ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجر فى منقاره ، والآخران فى رجليه ، فذهبوا هاربين يتساقطون بكل طريق ، وكان الحجر يصيب رأس الرجل ، فيخرج من دبره ومن أسفل مركوبه [٣] ، وإلى هذه القصة أشار سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ إلى آخر السورة .

(٧٢) قوله « نبذا به » إلخ أى نبذه ﷺ نبذا إلخ ، فنبذا مصدر منصوب بفعل محذوف من لفظه أو منصوب بقوله « رمى » فى البيت قبله ، فيكون العامل فيه موافقا له فى المعنى ، كما فى قولك جلست قعودا ، وقوله « به » أى بالحصى ، وهو متعلق بنبذا ، وقوله « بعد تسبيح ببطنهما » أى بعد تسبيح الحصى فى بطن الراحتين الشريفتين بمعنى الكفين ، وظاهر كلام المصنف أن الحصى المرمى به سبح فى كفيه ﷺ ، وكأن الناظم وقف على ذلك ، أو أنه قصد التسبيح الثابت فى غير ذلك ، كما رواه أنس حيث قال : أخذ النبى ﷺ كفا من حصى فسبح فى كفه حتى سمعنا التسبيح ، ثم وضعه فى يد أبى بكر ، فسبح أيضاً ، ثم فى يد عمر فسبح أيضا ، ثم =

(١) هى كنيسة القُلَّيْس بضم القاف وفتح اللام المشددة . قال فى القاموس : وكقُبَّيْط : بيعة بصنعاء ، وبيعة بكسر الباء ، لا بفتحها كما ينطقها الناس .

(٢) قال فى القاموس : والمغمس ، كمعظَّم ومحدَّث عين بطريق الطائف فيه قبر أبى رغال : دليل أبرهة ، ويرجم » . (٣) يعنى من أسفل الدابة التى يركبها .

= فى أيدينا ، فما سبح ، وبذلك اندفع ما اعترض به بعضهم على المصنف ، من أنه لم يثبت أن الحصى الذى رمى به فى يوم بدر أو حنين سبح فى كفه قبل أن يرمى به ، وقوله « نبذ المسبح من أحشاء ملتقم » أى كنبذ المسبح ، الذى هو يونس عليه السلام ، من أحشاء الملتقم له ، والأحشاء ما انضمت عليه الأضلاع ، وقيل : الأمعاء ، والملتقم له هو الحوت ، قال الله تعالى : ﴿ فالتقمه الحوت وهو مُليم ﴾ (*) فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون فنبذناه بالعَراء وهو سقيم أى فابتلعه الحوت وهو آت بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر ، وركوبه السفينة بلا إذن من ربه ، فلولا أنه كان من الذاكرين بقوله كثيرا فى بطن الحوت ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ لصار بطن الحوت له قبرا إلى يوم القيامة ، فألقيناه من بطن الحوت بوجه الأرض بالساحل من يومه ، أو بعد ثلاثة ، أو سبعة أيام ، أو عشرين ، أو أربعين يوما ، وهو عليل كالفرخ الممعط (١) وقال تعالى : ﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ (٢) أى فنادى فى الظلمات الثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، بأن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فى ذهابى من بين قومى من غير إذن ، ومراد المصنف التشبيه به فى أن كلاً أمر خارق للعادة ، وفى كلامه من المحسّنات البديعية الاستتباع ، لأنه بعد أن تكلم على انقضاض الشهب على الشياطين ، وتشبيههم فى حال هربهم بأبطال أبرهة ، أو بالعسكر الذى رمى بالحصى من راحتيه الشريفتين ، استتبع الكلام على تسبيح الحصى بكفيه ﷺ ، وحقيقة الاستتباع أن يضمن كلام سبق لمعنى معنى آخر ، كما فى قول ابن نباتة :

ولا بدَّ لى من جهلة فى وصاله     فمنْ لى بخلٍّ أودعُ الحلمَ عنده

فإنه سيق للإخبار بكونه حليما ، وضمنه الشكاية بأنه ليس فى الإخوان من يصلح لإيداع الحلم عنده .

(٧٣) قوله « جاءت لدعوته الأشجار الخ » أى أتت لطلبه الأشجار إلخ ، فالمجىء : الإتيان ، والدعوة : الطلب ، والأشجار : جمع شجرة ، وقوله « ساجدة » حال من الأشجار ، والمراد بالسجود هنا معناه اللغوى ، وهو الخضوع ، وجملة قوله « تمشى » إلخ إما حال من الأشجار ، فتكون حالا مترادفة ، أو من الضمير فى =

(١) المنتوف الريش .     (*) سورة     (٢) سورة

كأنما سَطَرَتْ سطراً لِما كتبتْ فروعها مِنْ بَديعِ الخَطِّ باللَّقَمِ (٧٤)

= « ساجدة » فتكون حالا متداخلة ، وقوله « على ساق » متعلق بتمشى ، والساق : ما تحت الفروع من الشجرة ، وقوله « بلا قدم » صفة للساق ، أو متعلق بتمشى ، وأشار بذلك لما روى أن أعرابيا سأل النبى ﷺ آية ، فقال له : قل لتلك الشجرة رسول الله يدعوك ، فمالت عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها ، حتى قطعت عروقها ، ثم جاءت تجر عروقها فى الأرض ، فوقفت بين يديه ، وقالت : السلام عليك يا رسول الله قال الأعرابى : مرها فلترجع إلى منبتها ، فأمرها فرجعت ، ودلت عروقها فى منبتها فاستوت فيه [١] . وفى بعض الروايات : فقال الأعرابى ائذن لى أن أسجد لك ، فقال ﷺ « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » [٢] قال : فأذن لى أن أقبل يديك ورجليك ، فأذن له ، وإنما لم يأذن له ﷺ بالسجود إيذانا بأن السجود لا يكون إلا لله ، لأن مكانه من الدين عظيم ، لما فيه من غاية الخضوع ، ومن ذلك ما رواه مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ ذهب يقضى حاجة الإنسان فنظر فلم يجد شيئا يستتر به ، وإذا بشجرتين بشاطىء الوادى ، فانطلق إلى إحداهما فأخذ ببعض أغصانها فقال : انقادى معى بإذن الله ، فانقادت معه حتى أتى الشجرة الأخرى ، فأخذ ببعض أغصانها ، فقال : انقادى معى بإذن الله ، فانقادت معه ، حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأم بينهما ، وقال لهما : التئما علىّ بإذن الله ، فالتأمتا ، ثم بعد انقضاء حاجته افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق .

(٧٤) قوله « كأنما سطرت » إلخ هذا البيت لبيان اعتدالها فى مشيها القويم وسلوكها السنن المستقيم ، والمعنى : كأنما سطرت تلك الأشجار فى حال مشيها سطرا للذى كتبته فروعها ، وهو الخط البديع ، أى الذى لم يعهد مثله ، المرسوم فى اللقم ، =

(١) القصة بطولها ورمتها فى كتاب « الشفاء » للقاضى عياض رحمه الله تعالى فى فصل المعجزات .

(٢) وقوله ﷺ : « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد » إلى آخر الحديث رواه بريدة فى هذه القصة ، وروته السيدة عائشة رضى الله عنها أيضاً ولفظه : « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولو أن رجلا أمر امرأة أن تنتقل من جبل أحمر إلى جبل أسود ، أو من جبل أسود إلى جبل أحمر لكان نَوْلُها أن تفعل » .

{ رواه ابن ماجه عن السيدة عائشة رضى الله عنها }

مثلَ الغَمامةِ أنّى سارَ سائرةً تَقيهِ حَرَّ وَطيسٍ للهَجيرِ حَمِى (٧٥)

= بفتح اللام والقاف ، أى وسط الطريق لكونها مشت مشى استقامة ، فلما لم يكن فى مشيها ميل ولا عوج شبه مشيها على ذلك الوجه بتسطير الكاتب سطرا مستقيما ليكتب عليه ، وعُلِمَ من ذلك أن « ما » فى قوله لما كتبت موصولة ، والعائد محذوف و « من » للبيان والإضافة فى قوله « بديع الخط » من إضافة الصفة للموصوف ، وقد شبه أثر فروعها فى الأرض المفيد للمعتبر ، كالأعرابى السابق ، بالخط الدال على اللفظ المفيد للمتدبر للمعانى على طريق التصريح .

(٧٥) قوله « مثل الغمامة » إلخ أى هى مثل الغمامة إلخ فهو بالرفع خبر لمبتدأ محذوف ، ويصح قراءته بالنصب على أنه حال من الأشجار ، أى حال كونها مثل الغمامة إلخ ، والمراد أنها مثلها فى الانقياد له ﷺ معجزة وآية لرد المعارض ، فقد انقاد له عليه الصلاة والسلام الأعالى والأسافل ، فالأشجار من الأسافل ، والغمامة من الأعالى ، لأنها السحابة ، وقوله « أنى سار سائرة » أى فى أى موضع سار هى سائرة ، أو كيف سار هى سائرة ، فأنىّ بمعنى فى أى موضع ، أو بمعنى كيف ، وعلى كل فسائرة بالرفع خبر لمبتدأ محذوف ، ويصح نصبه على أنه حال من الغمامة ، وجملة قوله « تقيه » إلخ خبر ثان على الأول ، وحال ثانية على الثانى ، وقوله «حر وطيس » أى حر الشمس الشبيهة بالوطيس فى الحرارة ، فالوطيس فى كلام المصنف مستعارة للشمس ، على طريق الاستعارة التصريحية ، وإن كان فى الأصل هو « التنور » . وقوله « للهجير » أى عند الهجير ، فاللام بمعنى « عند » وهو ظرف لحر وطيس ، أو لقوله تقيه ، والهجير والهاجرة بمعنى واحد ، وهو وسط النهار إذا كان حارا . وقوله « حمى » يصح جعله فعلا ماضيا فتكون الجملة صفة لوطيس ، أو فى موضع الحال من الهجير ، أى حال كونه قد حمى ، وتكون حالا مؤكدة لما علمت من معنى الهجير ، ويصح جعله اسم فاعل بمعنى حام ، فيكون نعتاً للوطيس ، أو للهجير ويكون وصفا كاشفا ، وهذا البيت إشارة إلى ما روى من أنّ أبا طالب خرج إلى الشأم ومعه النبى ﷺ فى أشياخ من قريش ، إلى أن أشرفوا على بَحيرا (١) الراهب ، وكان فى صومعته ، فنزلوا عنده وحطوا رحالهم ، وكانوا يمرون به قبل ذلك فلا يخرج إليهم ، وفى هذه المرة خرج إليهم ، وجعل يتخللهم حتى جاء للنبى ﷺ فقال : هذا سيد العالمين =

(١) بفتح الباء ، وكسر الحاء .

أَقْسَمْتُ بالقَمَرِ المُنْشَقِّ إنَّ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرورَةَ القَسَمِ (٧٦)

= هذا رسول الله الذى يبعثه رحمة للعالمين ، فقال له أشياخ قريش : وما أعلمك بهذا ؟ فقال : إنكم من حين أشرفتم من مكة والغمامة تظلله فوق رأسه ، ولم يبق حجر ولا شجر إلاَّ خرَّ له ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبى ، وإنى لأعرفه بخاتم النبوة ، ثم رجع فصنع لهم طعاما ، فلما أتاهم به كان ﷺ فى رعاة الإبل ، فأرسلوا له ، فأقبل وعليه غمامة تظلله ، فلما جلس - وكانوا قد سبقوه إلى فىء الشجرة - مالت عليه ، فقال : انظروا إلى فىء الشجر مال إليه » (١) .

(٧٦) قوله « أقسمت بالقمر » إلخ أى أقسمت برب القمر إلخ ، لأن أهل الشرع يمنعون الحلف بغير الله تعالى ، وإن جرت عليه عادة الأدباء (٢) ، لكن محل المنع فى حقنا ، وأما فى حقه تعالى فله أن يحلف بما شاء من مخلوقاته ، لأنها من آثاره ، قال تعالى : ﴿ والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ﴾ (٣) الآية ، وإنما عبر بالماضى دون المضارع إشارة إلى أن اعتقاده مطوى عليه منذ عقل ، وقوله « المنشق » أى الذى انشق آية له ﷺ ، لأن أهل مكة سألوه آية فأراهم انشقاق القمر فلقتين ، فكانت فلقة فوق الجبل وفلقة دونه ، فقال رسول الله ﷺ « اشهدوا » فقال كفار قريش : قد سحرنا محمد ، فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى يظهر هل رأوا مثل هذا ، فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقا ، فقال كفار قريش : هذا سحر مستمر ، فنزل قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يُعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ (٤) وجملة قوله « أن له » إلخ جواب القسم ، والضمير الأوّل للقمر المنشق ، والضمير الثانى للنبي ﷺ ، وقوله « من قلبه » متعلق بنسبة ، وقدمه عليها للاهتمام ، و « من » بمعنى الباء ، والمراد بالنسبة المناسبة والمشابهة فى الانشقاق ، أما انشقاق القمر فقد =

(١) وبهذا يكون هذا الراهب قد أسلم .

(٢) وأيضاً لأن حذف ما يعلم جائز لغة ، وإنما حذفت ليستقيم وزن البيت ، وأتى بلفظ « القمر » ليتكلم عن انشقاقه بقوله المنشق » والله تعالى أعلم .

(٣) سورة الشمس الآية ٣ .

(٤) القمر الآية : ١ - ٢ . وانشقاق القمر له ﷺ لا يعارض فيه إلا مكابر ، لأن الحديث مروى فى أغلب كتب الحديث ، وأولها البخارى كما ذكر ذلك صاحب « الشفاء » ، والقرآن صريح فى ذلك .

وما حَوَى الغارُ مِنْ خَيْرٍ ومِنْ كَرَمٍ وكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الكُفَّارِ عَنْهُ عَمِى (٧٧)

= علمته ، وأما انشقاق قلبه الشريف فقد وقع أربع مرات ، وقد جمعها بعضهم فى قوله :

وشُقّ صدرُ المصطفى وهو فى دار بنــى سعدٍ بــلا مرية

كشقه وهو ابن عشر ، ثم فى ليلة معراج ، وعند البعثة

وزيد خامسة عند عشرين سنة ، لكنها لم تثبت ، وقوله « مبرورة القسم » أى أن القسم عليها مبرور فيه ، يقال برّ فى يمينه إذا صدق فيها ، والمتبادَر أنه صفة للنسبة لكن جعلوه صفة لموصوف محذوف دل عليه السياق ، والتقدير يمينا مبرورة القسم ، وفيه شىء ، لأن اليمين بمعنى القسم فيصير التقدير قسما مبرور القسم ، ولا يخلو عن ركة ، إلا أن يقال : إنه من باب الإظهار فى مقام الإضمار ، وقد علمتَ ما فيه الغنية عن ذلك .

(٧٧) قوله « وما حوى الغار » إلخ أى واذكر ما حوى الغار إلخ ، أو وأقسمت بما حوى الغار ، إلخ . وعلى الثانى فجواب القسم معلوم مما قبله ، والغار ثقب فى الجبل ، وكان فى جبل ثور بأسفل مكة ، وقوله « من خير ومن كرم » بيان لما حوى الغار ، وظاهره أن المراد نفس الصفتين من غير تقدير مضاف ، وعليه فما باقية على معناها كما ذكره بعضهم ، والأظهر جعله على حذف مضاف ، أى من ذى خير ، ومن ذى كرم ، وعلى هذا فما بمعنى « من » لأن ما لغير العاقل . ومن للعاقل (١) ، والمراد بالخير الأخلاق الحميدة ، وبالكرم الجود ، فهما متغايران تغاير الأعم والأخص ، وكل منهما لكل من النبى ﷺ ومن أبى بكر ، ويحتمل أن الأول للنبى ﷺ ، والثانى لأبى بكر ، وعلى هذا فإنما خصَّه بالكرم لأنه آثر رسولَ الله ﷺ بنفْسِه وماله ، ولذلك لما أتيا إلى الغار تقدم أبو بكر فى الدخول لاحتمال أن يكون فيه ما يؤذى ، فيتلقاه عن رسول الله ﷺ ، فلم يجد شيئا ، فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه فى حجر أبى بكر ، وكان هناك جحر فيه حيات وأفاعى ، فخشى أبو بكر أن يخرج منه شىء يؤذى النبى ﷺ فألقمه قدمه ، فجعلت الحيات والأفاعى تضربنه وتلسعنه ، ولم يتحرك مخافة أن يوقظ النبى ﷺ ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ ، فقال : يا أبا بكر =

(١) وقد يأتى العكس ، على قِلة .

فالصِّدْقُ فى الغارِ والصدِّيقُ لَمْ يَرِما    وهُمْ يَقولونَ ما بالغارِ من أرِمِ (٧٨)

= ما يبكيك ؟ قال : لُدِغْتُ ، فتفل عليه رسول الله ﷺ فذهب ما يجده ، لكنه كان يعاوده ذلك حتى كان سبب موته على المشهور ، وفى بعض التواريخ أنه مات بسم آخر ، لأنه أكل مرة مع أعرابى ، فقال له الأعرابى : ارفع يدك يا خليفة رسول الله ، فإن هذا الطعام فيه سم سنة ، وأنا وأنت نموت فى يوم واحد . وكان كذلك (١) .

وقوله « وكل طرف » إلخ أى والحال أن كل طرف إلخ ، فالواو للحال ، والطرف بسكون الراء هو البصر ، وقوله « عنه » أى عن ما حوى الغار ، وقوله « عمى » يحتمل جعله فعلا ، وجعله اسما ، وقد لبث النبى وأبو بكر فى الغار ثلاث ليال ، وجاء الكفار حوالَىْ الغار ينظرون ، فأعماهم الله تعالى . قال أبو بكر : نظرت إلى أقدامهم فوق رؤسنا ، فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا ، فقال : ما ظنك باثنينِ الله ثالثهما ، وفى التنزيل ﴿ ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ (٢) .

(٧٨) قوله « فالصدق » إلخ أى فذو الصدق إلخ فهو على حذف مضاف ، أو يؤول الصدق بالصادق ، أو يجعل من باب المبالغة ، وقوله « والصديق » : أى فى الغار ، ففيه الحذف من الثانى لدلالة الأول ، وقوله « لم يرما بكسر الراء » أى لم يبرحا ، وأصله يريما ، حذفت منه الياء تبعا لحذفها فى إسناده إلى المفرد كما فى قولك زيد لم يرم ، فإن أصله يريم ، حذفت منه الياء مع الجازم لالتقاء الساكنين ، وقوله « وهم يقولون » أى والحال أنهم يقولون إلخ ، والضمير راجع للكفار المعلومين من السياق ، وجملة قوله « ما بالغار من أرم » مقول القول ، وأرم بفتح الهمزة وكسر الراء بمعنى أحد ، وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور قبله ، و « من » زائدة ، وإنما قالوا ذلك لكونهم رأوا حوم الحمام حول الغار ، ونسج العنكبوت على فمه ، فظنوا أنهما ليسا فيه كما أشار إليه الناظم بالبيت بعد هذا ، وذلك أنه تقدم رجل منهم فنظر حمامتين على فم الغار ، فقال : ليس فى الغار شىء ، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أنه ليس فيه أحد ، فقال رجل آخر : ادخلوا الغار ، فقال أمية بن خلف : وما أربكم بالغار ؟ ( أى وما حاجتكم به ) إن فيه لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد .

(١) هو طبيب العرب : الحارث بن كَلَدةَ .    (٢) التوبة : ٤٠ .

| | |
|---|---|
| ظَنُّوا الحَمامَ وَظَنُّوا العَنكبوتَ عَلَى | خَيْــرِ البَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحُمِ (٧٩) |
| وِقـــايةُ اللّهِ أغْنَتْ عَـــنْ مُضاعَفَةٍ | مِنَ الدروعِ وَعَنْ عالٍ مِنَ الأُطُمِ (٨٠) |
| ما ضامَنِى الدهْرُ يوماً واستَجَرْتُ بِهِ | إلاّ ونِلْتُ جِـواراً مِنهُ لَمْ يُضَمِ (٨١) |

(٧٩) قوله « ظنوا الحمام » إلخ هذا البيت كالتعليل لما قبله ، كما علمت . وقوله « على خير البرية » متعلق بقوله « لم تنسج » أو بقوله « لم تحم » ، وفى كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأوّل ، أو بالعكس ، وقوله « لم تنسج » بكسر السين وضمها راجع للعنكبوت ، وقوله « ولم تحم » بضم الحاء راجع للحمام ففيه لف ونشر مشوش ، وسبب ظنهم ذلك أن هذين الحيوانين متى أحسا بالإنسان فرّا منه ، ولم يعلموا أن اللّه تعالى يحفظ من شاء من عباده بما شاء من خلقه .

(٨٠) قوله « وقاية اللّه » إلخ أى حفظ اللّه لهما من الكفار أغناهما عن مضاعفة من الدروع بأن يلبس الشخص درعا فوق درع للحفظ من العدو ، أو أن تنسج الدرع حلقتين ، وتلبس للحفظ من العدو ، فالمراد بالمضاعفة من الدروع أن يلبس الشخص درعا فوق درع ، وقيل : أن تنسج الدرع حلقتين ، وقوله « وعن عال من الأطم » أى : وأغنت عن عال من الحصون ، التى يتحصن فيها من العدوّ ، فالأطم بضم الهمزة والطاء بمعنى الحصون . جمع اطمة ، وهى الحصن وفى هذا البيت اشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره اللّه إذ أخرجه الذين كفروا ﴾ (*) الآية .

(٨١) قوله « ما ضامنى الدهر يوما » إلخ هكذا فى بعض النسخ ، وفى بعضها « ما سامنى الدهر ضيماً » إلخ ، والمعنى على الأوّل ما ظلمنى الدهر فى يوم إلخ ، وعلى الثانى : ما أرادنى وقصدنى الدهر بظلم إلخ ، وعلى كل فلا بدّ من تقدير مضاف أى أهل الدهر ، وإلا فالدهر لا يظلم ولا يريد الظلم ، وإن جرت عادة العرب بنسبة الظلم إليه لوقوعه فيه ، وقوله « واستجرت به » أى طلبت منه أن يجيرنى من ذلك ، فالسين والتاء للطلب ، وقوله « إلا ونلت جوارا منه » أى إلا وأعطيت جوارا بكسر الجيم وضمها أى حِمى وحفظا من الرسول ، وقوله « لم يُضم » بالبناء للمجهول أى لم يحتقر ، بل يحترم .

قوله « ما ضامنى إلخ » هو والذى بعده فائدتهما أن من كان مسجونا أو خائفا من سلطان ، وداوم على قراءتهما سبع عشرة مرة بعد كل صلاة ، فإن اللّه يفرج عنه همه ويجعل له من أمره مخرجا .

(*) سورة التوبة الآية ٤٠

ولا الْتَمَسْتُ غنَى الدارَيْنِ مِنْ يَدِهِ    إلاَّ اسْتَلَمْتُ النَدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ (٨٢)
لا تُنْكِرِ الوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاهُ ، إنَّ لَهُ    قَلْباً إذا نامَتِ العَيْنانِ لَمْ يَنَمِ (٨٣)

---

(٨٢) قوله « ولا التمست » إلخ معطوف على قوله « ما ضامنى الدهر » إلخ ، والالتماس عند بعضهم اسم للطلب من المساوى ، والمراد منه هنا الطلب بخضوع (١) وذلة . وقوله « غنى الدارين » أى دارى الدنيا والآخرة ، والغنى فى الأولى بالكفاية ، وفى الثانية بالسلامة من العذاب ، وقوله « من يده » أى من نعمته ، فالمراد من اليد هنا النعمة ، وقيل : المراد منها الذات الكريمة ، وقوله « إلا استلمت » أى إلا أخذت فالمراد بالاستلام هنا الأخذ ، كما فى قولهم استلمت معروفه ، على سبيل التجوز لأنه فى الأصل اللمس باليد أو الفم ، كما فى قولهم « استلمت الحجر » ، وقوله « الندى » بفتح النون مع القصر هو العطاء والكرم ، وقوله « من خير مستلم » بفتح اللام ، أى من خير مستلَم منه ، فصلته محذوفة والمستلم منه هو المأخوذ منه ، وإنما كان ﷺ خير مستلم منه لأنه لا يردّ سائله ، وبيده خير الدنيا والآخرة (٢) . فإن قيل اخباره عن نيل غنى الدنيا منه ﷺ صحيح ، لأنه مشاهد فى الحس ، بخلاف إخباره عن نيل غنى الآخرة منه ﷺ ، فإنه غير مشاهد فى الحس ، فكيف يصح إخباره عنه ؟ أجيب بأنه مشاهد بقوّة يقين الإيمان . وفى هذا البيت والذى قبله براعة المطلب ، وهى كما قاله الزنجانى فى كتاب « المعيار » أن يلوّح بالطلب بألفاظ عذبة خالية عن الإجحاف ، مقترنة بتعظيم الممدوح ، تشعر بما فى النفس دون كشفه .

وقيود هذا الحد كلها موجودة فى هذين البيتين .

(٨٣) قوله « لا تنكر الوحى » إلخ هذا شروع فى مبدأ الوحى ، وقوله « من رؤياه » حال من الوحى ، ومن للابتداء ، أى لا تنكر الوحى حال كونه مبتدأ من رؤياه فى النوم ، فإن بدء الوحى كان بالرؤيا الصالحة فى النوم ، وكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وقوله « إن له قلبا » إلخ تعليل لما قبله ، أى إن له ﷺ =

---

(١) والمراد أنه استشفع بالنبىّ ﷺ فى غنى الدارين .

(٢) وقد سبق قول حسان رضى الله عنه له ﷺ :

له راحة لو أن معشار جودها    على البرّ كان البر أندى من البحر
له هِمَمٌ لا منتهى لكبارها    وهمّته الصغرى أجلُّ من الدهر .

وَذَاكَ حِينَ بُلوغٍ مِنْ نُبُوَّتِهِ فَلَيْسَ يُنكَرُ فيهِ حالُ مُحْتَلِمِ (٨٤)

= قلبا له اليقظة الدائمة حتى إذا نامت عيناه الشريفتان لم ينم قلبه ، لأنه مهبط الوحى ، وقد شق وطهر من التعلق بغير الله ، وملئ حكمة وإيمانا فصارت اليقظة الدائمة من صفاته ، فحسن أن يخاطب ويتعلق به الوحى ، وقد ورد فى الصحيحين : إن عينىَّ تنامان ولا ينام قلبى ، لا يقال : يشكل على ذلك أن النبى ﷺ نام مع أصحابه فى الوادى فلم يوقظهم إلا حر الشمس [1] لأنا نقول : نظر القلب إنما هو فيما غاب عن الشاهد ، ومشاهدة طلوع الشمس من وظيفة العين ، وقد كانت أخذت حظها من النوم .

وهذا البيت والذى بعده فائدتهما الخفة من المرض ، من كتبهما فى صحيفة فخار ومحاهما بشراب العرق سوس ، وشربهما على الريق ، فإنه يخف بإذن الله تعالى .

(٨٤) قوله « وذاك » إلخ لما كان البيت المتقدم يوهم أن الوحى من رؤياه فى النوم الدائم ، دفع ذلك بقوله وذاك إلخ ، واسم الإشارة راجع للوحى من رؤياه فى النوم ، وقوله « حين بلوغ من نبوّته أى حين وصول إلى نبوّته ، فالبلوغ بمعنى الوصول ، و« من » بمعنى « إلى » ، والمعنى والوحى من رؤياه فى النوم كائن ، وحاصل حين الوصول إلى نبوّته ، وحكمة ذلك الاستئناس بملاقاة الملك فى النوم ليطيق ذلك فى اليقظة بعد ، إذ لو جاء فى اليقظة ابتداء لأمكن أن لا يطيق ملاقاته ، فلما استأنس بذلك أتاه فى اليقظة . وقوله « فليس » إلخ تفريع على قوله « وذاك حين بلوغ » إلخ ، و« ينكر » بالبناء للمفعول ، و « حال محتلم » نائب فاعل ، والضمير من قوله « فيه » للحين المذكور ، وفى بعض النسخ « منه » بدل « فيه » والضمير عليه للنبى ﷺ ، والمراد بحال المحتلم : الوحى من رؤياه فى النوم . لأن المحتلم هو النائم ، وحاله ما يراه فى نومه ، والحاصل أن ذلك إنما كان فى ابتداء النبوة ، وقد نُبِّىء على رأس أربعين سنة ، وذلك حدّ مبدأ النبوة ، وإذا كان كذلك فلا ينكر الوحى من رؤياه حينئذ ، وإن كانت مرتبته ﷺ أعلى المراتب ، وكان مقتضى ذلك أن لا يكون الوحى إليه فى النوم ، لأن الوحى فى النوم أدنى من الوحى فى اليقظة .

---

(١) وهناك علة أخرى ، وهى إنما أنامهم الله تعالى إلى إيقاظ حر الشمس فتنزل حكم الصلاة بعد الشمس إذا نام المسلم إلى هذا الوقت » فالإنامة هنا للتشريع وليست هى طبيعته ﷺ . والله تعالى أعلم .

تَبارَكَ اللّهُ ما وَحْىٌ بِمُكْتَسَبٍ ولا نَبِىٌّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَّهَمِ (٨٥)

(٨٥) قوله « تبارك الله إلخ » هذا البيت استدلال على ما قبله ، ومعنى تبارك الله : تنزه الله وتعالى وارتفع عما يقوله الكافرون علوا كبيرا ، وقوله « ما وحى بمكتسب » أى ليس وحى ، وإن قلّ ، بمكتسب لأحد بسعيه فيه ، بأن يحصله بأسباب ، لأن اكتساب الشيء تحصيله بأسبابه ، التى جرت العادة الغالبة بحصوله عقبها ، وإذا لم يكن مكتسبا ، بل بتخصيص الله به من يشاء من عباده ، فلا ينكر وقوعه فى الرؤيا ، كما لا ينكر وقوعه فى اليقظة ، فإنّ فعل الفاعل المختار لا يختص بحالة دون الأخرى ، فالذى عليه أهل الحق أن الوحى ليس مكتسبا ، خلافا لزاعمى ذلك ، وهم الفلاسفة ، فإنهم زعموا أنه مكتسب بالخلوة والرياضة ، وهو كفر صراح ، فيجب الإيمان بأن ذلك بمحض فضل الله ، قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (١) ومثل الوحى الولاية ، فليست مكتسبة أيضاً ، بل بفضل الله يؤتيه من يشاء (٢) وقوله « ولا نبى على غيب بمتهم » أى ولا نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمتهم على إخبار غيب أى على الإخبار بأمر غائب ، فهو على تقدير مضاف ، والغيب بمعنى الغائب ، وهو صفة لموصوف محذوف ، وإنما لم يكن النبى متهما على الإخبار بالغيب ، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكذب ، كسائر المعاصى ، ولا يرد قوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ (*) وقوله تعالى : ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ (**) ونحو ذلك ، لأن ما يقع منهم من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين » (٣) فإن المقرب أعلى درجة من البار ، فإذا فعل البار حسنة يراها =

(١) الأنعام : ١٢٤ ، وقوله جل وعلا ﴿ يجعل ﴾ قاض بأنها غير مكتسبة ، وإنما هى جَعْلٌ من الله تعالى وتخصيص لشخص معين لا يصلح غيره .

(٢) لا شك أن الولاية من فضل الله تعالى ، ولكن قد يتفضل الله سبحانه على عبد بالهبة ، فيهبه الولاية ، وقد يتفضل على عبد بأن يلهمه سلوك طريق الولاية ، فلا ينالها إلاّ بعد جهد ومشقه وعناء ، والكل هبة تكريم من الله تعالى للعبد المفاض عليه ، ونسأل الله سبحانه أن يلهمنا حسن الأدب معه ومع رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً .

(٣) أى أن الحسنة عند البار ، هى نفسها سيئة عند المقرب ، ولنضرب لك مثلا : إذا كان عندك ولدان أحدهما أقل من الآخر فى سلوكه ، والآخر أعلى وأفضل ، فلو أن الأقل فعل حسنة ، لكانت بالنسبة له سيئة لأن مقامه أعلى ، هذا هو معنى « حسنات الأبرار سيئات المقربين » إذ الكل حسن ، ولكنه يختلف باختلاف منزلة الشخص .

وقد ضربت لك هذا للتقريب والله سبحانه يقبل من الجميع ، ولكن المقرب نفسه هو الذى يلوم نفسه على فعل ، هو أقل . والله تعالى أعلم بالمراد .

(*) سورة الفتح الآية ٢ (**) سورة الشرح الآية ٢

....................................................

= المقرب سيئة ، ومثّلوا ذلك بما إذا تصدق البار برغيف ، وأبقى عنده رغيفا آخر ، فإن هذا حسنة عنده ، لكن يراها المقرب سيئة ، لكون الأولى عنده أن يتصدق بالرغيفين معاً ، وفى ذلك إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بظنين ﴾ (١) أى بمتهم ، وإلى قوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ (٢) والحاصل : أن الأنبياء معصومون من الكبائر وصغائر الخسة بإجماع ، ومن صغائر غير الخسة على ما عليه المحققون ، والراجح أنهم معصومون منها قبل النبوة وبعدها خلافا لمن جوّزها عليهم قبل النبوة ، ولما وقع منهم محامل .

فأما قصة آدم ، وهى أنه أكل من الشجرة ، وقد نهاه الله عنها ، فمحمولة على أنه تأوّل النهى ، مع أنه وإن كان منهيا ظاهراً هو مأمور باطنا لحكمة يعلمها الله تعالى (٣) ، فهى معصية لا كالمعاصى .

وأما قول إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام – هذا ربى – فقد ذكره مجاراة لهم ، أى هذا ربى بزعمكم ، وغرضه بذلك التوصل لبطلانه بلزوم المحال ، ولذلك قال : « فلما أفل قال لا أحب الآفلين » فكأنه قال : لو كان ربا لما أفل ، لكنه أفل ، فليس برب (٤) . =

---

(١) التكوير : ٢٤ ، وما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى بالظاء هو أحد القراءات وأشهرها بالضاد .

(٢) النجم : ٣ و ٤

(٣) ولا تأخذنا في هذا دوامة الفكر الخبيث الذى اصطنعه الفلاسفة ومن نحا نحوهم من أبالسة الخلق ، إذ أن آدم لو لم يأكل من الشجرة ما خرج من الجنة ، ولو لم يخرج منها لما كان له ذرية ، لأن الجنة لا توالد فيها ، وكل ذلك لحكمة يعلمها الله ، وليس لنا أن نخوض فيها إلاّ بالأدب اللازم فى حق أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(٤) لأن سيدنا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه استدرجهم وأخبرهم بهذا الأسلوب أن هذه الكواكب تأفل أى تغيب والذى يغيب تاره ويشرق أخرى لا بد له من محرك يحركه ، وألزمهم الحجة حيث قال تعالى بعد كلامه الذى حكاه الله تعالى فى سورة الأنعام الآيات : ٧٥ – ٧٩ ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ فألزمهم الحجة ، ولكنهم مع ذلك جادلوه عناداً واستكباراً فى الأرض وعتوا .

= وأما ما صدر من إخوة يوسف عليهم الصلاة والسلام ، فلا يرد لأنه قد اختلف في نبوتهم ، فعلى القول بعدم نبوتهم لا إشكال ، وعلى القول بنبوتهم فيؤوّل ما صدر منهم بما أوّلت به قصة آدم ، وأما همّ يوسف بزليخا فهو أمر جبليّ لا اختيارى حتى يكون مذموماً ، والرغبة فى النساء محمودة ، إذ عدمها يدل على العُنّة ، وهى نقيصة ، ولما هم يوسف بمقتضى الجبلة امتنع لكونه رأى برهان ربه ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ [1] . وأما قصة داود عليه الصلاة والسلام ، وهى أنه خطر بباله أنه إن مات وزيره فى الحرب تزوّج بزوجته ، لما علم من حسنها ، فأرسل الله إليه ملكين فى صورة رجلين اختصما إليه إلى آخر القصة المذكورة فى سورة ص ، فلا ترد أيضاً لأن ما وقع منه ليس معصية ، لكنه غير لائق بمقامه ، ولذلك عوتب عليه ، وبكى حتى نبت العشب من دموعه ، وذكر بعض المفسرين أن جماعة من الناس حقيقة تسوّروا قصره ليقتلوه فلما رآهم خاف كما قال الله تعالى : ﴿ ففزع منهم ﴾ (*) وإنما خاف لما تقرر فى العرف من أنه لا يتسور دور الملوك من غير إذنهم إلاّ ذو ريبة ، فلما رأوه مستيقظا خافوا من فعلهم ، واخترعوا خصومة لا أصل لها ، زعماً منهم إنما قصدوه لأجلها دون ما توهمه ، ثم ادّعى واحد منهم على الآخر ، كما أخبر الله تعالى ، فقال داود فى الجواب : ﴿ لقد ظلمك بسؤال نعجتك ﴾ (*) إلخ ، وحمل الآية على هذه القصة أولى ، لأن الملائكة لا يظلم بعضهم بعضا ، فيكون =

---

(١) هذا الذى قاله الشيخ رحمه الله تعالى ليس الصحيح ، لأن الهمّ منه لم يكن لما يظن بعض الناس ، وإنما لدفعها عن نفسه ، وذلك لما راودته عن نفسه فقال – معاذ الله – عرفت منه أنه لا يقبل على الحرام ، فهمت هى أيضاً لإهانته ، وأما أمر الزنا فقد عرفت تماما أنه لا يفعله ، وقوله تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ قاض فى ذلك ، لأن الواو تفيد المغايرة ، فالسوء شيء والفحشاء : الزنا . وصرف الله تعالى عنه هذا وذاك ، وقوله ﴿ إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ يقول لها إن هذا الرجل ربانى فى بيته ، فكيف أخونه فى عرضه ، هذا ظلم له – إنه لا يفلح الظالمون – والخوض فى أعراض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مزلة إلى الكفر . والعياذ بالله . (*)

كَمْ أبرأتْ وَصِباً باللّمْسِ راحَتُهُ وأطلقَتْ أرِباً مِنْ رِبْقَةِ اللّمَمِ (٨٦)

= كلامهم كذبا ، ويستحيل صدور الكذب من الملائكة [١] أ هـ . من القسطلانى ببعض تغيير واختصار .

وهذا البيت ، والذى بعده ، فائدتهما الكتابة للمصروع بين عينيه ، والكتابة فى خرقة زرقاء وتُجعل فتيلة ، ويحرق طرفها بالنار ، وتجعل تحت أنف المصروع ، فمتى حصل الدخان فى أنف المصروع صاح ، فيخرج صارخا ، ويُمحى الذى بين عينيه ، فيذهب الصارع ، ولا يعود أبدا . وإذا خرج العارض فاكتب البيتين حرزاً مع شيء من القرآن ، وعلقهما على المصاب ، فإنك ترى العجب .

(٨٦) قوله « كم أبرأت » إلخ أى كثيرا من المرات أبرأت إلخ ، فكم خبرية بمعنى كثيرا ، ومميزها محذوف ، وقوله « وصبا » بكسر الصاد ، أى مريضا ، ويجوز فتح الصاد ، أى مرضا ، لكن على تقدير مضاف ، أى ذا مرض ، والأول أولى ، وهو مفعول لأبرأت ، وجعله بعضهم تمييزاً لكم ، وجعل مفعول أبرأت محذوفا ، وقوله «باللمس » أى بسبب اللمس ، وقوله « راحته » فاعل بأبرأت ، وأشار بذلك إلى ما روى من أن عين قتادة أصيبت يوم أحد ، ووقعت على وجنته ، فأتى رسولَ الله ﷺ وقال له : إن لى امرأة أحبها ، وأخشى أنها إن رأتنى على هذه الحالة قذرتنى ، وارتفع حبى من قلبها ، فأخذ النبى ﷺ عينه بيده ، وردها إلى موضعها وقال : اللهم أكسبها جمالا ، فكانت أحسن عينيه . ومن أن محمد بن حاطب احترقت يده بالنار ، فجاء للنبى ﷺ فمسح عليها فبرأت من ساعتها . ومن أن شرحبيل الجعفى كانت بكفه سلعة [٢] تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة ، فشكاها للنبى ﷺ ، فما زال يطحها بكفه حتى لم يبق لها أثر ، وغير ذلك من وقائع كثيرة . وقوله « وأطلقت » =

---

(١) قول الله تعالى : ﴿ هل أتاك نبأ الخصم إذ تسوَّروا المحراب ﴾ القرآن واضح فى أنهم كانوا خصماء ، وتسوُّرهم المحراب ، لأنه كان فى يوم عبادته ، ولو رجعنا إلى قوله تعالى : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾ لعرفنا أن الله تبارك وتعالى لما جعله ملكا على بنى إسرائيل : علمه طريقة الحكم ، إذ ليس له أن يأخذ بكلام خصم دون الآخر فلربما كان الآخر مظلوماً لا ظالما ، لما قال له ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ﴾ كانت هذه الآية قاعدة من قواعد الحكم إلى أبد الدهر ، ومن المعروف أن كثيراً من المفسرين حَشا تفسيره من كلام اليهود ، ولكن على سبيل الحكاية لا العقيدة . إلا من شذ منهم .

(٢) السلعة : الشقة .

وأحيَتْ السَّنَةُ الشَّهْباءُ دَعْوَتُهُ حَتَى حَكَتْ غُرَّةً فى الأعْصُرِ الدُهُم (٨٧)

= أى وحلت راحته ، وقوله « أربا » بفتح الهمزة وكسر الراء بوزن فرحا ، أى ذا أرب وحاجة ، وهى أعم من أن تكون عطاء أو شفاء أو خلوصا من إثم ، وبعضهم ضبطه بضم الهمزة وفتح الراء ، وفسره بالعقد ، وقوله « من ربقة اللمم » أى من عقدة الجنون ، فالربقة بكسر الراء وسكون الموحدة : العقدة ، واللمم بفتح اللام الجنون ويصح تفسيره بالذنوب والمعاصى ، وفى الكلام استعارة تصريحية حيث شبه تعلق الجنون أو الذنوب والمعاصى بالإنسان بالحبل الذى فيه عرى تربط فيها أعناق الغنم ، لئلا تذهب ، واستعير لفظ المشبه به ، وهو الربقة للمشبه ، وأشار بذلك إلى ما روى من أن امرأة أتت للنبى ﷺ بابن لها به جنون ، فمسح بيده المباركة صدره ، فثع ثعة بالمثلثة والعين المهملة ، أى قاء قيئة ، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود ، وبرئ لوقته .

(٨٧) قوله « وأحيت السنة الشبهاء » إلخ أى وأخصبت السنة الشهباء إلخ ، ففيه استعارة تصريحية تبعية ، لأنه شبه الإخصاب بالإحياء ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، واشتق من الإحياء بمعنى الإخصاب أحيت بمعنى أخصبت ، أو استعارة بالكناية ، وتخييل ، لأنه شبه السنة الشهباء بإنسان ميت تشبيها مضمرا فى النفس وحذف لفظ المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وهو الإحياء ، ولا يخفى أن السنة مفعول مقدّم ، ودعوته فاعل مؤخر ، والشهباء : صفة للسنة ، وهى قليلة المطر ، سميت بذلك لأنها تشبه الفرس الشهباء ، وهى التى يغلب بياضها على سوادها ، وإنما أشبهتها لغلبة بياض الأرض فيها ، لعدم النبات ، على سوادها بالنبات ، وقوله « دعوته » أى بالسقيا ، وقوله « حتى حكت غرة فى الأعصر الدهم » غاية لقوله « وأحيت » إلخ ، وغرة بالنصب على أنه مفعول لحكت ، وغرة كل شىء أحسنه ، والأعصر جمع عصر ، وهو الزمن ، والدهم بضم الدال والهاء جمع أدهم ، وهو الأسود لسواد الأرض فيه بالزرع ، شديد الخضرة ، حتى يرى أنه أسود ، فتلك السنة كثر خصبها جدا ، حتى كأنها غرة فى تلك الأعصر ، وأشار بذلك إلى ما رواه الشيخان عن أنس « أن رجلا دخل المسجد يوم جمعة ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فقال : يا رسول الله هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغثنا ، فرفع رسول الله ﷺ يديه ، وقال : اللهم أغثنا ( ثلاثا ) وما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة ( - بفتح القاف والزاى - أى قطعة سحاب ) فطلعت سحابة ثم أمطرت ، والله ما رأينا الشمس سبتا (١) ثم دخل رجل فى الجمعة الأخرى ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، =

(١) أى أسبوعاً ، ثمانية أيام .

بِعَارِضٍ جادَ أوْ خِلْتُ البِطاحَ بِها     سَيْبٌ مِنَ اليَمِّ أوْ سَيْلٌ مِنَ العَرِمِ (٨٨)

---

= فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يمسكها عنا ، فرفع يديه ثم قال : اللهم حوالينا ، ولا علينا إلخ ، فأقلعت ، أى انكشفت ، وخرجنا نمشى فى الشمس ، وسئل أنس : أهو الرجل الأول ؟ قال : لا أدرى .

(٨٨) قوله « بعارض » إلخ أى أحيت السنة الشهباء دعوته بعارض إلخ ، فالجار والمجرور متعلق بأحيت ، ويصح تعلقه بحكت ، والمراد بالعارض السحاب الذى أرسله الله تعالى بسبب دعوته ﷺ ، وقوله « جاد » أى جاد هذا العارض ( وهو السحاب ) بالمطر الكثير ، وفى قوله « جاد » نوع احتراس ، لأن العارض قد يكون مهلكا ، وقد يكون الاحتراس فى قوله « وأحيت » ، وقوله « أو خلت » أى أو ظننت ، وأو بمعنى « الواو » ، وإنما عبر بأو ليستقيم الوزن ، وبعضهم جعلها بمعنى إلى ، فالمعنى إلى أن ظننت ، كما فى قول الشاعر :

لأستسهلنّ الصعبَ أو أدركَ المنى     فما انقادت الآمال إلا لصابر

فأو فيه بمعنى إلى ، والمعنى إلى أن أدرك المنى . وقوله « البطاح » بالنصب على أنه مفعول أول لقوله خلت ، وجملة قوله « بها سيب من اليم أو سيل من العرم » سدت مسد المفعول الثانى ، والبطاح جمع أبطح : وهو الوادى المتسع الذى فيه دقاق الحصى ، والضمير فى قوله « بها » راجع للبطاح ، و « السيب » الجرى ، واليم : البحر ، ومن الداخلة عليه ابتدائية ، والعرم بفتح العين وكسر الراء فى الأصل : اسم لما يمسك الماء من بناء وغيره ، وهو أيضا اسم لواد ، و « من » الداخلة عليه للابتداء ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ أى سيل الوادى المسوك بالسد الذى بنته بلقيس ، وهو بناء عظيم محكم – على ما ذكره أهل التفسير والتاريخ – وإنما خُصّ اليم بالسيب ، والعرم بالسيل ، لأن ماء اليم لكثرته يجرى فى الأرض المنبطحة إلى أسفل ، وإلى فوق ، وماء العرم غالبا إنما يقع فى أعلى الأرض ، فلا يجرى إلا سائلا ، وأو الثانية للتخيير ، فالمعنى أنت بالخيار ، فإما أن تشبه الماء الكائن على سطح الأرض بسيب البحر ، وإما أن تشبهه بسيل السد ، أو للتشكيك ، فالناظر يتشكك فى الماء الكثير الكائن على سطح الأرض ، هل هو سيب من البحر أو سيل من السد .

دَعْنِــي ووَصْفِــيَ آياتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ظُهورَ نَارِ القِرَى لَيْلاً عَلَى عَلَمِ (٨٩)

فالدُرُّ يَــزدادُ حُسْناً وهْـــوَ مُنتَظِمٌ وليسَ يَنقُصُ قَدراً غيرَ مُنتَظِمِ (٩٠)

---

(٨٩) قوله « دعنى » إلخ لما ذكر الناظم جملة من معجزاته ﷺ قدَّر أن العدوّ المعاند والكافر الجاحد قالا له : كف عن ذكر هذه الآيات التى لا نسلمها ، فأجابه بقوله « دعنى » ، إلخ كأنه يقول له : كيف تنكرها ولا تسلمها وقد ظهرت ظهورا تاما ؟! وقوله « ووصفى آيات » أى ذكرى لها بالنظم ، أخذاً مما يأتى ، وهو معطوف على الياء من دعنى ، أو مفعول معه ، أى اتركنى وذكرى آيات ، أو مع ذكرى آيات ، والمراد بالآيات المعجزات الدّالة على نبوته ﷺ ، وهو مفعول لوصفى ، وقوله « له » متعلق بمحذوف صفة لآيات ، أى آيات كائنة له ﷺ ، أو متعلق بقوله « ظهرت » الواقع صفة للآيات ، ووصفها بذلك كاشف ، لأن الظهور لازم لكل آية من آياته ﷺ ، ويصح أن يكون احترازاً عما ثبت بالآحاد ، فكأنه يقول للمنكر : أنا لا أصف إلا ما لا يمكن إنكاره لثبوته بالتواتر ، وأما ما ثبت بالآحاد فلا ، لأنه يمكن إنكاره ، وقوله «ظهرت » ظهور نار القرى ، أى ظهرت ظهورا مثل ظهور نار القرى بكسر القاف الذى هو الضيافة ، وقوله « ليلا » ظرف لظهور نار القرى ، وقوله « على علم » أى على جبل ، وقد جرت عادة الكرام من العرب بإيقاد تلك النار على الجبل ، ليهتدى الضيفان إلى منازلهم ، والتنكير فى الليل والعلم للنوعية ، أى ليلا حالكا ، أى شديد السواد على علم شامخ ، أى مرتفع ، أو للتعظيم .

(٩٠) قوله « فالدر » إلخ لما كان قد يقال إذا كانت آياته ﷺ ظهرت ظهور نار القرى ليلا على علم فما فائدة وصفك لها بهذا النظم ؟ أجاب : بأنها وإن كانت آياته ﷺ ظاهرة ظهوراً تاما يزداد ظهورها بذكرها ، ويزداد حسنها بنظمها ، ولا ينقص قدرها منثورة ، لأنه ذاتى لها ، فلا يفارقها ، سواء كانت نثرا أو نظما ، نعم ما يحصل من زيادة الالتذاذ بسماعها منظومة ينقص مع الإخبار بها منثورة ، لأن ما يزيد بوصف ينقص بسلب ذلك الوصف ، واستدل على ذلك بأمر محسوس يدرك فيه ما ذكر بقوله « فالدر » إلخ أى فالدر المعلوم حسنه ، وهو اللؤلؤ يزداد حسنا ، والحال أنه منتظم فى السلك لترتيبه وتنزيله فى المنازل المتناسبة ، وليس ينقص قدرا حال كونه غير منتظم ، لأن حسنه ذاتى له ، فلا يفارقه سواء كان منظوما أو غير منظوم ، نعم الحسن الحاصل عند نظمه لما يحصل له من الترتيب والتناسب ينقص عند عدم نظمه ، =

فما تَطاوُلُ آمالِـــى المديحَ إلـــى ما فيهِ مِنْ كَرَمِ الأخلاقِ والشِّيَمِ (٩١)

---

= لما علمت من أن ما يزيد بوصف ينقص بسلب ذلك الوصف . وكل من قوله « حسنا » وقوله « قدرا » تمييز محول عن الفاعل ، والتقدير فى الأول : يزداد حسنه ، وفى الثانى . وليس ينقص قدره ، وقد علم مما تقرر أن الواو فى قوله « وهو منتظم » واو الحال ، وأن قوله « غير منتظم » حال من فاعل ينقص ، وفائدة قوله « وليس ينقص قدرا غير منتظم » الاحتراس الرافع لما يتوهم من أن ازدياد الحسن بالنظم يوجب نقص القدر عند عدم النظم .

(٩١) قوله « فما تطاول » إلخ لما كان قوله دعنى ووصفى إلخ قد يوهم أن آماله تطاولت بالمديح إلى استقصاء ما فيه ﷺ من الصفات ، دفع ذلك بقوله « فما تطاول » إلخ ، والفاء عاطفة ، ويحتمل أن « ما » نافية ، وتطاول فعل ماض ، وأمالى فاعل ، والمديح منصوب بنزع الخافض ، والمعنى على هذا : فلم تتطاول آمالى بالمديح الصادر منى إلى استقصاء ما فيه ﷺ من كرم الأخلاق والشيم ، لعلمى باليأس من ذلك ، والعجز عما هنالك ، ويحتمل أن « ما » استفهامية فتكون للاستفهام الإنكارى ، وهى مبتدأ ، و « تطاول » مصدر مرفوع على أنه خبر ما الاستفهامية ، فإنها مبتدأ كما علمت ، وآمالى مضاف إليه ، والمديح منصوب بنزع الخافض مثل ما مرّ على الوجه الأول ، والمعنى على هذا : فما فائدة تطاول آمالى بالمديح إلى تمام ما فيه ﷺ من كرم الأخلاق والشيم ، مع أنها لا تتناهى وما ذكرناه من أن المديح منصوب بنزع الخافض ، على النسخ التى فيها آمالى بالإضافة لياء المتكلم المحذوفة لالتقاء الساكنين ، وفى بعض النسخ آمال بلا ياء ، وعليه شرح القسطلانى ، وجعل المديح مجروراً ، لأنه مضاف إليه ، لكن على تقدير مضاف أى آمال صاحب المديح ، والتطاول فى الأصل مدّ العنق ، والآمال جمع أمل ، وهو الرجاء ، وقد شبه الآمال بذى عنق يتطاول أى يمد عنقه إلى ما يريد إدراكه تشبيها مضمرا فى النفس ، وطوى لفظ المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وهو التطاول ، ففى كلامه استعارة بالكناية ، وتخييل ، والمديح هو الثناء الحسن ، وقوله « إلى ما فيه » أى إلى استقصاء ما فيه ﷺ ، وهو متعلق بتطاول ، وقوله « من كرم الأخلاق والشيم » ، بيان لما فيه ، والإضافة فى ذلك من إضافة الصفة للموصوف ، أى من الأخلاق والشيم الكريمة ، والأخلاق جمع خلق بضمتين ، وهو الطبيعة ، والشيم : بكسر الشين المشددة وفتح الياء جمع شيمة ، وهى الخلق بضمتين ، فعطف الشيم على الأخلاق من =

= قبيل عطف المرادف ، وهو فى مقام المدح سائغ ، وأيضاً قد يكون كرم الأخلاق عن استعمال وتكلف ، فرفع ذلك بقوله والشيم ، فهو احتراس ، فكأنه قال : كرم أخلاقه ﷺ من كرم طباعه ، لا بالاستعمال والتكلف لذلك من غير أن يكون طبيعة .

وهذا البيت إلى آخر « قد تنكر العين » (*) خاصيتها لمن كان لا يحسن العبادة ، ولمن كان ألكناً لا تستقيم له حجة ، فليكتب هذه الأبيات فى صحيفة فخار بماء ورد وزعفران ، ويمحها ويشربها عند إرادة النوم وقيامه من النوم ، فإنه يصير فصيح اللسان ، وتقوى حجته ، ويرزقه الله القوّة على العبادة بإذن الله تعالى .

(٩٢) قوله « آيات حق » إلخ أى من معجزاته ﷺ آيات حق إلخ ، فآيات مبتدأ خبره مقدر قبله ، وهو الجار والمجرور ، وإضافة آيات لحق من إضافة الموصوف للصفة ، أى آيات موصوفة بأنها حق ، وجميع ما سيأتى إلى قوله فى البيت الثانى عشر « وكالميزان معدلة » صفات للآيات ، وما يقع بين الصفات من متعلقاتها ، ومقصود المصنف بالذات مدح النبى ﷺ ، لكن لما ذكر أن من معجزاته ﷺ الآيات الحق ، التى هى القرآن ، استطرد بذكر صفاتها ، وقوله « من الرحمن » أى من عند الرحمن لا من عند محمد ، كما زعمه كفار قريش ، وقوله محدثة أى أحدثها الله تعالى كما جاء فى التنزيل ، قال تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ (٢) وفى بعض النسخ « محكمة » بدل محدثة ، وقد جاء بها التنزيل أيضا قال تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ (٣) وقوله « قديمة » استشكل بأنه ينافى قوله محدثة على النسخة الأولى ، لأن الشىء لا يكون محدثا وقديماً معا ، وإلا أدّى إلى اجتماع النقيضين ، وهو محال ، وأجيب بأنها محدثة باعتبار الألفاظ ، قديمة باعتبار المعانى ، فهى محدثة قديمة باعتبارين ، لا باعتبار واحد ، حتى يؤدّى إلى اجتماع النقيضين ، وهذا الجواب مبنى على أن الألفاظ التى نقرؤها تدل على الكلام القديم ، الذى هو صفة قائمة بذاته تعالى ، كما قاله السنوسى وغيره من المتقدمين ، لكن ناقش فى ذلك العلامة ابن قاسم ، واختار أنها تدل على =

---

(١) الشعراء : ٥      (٢) الأنبياء : ٢ ، ومعنى « محدث » أى محدث نزوله .

(٣) أول سورة هود صلى الله عليه وسلم .      (*) أى الأبيات من ٩١ إلى ١٠٥ .

لم تَقْتَــرِنْ بزَمــانٍ وهِــى تُخْبِرُنا     عَنِ المَعَادِ وعن عادٍ وعن إِرَمِ (٩٣)

= معنى مساو للمعنى الذى تدل عليه الصفة القديمة ، مثلا ﴿ أقيموا الصلاة ﴾ يدل على طلب إقامة الصلاة ، وبحيث لو كشف عنا الحجاب لفهمنا من الكلام القديم مثل هذا المعنى ، ويمكن أن يكون المراد أن هذه الألفاظ تدل على الصفة القديمة بطريق اللزوم العرفى لا العقلى ، لأنه يلزم عرفا من أن يكون له تعالى كلام لفظى ، بمعنى أنه خلقه فى اللوح المحفوظ ، أن يكون له كلام نفسى ، فإن كل من أسند له كلام لفظى لزم عرفا أن يسند له كلام نفسى ، إذ هو يدل عليه كما قال الأخطل :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما     جُعِلَ اللسان على الفؤاد دليلا

وبهذا كله ظهر قوله « صفة الموصوف بالقدم » فليس المراد أن الألفاظ التى نقرؤها صفة للموصوف بالقدم ، الذى هو الله تعالى ، لأنها حادثة ، بل المراد أن معناها صفة له تعالى ، وهو مبنى على ما مرّ ، وإلا فمعنى الألفاظ التى نقرؤها منه ما هو قديم كمدلول قوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ (*) ومنه ما هو حادث ، كمدلول قوله تعالى : ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ (**) فبعضه قديم وبعضه حادث ، وبالجملة ففى هذه المسألة نزاع طويل ، والحاصل أن الألفاظ التى نقرؤها لها دلالتان : دلالة بالوضع ، وهى التى اعتبرها العلامة ابن قاسم ، فإن المدلول بهذه الدلالة مساو للمدلول الذى تدل عليه الصفة القديمة ، ودلالة بالالتزام العرفى لا العقلى ، وهى التى اعتبرها السنوسى وغيره من المتقدمين ، فإن المدلول بهذه الدلالة هو الصفة القديمة ، فكل من المسلكين صحيح ، كما فى حواشى الكبرى .

(٩٣) قوله « لم تقترن » إلخ أى لأنها قديمة من حيث معناها على ما فيه ، فمدلولاتها قديمة على ما علمت ، والزمان حادث ، والقديم لا يقترن بالحادث ، لأنه لو اقترن به لكان حادثا ، وقوله و « هى » أى هذه الآيات ، وقوله « تخبرنا عن المعاد » أى عن عود الخلق بعد انعدامهم ، فالمعاد بمعنى عود الخلق إلى الله تعالى فى الدار الآخرة ، بعد انعدامهم فى دار الدنيا ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ (٢) . وقوله و « عن عاد » أى وتخبرنا عن قبيلة عاد ، التى بعث إليها هود عليه الصلاة والسلام ، وذلك كقوله =

(١) سورة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الآية : ١٠٤

(*) آية الكرسى سورة البقرة : ٢٥٥     (٢) الروم : ١١     (**) القصص : ٢٨

دامتْ لَدَيْنا ففاقتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ مِنَ النبيِّينَ إذْ جاءتْ ولَمْ تَدُمِ (٩٤)

= تعالى : حكاية عنهم ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ﴾ (١) الآية ، وسميت هذه القبيلة باسم أبيها عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح ، وكان عمره ألف سنة ومائتى سنة ، ورأى من صلبه أربعة آلاف ولد ، وتزوّج ألف امرأة ، وكان كافرا يعبد القمر ، ثم إنه يقال للاولين منهم عاد الأولى ، ولمن بعدهم عاد الآخرى ، ويقال لهم أيضاً : ارم ، تسمية باسم جدهم إرم ، وقيل إن ارم اسم أرضهم وبلدتهم التى كانوا فيها ، وقيل : إنها مدينة بناها شداد بن عاد لبنة من فضة وأخرى من ذهب ، فى صحن عدن ، لما سمع بذكر الجنة وما فيها ، وجعل فيها قصورا من الذهب والفضة ، وأساطينها أى أعمدتها من الزبرجد والياقوت ، وجعل فيها أنهارا مطردة ، وأصنافا من الشجر ، وأتم بناءها فى ثلثمائة سنة ، وعند كمالها ارتحل إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء ، فأهلكتهم ، وقد أطنب المؤرخون فى صفتها ، وهذا خلاصة خبرها . وقوله « وعن إرم » بكسر الهمزة ، وفتح الراء المهملة أى وتخبرنا عن أرم ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ (٢) . وقد عرفت أن إرم تسمى عاداً الأخرى ، وإرم فى الآية عطف بيان على عاد ايذانا بأنهم غير عاد الأولى ، لكن قضية سياق الآية أن المراد بإرم البلد وهو أحد الأقوال السابقة ، وإنما كرر المصنف « عن » فى الثلاثة لأنها أنواع مختلفة فلا يحسن جمعها فى واحد ، ولأن لكل أخباراً تخصه ، وقيل كررها للوزن ، وحسّنه أن مقام المدح يحسن فيه الإطناب .

(٩٤) قوله « دامت لدينا » إلخ أى استمرت عندنا ، فتسبب عن ذلك أنها فاقت كل معجزة صادرة من النبيين غير نبينا ﷺ ، وقوله « إذ جاءت ولم تدم » تعليل لقوله « ففاقت كل معجزة من النبيين » أى إذ جاءت عنهم ولم تستمر ، بل لم تظهر على أيديهم إلاّ مرة واحدة ، وذلك حين التحدى ، ثم لم تظهر بعد ذلك ، وإليه أشار ﷺ بقوله « ما من نبى من الأنبياء إلاّ وقد أوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيتُ وحياً يُتْلَى » (٣) وهو باق على الدوام ، وسبب ذلك أنه ﷺ =

(١) سورة سيدنا هود صلى الله عليه وسلم ، الآية : ٥٢ (٢) سورة الفجر : ٦ – ٨

(٣) راجع فى هذا وأمثاله « الشفاء » للقاضى عياض رحمه الله تعالى .

مُحَكَّماتٌ فما تُبْقِيـــنَ مِـــنْ شُبَهٍ    لِذِى شِقاقٍ وما تَبْغِينَ مِنْ حَكَمِ (٩٥)

= خاتم النبيين ، فشريعته باقية إلى يوم الدين ، فناسب أن تكون معجزته كذلك ، والمعجزة هى الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدى ، وهو دعوى النبوّة أو الرسالة ، وهى مأخوذة من الإعجاز ، لأنها تعجز الخصوم عن أن يأتوا بمثلها ، وقد نظم بعضهم أقسام الخارق للعادة فقال :

إذا مــا رأيتَ الأمــرَ يخرق عادةً    فمعجــزة إنْ مـــنْ نَبِـــىٍّ لنا صَدَرْ
وإنْ بانَ منـــه قبــل وصف نبـوّةٍ    فالارهاصُ سَمِّهُ تَتْبَــع القومَ فى الأثر
وإن جـــاء يـوما مِـنْ وَلِـىٍّ ، فإنه    الكرامة فـى التحقيق عند ذوى النظر
وإن كان من بعض العـوام صدورُهُ    فكنـــوه حقاً بالمعـــونة واشتهرْ
ومـــن فاســق إن كان وفق مُـراده    يُسَمَّى بالاستـــدراج ، فيما قد استقرْ
وإلا فيُــدْعَـــى بالإهـانة عِنْدُهُم    وقــد تَمَّتْ الأقْسَامُ عِنْـدَ الذى اخْتَبَرْ

وزاد بعضهم السحر ، وقيل : إنه غير خارق ، لأنه معتاد عند تعاطى أسبابه .

(٩٥) قوله « محكمات » إلخ أى والآيات المذكورة محكمات ، إلخ ، ومعنى محكمات : متقنات النظم فى البلاغة والفصاحة ، بحيث لا يقدر البشر على الإتيان بمثلها ، فدل ذلك على أنها من عند الله ، قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ (١) وكلهم قد عجزوا عن معارضته ، ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ (٢) وقد كان كثير من الكفار يُسلِم لما يدرك من فصاحة ألفاظه ، أو أن معنى محكمات : ذوات حكمة ، ويصح فيها فتح الكاف ، لأن الله أحكمها أى أتى بها ذات حكمة ، وكسرها لأنها دالة على الحكمة ، قال تعالى : ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ (٣) قال الزمخشرى : أى ذى الحكمة ، لأنه ناطق بها ، وقد كان كثير من الكفار يُسْلِم بمجرد سماع ما يتضمن المعانى الكثيرة من بعض آيات القرآن فى ألفاظ قليلة ، كما كان كثير منهم يسلم لما يدرك من فصاحة ألفاظه ، لأن مثل ذلك لا يمكن أن يكون من كلام البشر ، وقوله «فما تبقين من شبه لذى شقاق » بضم التاء من تبقين ، لأنه من أبقى ، أى فما تترك تلك الآيات المحكمات شبها لصاحب شقاق ، وهو الكافر ، لأنه مشاقّ الدين إذ هو =

(١) البقرة : ٢٣    (٢) الإسراء : ٨٨    (٣) أول سورة يس .

ما حُوربتْ قَطُّ إلاَّ عادَ مِنْ حَرَبٍ     أعْدَى الأعادِي إليها مُلْقِيَ السَّلَمِ (٩٦)

---

= فى شق ، والإسلام فى شق ، بل تزيلها ، فـ « من » زائدة فى المفعول ، والشبه : جمع شبهة ، وهى ما يظن دليلا وليست بدليل ، وإن شئت قلت : كلام مزخرف الظاهر فاسد الباطن ، والشقاق : المخالفة للحق ، والحاصل أن الكافر إذا ادعى أمرا مخالفا للحق ، وأقام عليه شبها ، كان القرآن هادما لتلك الشبه ومزيلا لها لما تضمنه من الحكم والفوائد ، وإنما قال « من شبه » بصيغة الجمع ، ولم يقل من شبهة بصيغة المفرد ، وإن كان المقرر أن عموم المفرد أشمل ، فإنه إذا انتفى الواحد انتفى الجنس كله جمعه ومفرده ، بخلاف نفى الجمع ، فإنه لا يستلزم نفى الواحد ، تنبيها على أن طرق الباطل شتى ، فكأنه يقول : إن هذه الآيات لا تبقين شيئا من أنواع الشبه الكثيرة المختلفة الأنواع ، فما من أحد تعرض له شبهة إلاَّ ويجد شفاء منها فى القرآن ، فإنه الشفاء من كل داء ، والنجاة عند تفرق الأدواء ، وقوله « وما تبغين من حكم » بفتح التاء من تبغين ، أى ولا تطلبن حَكَما ، بفتحتين ، يعنى حاكما يحكم على ذلك المخالف للحق بأنه على خلاف الصواب لظهور براهينها عليه ، فـ « من » زائدة فى المفعول كالتى قبلها ، فهى زائدة فى الموضعين ، كما أن « ما » نافية فى الموضعين .

(٩٦) قوله « ما حوربت » إلخ أى ماحورب الآتى بها ، وهو النبى ﷺ فى الزمن الماضى ، إلا كان النبى ﷺ هو الغالب ، ورجع أشد الأعادى عداوة إليه ملقى السلاح ، وسلم له ﷺ إما بدخوله فى الإسلام ، وإما بتركه المحاربة من أجل شدة بلاغتها ، فإسناد المحاربة إليها مجاز ، لأن المحارب الآتى بها لاهى ، ويحتمل أن المراد بالمحاربة المعارضة ، فيكون المعنى : ما عورضت فى الزمن الماضى بأن أراد أحد أن يأتى بمثلها بحسب ظنه إلا عجز وعاد إليها أشد الأعادى عداوة مستسلما منقادا من أجل شدة بلاغتها ، فقد شبه المعارضة بالمحاربة بجامع عدم الانقياد فى كل ، واستعار المحاربة للمعارضة واشتق منها « حوربت » بمعنى عورضت على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، و « قط » ظرف بمعنى الزمن الماضي ، و « عاد » من أخوات كان فترفع الاسم وتنصب الخبر ، فـ « اعدى الأعادى » اسمها ، و « ملقى السلم » خبرها ، و « إليها » متعلق بعاد ، وكذا قوله « من حرب » ، و « من » فيه للتعليل ، فهى بمعنى من أجل ، وذكر بعضهم أنها للابتداء ، وحقيقة الحرَب بفتحتين : سلب المال ، لكن المراد به هنا الشدة أى شدة بلاغتها مجازاً من باب إطلاق اسم الملزوم وإرادة اللازم ، لأنه يلزم من سلب المال الشدة ، ويحتمل أن المراد به سلب =

رَدَّتْ بلاغَتُها دَعْوَى مُعارِضِها ... رَدَّ الغَيورِ يَدَ الجانِى عَنِ الحُرَمِ (٩٧)

لها مَعَانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ فى مَدَدٍ ... وفوْقَ جوهَرِهِ فى الحُسْنِ والقِيَمِ (٩٨)

---

= الحجة التى هى كالمال ، لأن الشخص يخاف على حجته أن تُدْحض ، وتضمحل ، فيفتضح ، كما يخاف على ماله . ومعنى « أعدى الأعادى » أشد الأعادى عداوة ، والأعادى جمع أعداء ، وهو جمع عدوّ ، فالأعادى جمع الجمع ، ومعنى السلم بفتحتين السلاح ، أو الاستسلام والانقياد ، وفى التنزيل ﴿ وألقوا إليكم السلم ﴾ (١) أى الاستسلام والانقياد .

(٩٧) قوله « ردت بلاغتها » إلخ أى أبطلت بلاغتها دعوى معارضها الاتيان بمثلها إبطالا مبالغا فيه ، فإذا ادّعى المعارض الإتيان بمثلها فى ظنه ، أبطلت بلاغتها دعواه ، كما وقع لمسيلمة الكذاب ، حيث عارض القرآن لما ادّعى النبوّة ، وأراد أن يأتى بقرآن يشبه القرآن ، فقال فى معارضة سورة النازعات : « والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزا » ، فافتضح لا بارك الله فيه . والبلاغة هى المطابقة لمقتضى الحال ، مع الفصاحة التى هى الخلوّ من الحشو والتعقيد والغرابة ، وقوله « رد الغيور » أى ردا مثل ردّ الشخص الغيور الذى هو شديد الغيرة على النساء ، والإضافة فى ذلك من إضافة المصدر لفاعله ، وقوله « يد الجانى » مفعول للمصدر الذى هو الرد ، وقوله « عن الحرم » متعلق بالمصدر المذكور ، والحرم بضم الحاء المهملة وفتح الراء جمع حرمة ، فكونه غيورا يقتضى أن يردّ ويدفع يد الجانى عنهن ، وإن لم يكن من محارمه بمقتضى طبعه ، فكيف بردّه يد الجانى عن حرمه هو كامرأته وأخته وغيرهما ، فرده عنها أشد من رده عن غيرها ، وظاهر كلام المصنف أن إعجاز القرآن للبشر عن الإتيان بمثله بسبب ما اشتمل عليه من البلاغة التى لم يصلوا إليها ، وعلى ذلك ، فالقرآن ليس من جنس مقدورهم ، وهو قول الجمهور ، والقول الثانى إنه من جنس مقدورهم ، لكن الله تعالى صرفهم عن الإتيان بمثله ، ولذلك يسمى بقول الصرفة ، وهو أدخل فى الإعجاز ، لأن عجزهم عما هو من جنس مقدورهم أدخل فى قيام الحجة عليهم من عجزهم عما هو ليس من جنس مقدورهم ، لكن يلزم عليه أن إعجاز القرآن ليس بنفسه ، بل بالصرفة ، فيكون غير معجز بنفسه !! فالحق القول الأوّل .

(٩٨) قوله « لها معان إلخ » أى لتلك الآيات معان كثيرة ، لا نهاية لها ، بل يمدّ بعضها بعضا كما أشار إليه بقوله « كموج البحر فى مدد » أى مثل موج البحر فى =

---

(١) النساء : ٦٠

= كونه يمد بعضه بعضا ، إذ ما من موجة إلا وبعدها موجة ، وهكذا ، وأشار بذلك إلى قول بعضهم : أقل ما قيل فى العلوم التى فى القرآن من ظواهر المعانى المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم ، وثمانمائة علم ، وما حُكى عن بعضهم من أنه قال : لكل آية ستون ألف فهم ، وما بقى من فهمها أكثر ، وقول على كرم الله وجهه « لو شئتُ لأوقرتُ سبعين بعيرا من تفسير الفاتحة » قال بعض العارفين : ويظهر وجه ما قاله رضى الله عنه من خمسة كنوز :

الأوّل : معنى ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، فيحتاج فيه إلى بيان معنى الحمد ، وما يتعلق به ، ومعنى لفظ الجلالة ، وما يليق به من التنزيه ، ومعنى الرب ، ومعنى العالم على جميع أنواعه وأعداده .

الثانى : معنى ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ، فيحتاج فيه إلى بيان معنى هذين الاسمين ، وما يليق بهما من الجلالة ، وحكمة اختصاص هذا الموضع بهذين الاسمين ، فيحتاج فى ضمن ذلك إلى بيان جميع الأسماء .

الثالث : معنى ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، فيحتاج إلى بيان هذا اليوم ، وما فيه من المواطن والأهوال .

الرابع : معنى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فيحتاج فيه إلى بيان المعبود ، وجلاله ، والعبادة وكيفيتها وصفاتها وأدائها على اختلاف أنواعها ، والعابد وصفته ، والاستعانة وكيفيتها .

الخامس : معنى ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إلى آخر السورة ، فيحتاج فيه إلى بيان الهداية وأنواعها ، والصراط المستقيم وعقباته ، وصراط المنعم عليهم ، والمغضوب عليهم ، والضالين ، وصفاتهم ، وما يتعلق بهذا النوع .

وقوله « وفوق جوهره فى الحسن والقيم » عطف على قوله « كموج البحر فى مدد » أي و لها معان فوق الجوهر المستخرج من البحر فى حسنها البديع ، وفى قدرها وشرفها . و « فوق » ملازم للنصب على الظرفية ، وإن كانت مجازية ، ونحوه فى التنزيل قال تعالى : ﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾ [1] . والضمير فى « جوهره » =

(١) يوسف : ٧٦

فلا تُعَدُّ ولا تُحْصَى عَجائِبُها ولا تُسامُ على الإكْثارِ بالسَّأمِ (٩٩)

= للبحر والمراد بجوهره الدر المستخرج منه ، والحسن ضد القبح ، والقيم : بكسر القاف وفتح الياء جمع قيمة والمراد بها هنا ما لها من القدر والشرف مجازاً ؛ لأنها فى الأصل ما قطع به المقوّمون ، وبذلك اندفع ما قد يقال إن معانيها قديمة على ما تقدم ، والقديم لا يوصف بأن له قيمة ، ووجه الاندفاع أن المراد بالقيمة القدر والشرف لا المعنى الأصلى ، وفى هذا البيت الجمع ثم التفريق ، وهو أن يُدخل شيئين فى معنى واحد ، ثم يفرق بينهما ، فقد أدخل هنا معانى القرآن والبحر فى المدد والكثرة ، ثم فرّق بينهما بأنّ حسنها وقدرها يزيدان على حسن جوهره وقيمه .

(٩٩) قوله « فلا تعد ولا تحصى » إلخ هذا البيت مفرع على البيت قبله ، فالشطر الأوّل مفرع على الشطر الأوّل ، والثانى على الثانى ، وقوله « عجائبها » أى معانيها العجيبة ، والعجائب جمع عجيبة ، وهى الشىء العديم النظير أو قليله ، وقوله « ولا تسام » بضم التاء وفتح السين المهملة بعدها ألف لينة وفى آخره ميم أى لا توصف ، وقوله « على الإكثار » أى مع الإكثار منها الذى لا غاية له ، فعلى بمعنى « مع » . وقوله « بالسأم » بتشديد السين المهملة وفتح الهمزة أى الملل ، والجار والمجرور متعلق بتسام ، وحاصل المعنى أنه إذا كان لها معان كموج البحر فى الكثرة التى لا غاية لها ، وفوق جوهره فى الحسن والقدر والشرف ، ترتب على ذلك أنها لا تعد ولا تحصى معانيها العجيبة ، لعدم تناهيها ، ولا توصف بالملل مع الإكثار منها لحسنها ، فغيرها من الكلام ولو بلغ الغاية فيما يليق به من الحسن والبلاغة يوصف بالملل مع الإكثار منه ، فيمل مع الترديد ، ويعادى إذا أعيد ، بخلاف آيات القرآن ، كما ورد فى الحديث (١) ، فقارئها لا يملها ، وسامعها لا يمجها ، بل الإكباب على تلاوتها يزيدها حلاوة ، ويوجب لها محبة وطلاوة .

---

(١) وقد ذكر القاضى عياض رحمه الله فى « الشفاء » جزءاً من الحديث فقال : ولهذا وصف رسول الله ﷺ القرآن بأنه « لا يَخْلَقُ على كثرة الرد ولا تنقضى عبره ، ولا تفنى عجائبه ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، لا يشبع منه العلماء ، ولا تزيغ منه الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، هو الذى لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد ﴾ .

قَــرَّتْ بِها عَيْــنُ قاريها فَقُلْتُ لَـــهُ    لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْـلِ اللّهِ فاعْتَصِمِ (١٠٠)
إنْ تَتْلُها خِيفَةً مِــنْ حَــرِّ نارِ لَظَــى    أطفأت نارَ لَظَى مِنْ وِرْدِها الشَّبِمِ (١٠١)

---

(١٠٠) قوله « قرت بها » إلخ أى سكنت واطمأنت بتلك الآيات عين قاريها ، بإبدال الهمزة ياء ساكنة لحصول السرور لها ، فإن عين الحزين تكون مضطربة ، وعين المسرور تكون ساكنة ، فقرَّت من القرار ، بمعنى السكون ، وقيل من القر بضم القاف وهو البرد ، والمعنى عليه بردت بدمعة الفرح ، ولم تسخن بدمعة الحزن عين قارئها ، والضمير المضاف إليه عائد على الآيات التى هى الألفاظ إن فُسِّر قاريها بتاليها ، فإن فسر بقاصدها من « قرأت إليه » أى قصدت إليه كان الضمير المذكور عائدا على المعانى . وقوله « فقلت له » أى فلما قرّت عينه بقراءة ألفاظها أو بقصد معانيها قلت لقارئها بمعنى تاليها أو قاصدها ، وقوله « لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم » أى والله لقد فزت بما يوصلك إلى الله ، فامتنع ببركة قراءته من عذاب الله ، أو امتنع باتباع أوامره واجتناب نواهيه من الوقوع فى المخالفة المؤدّية إلى عقاب الله تعالى ، نعوذ بالله من المخالفة ، فاللام موطئة للقسم ، وقد للتحقيق ، والحبل استعارة تصريحية مرشحة ، لأنه شبه القرآن بالحبل ، بجامع أن كلاً سببٌ يُتَوَصَّلُ به إلى الأشياء ، فالقرآن يتوصل به إلى ثوابه ، والحبل يتوصل به إلى أمور محسوسة ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، وذكر الاعتصام ترشيح لأنه يناسب المستعار منه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ ففيه استعارة تصريحية مرشحة ، لأنه شبه فيه الإيمان بالعروة ، واستعيرت العروة للإيمان ، والاستمساك ترشيح لأنه يناسب المستعار منه .

(١٠١) قوله « إن تتلها » إلخ أى إن تقرأها إلخ ، وقوله « خيفة » أى خوفا ، فيكون مفعولا لأجله ، أو خائفا فيكون حالا ، وقوله « من حر نار لظى » أى التى هى جهنم ، وقوله « أطفأت » إلخ جواب الشرط ، وقوله « نار لظى » فيه إظهار فى مقام الإضمار ، لضرورة النظم ، وقوله « من وردها » بكسر الواو وسكون الراء أى من موردها ، فمن للتعليل ، والورد بمعنى المورد ، وهو المحل الذى يورد منه الماء ، وقوله « الشبِم » بفتح الشين المعجمة المشددة ، وكسر الموحدة : أى البارد ، وفى الكلام استعارة بالكناية ، حيث شبه الآيات بالماء ، تشبيها مضمرا فى النفس ، بجامع الحياة بكل ، إذ الماء به حياة الأشباح ، والآيات بها حياة الأرواح ، أو بجامع إطفاء الحرارة بكل : فالماء يطفىء حرارة العطش ، والآيات تطفىء حرارة نار جهنم =

كأنَّها الحوْضُ تَبْيَضُّ الوجوهُ بِهِ مِنَ العُصَاةِ وَقَـدْ جَـاؤهُ كالحُمَمِ (١٠٢)

وكالصِّـراطِ وكالميـزانِ مَعْدِلَةً فَالقِسْطُ مِنْ غَيْرِها فى الناسِ لَمْ يَقُمِ (١٠٣)

---

= أعاذنا الله منها بمنه وكرمه ، وطوى لفظ المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الورد ، والشبم ترشيح لأنه يناسب المشبه به ، وحاصل المعنى : إن تقرأها خوفا من حر نار لظى ، أو خائفا منه أطفأت عنك بتلاوتها نار لظى من أجل موردها البارد ، والشاهد لذلك ما فى مسلم : « اقرؤا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » .

(١٠٢) قوله « كأنها » الحوض إلخ أى كان الآيات المذكورة ماء الحوض إلخ ، ففيه مجاز بالحذف ، أو أنه عبر باسم المحل وأراد الحالّ به ، فيكون فيه مجاز مرسل ، وجملة قوله « تبيض » إلخ حال من الحوض ، على حذف المضاف السابق ، أو بمعنى « إنما » على ما علمت ، وقوله « الوجوه » أى ذوو الوجوه ، فهو على تقدير مضاف أو أنه عبر بالوجوه عن الذوات ، من باب التعبير باسم الجزء وإرادة الكل ، وقوله « به » أى بالحوض ، وقوله « من العصاة » أى حال كونهم بعض العصاة ، فمن للتبعيض ، ويحتمل أنها بيانية ، وقوله « وقد جاؤه » إلخ أى والحال أنهم قد جاؤه إلخ ، فالواو للحال ، والضمير الفاعل راجع للعصاة ، والضمير المفعول راجع للحوض ، وقوله «كالحمم » أى حال كونهم كالحمم ، بضم الحاء المهملة ، وفتح الميم الأولى : أى مثل الفحم ، فالحمم جمع حمة بمعنى فحمة ، ووجه تشبيهها بالحوض المذكور أن الآيات تشفع فى تاليها وقد جاء مسود الوجه من المعاصى ، فيبيض وجهه بشفاعتها ، كما أن الحوض تبيض به وجوه العصاة حين يُصب عليهم منه بعد مجيئهم من النار كالفحم فى السواد الذى أصابهم من النار ، فيعودون بيضا كالقراطيس ، ثم يدخلون الجنة . ومراده بالحوض « نهر الحياة » لأن تلك صفته ، لما فى الخبر من اغتسال الجهنميين فى بحر الحياة ، ففى خبر الصحيحين : « فيخرجون منها ( أى من النار ) فيلقون فى ماء الحياة » وفى رواية « فيصب عليهم ماء الحياة » وفى هذا البيت التلميح للخبر السابق .

(١٠٣) قوله « وكالصراط » إلخ أى وهذه الآيات كالصراط استقامة ، وإنما حذف ذلك ، أعنى استقامة ، لدلالة المعنى عليه ، والمراد « بالصراط » الدين الذى لا اعوجاج فيه ، وهو دين الحق ، أو المراد به الجسر الممدود على متن جهنم ، الذى هو أدق من الشعرة وأحد من السيف ، أو واسع فى حق ناس ، ضيق فى حق آخرين ، على الخلاف فى ذلك ، يسير الناس عليه إلى الجنة على قدر أعمالهم ، فإنه خط =

لا تَعْجَبَّــنَ لِحَسُودٍ رَاحَ يُنْكِــرُها     تَجاهُلاً وَهُوَ عَيْنُ الحاذِقِ الفَهِمِ (١٠٤)

= مستقيم لا اعوجاج فيه بالنسبة لكل بعض من أبعاضه الثلاثة لا بالنسبة لجملته ، لأنه قد ورد أنه ألف سنة صعود ، وألف سنة استواء ، وألف سنة هبوط . وقوله « وكالميزان معدلة » أي وكالميزان من جهة العدل ، فمعدلة بمعنى عدلا ، تمييز ، فإن قيل ليس من لوازم الميزان العدل ، أجيب بأن « أل » في الميزان للعهد ، والمعهود هو الميزان الذي يكون في يوم القيامة ، ومن لوازمه العدل ، أو المعهود : هو الميزان المستقيم ، ولو كان في الدنيا ، وليست للاستغراق ، فيشمل كل ميزان ، وقوله « فالقسط من غيرها في الناس لم يقم » أي فالقسط بكسر القاف ، الذي هو العدل المأخوذ من غيرها لم يقم في الناس ، فإن قيل العدل المأخوذ من غيرها قد يقوم في الناس ، كالمأخوذ من السنة أو الإجماع أو القياس ، أجيب بأن ذلك مأخوذ منها أيضا ، أما المأخوذ من السنة ، فلقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (١) . وأما المأخوذ من الإجماع والقياس ، فلأن مستندهما الكتاب والسنة . والمراد بالناس « الخصوص » ، وإلا لزم أن لا يكون في أهل التوراة وغيرهم من أهل الكتب السماوية عدل ، وهو باطل (٢) .

(١٠٤) قوله « لا تعجبن » إلخ لما وصف الآيات بما ذكره استشعر شخصا قال له على وجه التعجب : إذا كانت الآيات بالمنزلة التي وصفتَ ، فكيف أنكرها كثير من الكفار ؟ فقال له « لا تعجبن » إلخ أي لا ينبغي العجب ، لأنه إذا ظهر السبب بطل العجب ، وها هنا قد ظهر السبب وهو الحسد ، فإنه هو الذي دعاه إلى إنكارها تجاهلا وإظهاراً للجهل ، مع علمه في الواقع بما اشتملت عليه من أنواع الإعجاز ، وقوله «لحسود » ، متعلق بتعجبن ، ومعنى الحسود ذو الحسد ، وقوله « راح ينكرها » أي ذهب ينكر كونها من عند الله ، وأصل « راح » سار بالعشي ، ثم استعمل في الذهاب ، والمراد أنه أنكر ما اتضحت دلالته حتى صار كالأشياء المحسوسة بحاسة =

(١) الحشر : ٧

(٢) كلام الشيخ رحمه الله تعالى عن الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، أما ما حرفوه وكتبوه بأيديهم فضلال في ضلال وأصحابه ليسوا من العدالة في شيء ، قال الله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ .

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضوءَ الشَمْسِ مِنْ رَمَدٍ    ويُنْكِرُ الفَمَ طَعْمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ (١٠٥)
يا خيـــرَ مَـــنْ يَمَّمَ العافونَ ساحَتَـهُ    سَعْياً وفَوْقَ مُتونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ (١٠٦)

= البصر فى نصف النهار الذى هو أول وقت الرواح ، وقوله « تجاهلا » أى حال كونه متجاهلا ، أى مظهراً للجهل ، فإنكاره ليس لجهله حقيقة ، بل لحسده ، وإن كان قد أظهر الجهل ، وقوله « وهو عين الحاذق الفهم » أى والحال أنه عين الحاذق بالذال المعجمة أى الماهر ، الفهم : بفتح الفاء وكسر الهاء : أى الشديد الفهم ، وحينئذ فإنكارها عناد دعاه إليه الحسد ، فلا عجب لإنكارها للحسد ، وأشار بقوله « الفهم » إلى أن حذقه ليس ناشئا عن طول التجارب والتكرار ، لكونه كان بليد الطبع ، بل حذقه مع كونه فاهما بالأصالة ، ولا شك أنه يحصل بالتمرين مع كونه فاهماً بحسب الأصالة ما لا يحصل مع كونه بليداً بحسب الأصالة ، وبهذا التقرير ظهر أن الفهم ليس معناه الحاذق كما زعم بعضهم .

(١٠٥) قوله « قد تنكر » إلخ : لما ادّعى أن إنكارها للحسد مع كونها متصفة بالمعجزات المذكورة ، أثبت ذلك بأمرين محسوسين : الأول إنكار العين ضوء الشمس من أجل الرمد القائم بها ، والثانى إنكار الفم طعم الماء من أجل السقم القائم به ، فكذلك إنكار الآيات من أجل الحسد القائم بالمنكر ، فهاتان الجملتان مسوقتان للتعليل ، وكلامه على حذف مضاف فيهما ، والتقدير : قد ينكر ذو العين إلخ ، وقد ينكر ذو الفم إلخ ، لأن المنكر فى الحقيقة إنما هو صاحب كل منهما .

(١٠٦) قوله « يا خير من يمم » إلخ : لما مدحه ﷺ بما مدحه به ، مخبرا عنه على وجه الغيبة ، أقبل عليه بالخطاب فقال : « يا خير من يمم » إلخ أى يا خير كريم قصد العافون ، وهم الطالبون للمعروف ساحته ، وهى حريم داره الواسع ، حال كونهم ساعين بمعنى مسرعين فى المشى ، ليحصلوا حاجتهم أقرب وقت ، وحال كونهم راكبين فوق ظهور النوق التى ترسم الأرض ، وتؤثر فيها لحصول الحاجة سريعا ، وقصده بذلك الاستغاثة به ﷺ ، والتوطئة لذكر صفاته ، والعافون : جمع عاف ، وهو طالب المعروف ، والساحة : حريم الدار الواسع ، وسعيا : بمعنى ساعين ، والمتون : جمع متن وهو الظهر ، والاينق : جمع ناقة ، وأصله أنوق قدّمت الواو على النون فصار أونق ، ثم قلبوها ياء فصار أينق ، وهذا جمع قلة ، وجمع الكثرة نياق ، والرسم : بضم الراء المشدّدة وضم السين جمع رسوم ، وهى الناقة التى تؤثر فى الأرض من شدّة الوطء عليها . =

ومَـــنْ هُـــوَ الآيَـةُ الكُبْـرَى لِمُعْتَبِرٍ     ومن هو النعمة العظمى لمغتنم (١٠٧)

= ومن هنا إلى آخر قوله « وجل مقدار » (*) إلخ خاصيتها لمن خاف أن يلومه السلطان على جناية وقعت منه ، فليكتبها فى جلد جمل ، ويجعله منشورا على صدره تحت الثياب ، ويدخل على السلطان ، وهو يقول : الله أكبر ( ثلاثا ) فإنه لا يكلمه أبدا ، ومن وقع بينه وبين زوجته خصومة ، أو بين أحد من أحبابه ، فليكتبها فى جلد أسد ، ويجعلها فى كور عمامته ويدخل على حبيبه ، وهو صامت ، فإن حبيبه يبدأه بالكلام ، ويكون محبا له ، وإياك أن تفعل هذا للحرام ، فاتق الله .

(١٠٧) قوله « ومن هو » إلخ أى ويا من هو إلخ ، فهو معطوف على المنادى فى البيت قبله ، وأجاز بعضهم أن يكون معطوفا على « من » فى قوله « يا خير من » إلخ ، والأول هو الظاهر ، وعليه فـ « من » هنا واقعة عليه ﷺ وحده ، بخلافة على الثانى ، فإنها عليه واقعة على جنس متعدد يشمل النبيين والملائكة ، وقوله « الآية الكبرى لمعتبر » أى الآية الكبرى التى هى أكبر الآيات لمتأمل ومتفكر ، لأنه ﷺ بعث بالسنن التى لا تحصى ، وبالعلوم التى لا تستقصى ، إلى قوم مغمورين فى الجهالة والضلالة ، قد بلغ من جهلهم وضلالتهم أن يعبدوا الأصنام ، فدلهم على الله ، وأرشدهم إلى ما لا ينال إلا بتخصيص من المولى الوهاب ، فمن تأمل ذلك عرف أنه الآية الكبرى ، أى الدليل الأعظم على أن ما جاء به حق قال تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ (١) وقوله « ومن هو » إلخ أى ويا من هو ، إلخ ، فهو معطوف على المنادى فى البيت قبله ، ويحتمل أنه معطوف على « من » على ما قاله بعضهم ، كما علمت فى نظيره ، وقوله « النعمة العظمى لمغتنم » أى النعمة العظمى التى هى أعظم النعم للمريد أن يغتنم ما عند الله من السعادة الأبدية ، لأنه ﷺ أنقذ الخلائق من النار ، ومن الدخول فى دار البوار ، بالبيان الواضح ، والبرهان الناصح ، فمن أراد أن يغتنم فهو ﷺ النعمة العظمى له ولسائر العالمين ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين ﴾ (٢) .

(١) الشورى : ٥٢

(٢) الأنبياء : ١٠٧

(*) أى من هذا البيت إلى البيت ١١٥

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إلى حَرَمٍ كما سَرَى البدْرُ فى داجٍ مِنَ الظُّلَمِ (١٠٨)

(١٠٨) قوله « سريت » إلخ كأنه قال : ومن معجزاتك أنك سريت إلخ ، ومعنى سريت : سرت ليلا ، لأن السرى (١) هو السير ليلا ، وسرى وأسرى بمعنًى ، وقال السهيلى : سرى لازم ، وأسرى متعدً ، لكن كثر حذف مفعوله ، فظن أهل اللغة أنهما بمعنى ، فالمفعول فى قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾ (٢) محذوف ، والتقدير أسرى البراق بعبده ، فحذف المفعول استغناء عنه بذكر محمد ﷺ ، لأنه المقصود بالخبر ، أو حُذِفَ لقوة الدلالة عليه ، وقوله « من حرم » أى حرم مكة ، وقوله « ليلاً » أى فى ليل ، فإن قيل : إذا كان معنى سريت سرت ليلا ، ومعنى أسرى بعبده جعله ساريا ، أى سائراً ليلا ، فما فائدة قوله بعد ذلك « ليلا » ؟ أجيب بأن فائدته فى النظم والآية التأكيد ، كما قاله الجوهرى ، أو الإعلام بأنه فى جزء من الليل ، كما قاله الزمخشرى بقرينة تنكيره ، لأنه للتعليل ، ولو لم يذكر لاحتمل أن يكون ذلك فى الليل كله ، وليس كذلك ، قال الزمخشرى : « ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة ﴿ من الليل ﴾ أى بعضه ، وإنما خص الليل بذلك دون النهار ، لأنه وقت تفريغ البال ، وقطع العلائق ، وقيل : لأن الله تعالى لما محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر خاطر الليل ، فجُبِرَ بأن أُسْرِىَ فيه بمحمد ﷺ ، ولذلك قيل : افتخر النهار على الليل بالشمس ، فقيل : لا تفتخر ، فإن كانت شمس الدنيا تشرق فيك فسيُعْرَج بشمس الأرض فى الليل إلى السماء ، وقيل لأنه سراج ، والسراج إنما يوقد فى الليل ، وقيل : لأنه سمِّىَ بدراً فى قوله تعالى ﴿ طه ﴾ (٣) فإن الطاء بتسعة ، والهاء بخمسة ، وذلك أربعة عشر ، فكأنه تعالى قال : يا بدر ، وهذا يناسب قول الناظم كما سرى البدر ، ولله درُّ القائل حيث قال :

قلتُ يا سيــدى ولِمَ توثــر الليـــلَ علــى بهجةِ النهارِ المنيرِ
قال لا أستطيع تغيير رسمى هكذا الرسْمُ فى طلوعِ البدورِ
إنما زرتُ فـــى الظلام لِكَيْما يُشْرِقُ الليلُ مِـنْ أشعةِ نورى =

(١) السُّرى : بضم السين المشددة : « سير عامة الليل » كذا فى القاموس .

(٢) أول سورة الإسراء . (٣) أول سورة طه .

وَبِتَّ تَرْقَى إلى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً مِنْ قابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ (١٠٩)

= وقوله « إلى حرم » أى حرم بيت المقدس ، وقوله « كما سرى البدر » أى مثل سير البدر الذى هو القمر ليلة كماله ، وهى ليلة أربعة عشر ، سمى بذلك لأنه يبدر الشمس فى الطلوع ، ووجه التشبيه أنه ﷺ نور مبين كالبدر وأتمّ ، وقد قطع مسافة عظيمة فى ليل مظلم ، كما يسرى البدر المنير فى ليل مظلم ، مع سرعة السير ، وكمال الإنارة . والداجى : اسم للّيل المظلم ، يقال دجا الليل ، أى أظلم ، فهو داج ، أى مظلم ، فقوله « من الظلم » تكملة أى من ذى الظلم ، بضم الظاء وفتح اللام ، جمع ظلمة . و « من » للبيان المشوب بالتبعيض ، وفى هذا البيت إشارة إلى قصة الإسراء ، وقد ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾ (١) وحاصلها أنه ﷺ كان فى بيته ، أو فى المسجد على اختلاف الروايات فى ذلك - فجاءه جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر ، فاحتملاه وشقا صدره (٢) وغسله جبريل ، وملأه علما وحكمة وإيمانا ويقينا ، ثم أتى له بالبراق ، فركبه ، وسار وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، حتى وصل إلى بيت المقدس إلخ .

(١٠٩) قوله « وبت ترقى » إلخ عطف على قوله « سريت » إلخ أى وبعد وصولك إلى بيت المقدس بت ترقى أى تصعد ، فإنه ﷺ نُصبَ له معراج له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب ، وهو الذى تعرج عليه أرواح المؤمنين ، فدُليت له مرقاة فصعد عليها إلى سماء الدنيا ، فاستفتح جبريلُ البابَ ، فقيل : من بالباب ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل (٣) إليه ؟ قال : نعم قيل : مرحبا به وأهلا ، ونعم المجيء جاء . فلما جاوز السماء الأولى دليت المرقاة الثانية فصعد عليها إلى السماء الثانية ، وهكذا إلى السماء السابعة ، ثم إلى =

(١) أول سورة الإسراء .

(٢) شق الصدر حدث له ﷺ ثلاث مرات : مرة وهو صبى عند حليمة السعدية رضى الله عنها ، ومرة عند البعث ، ومرة عند الإسراء ، وكلها ثابت بالسنة الصحيحة ولا ينكره إلاّ مكابر معاند .

(٣) قال العلماء فى تفسير قوله « أوقد بعث إليه » هل المراد : بعث إليه بالرسالة أو بعث إليه يعنى طلب للسماوات ؟ والكلمة تحتمل المعنيين . والله تعالى أعلم .

= الكرسى ، ثم إلى سدرة المنتهى (١) ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، ثم دُلِّيَ له الرفرف ، وهو سحابة خضراء ، فصعد عليها إلى ما شاء الله تعالى ، وهذا المكان هو الذى أعدَّه الله للخطاب ، وفرض الصلوات ، وإلا فالله تعالى منزه عن المكان ، وقوله : « إلى أن نلت منزلةً » غاية لما قبله أى « إلى أن أعطيت مرتبة فى القرب » وقوله « من قاب قوسين » بيان للمنزلة ، لكن فى العبارة قلب ، والأصل من قابَىْ قوس ، أى من قدر ما بين قابى القوس ، لأن كل قوس له قابان ، وبينهما شىء قليل جداً ، فبينهما غاية القرب ، فكذلك بينه ﷺ وبين المولى ، فبينهما غاية القرب ، لكن المراد هنا القرب المعنوى (٢) . وقوله « لم تدرك » بالبناء للمجهول أى لم يدركها غيرك ، وقوله « ولم ترم » بالبناء للمجهول أيضا ، أى لم يرمها غيرك ، ولم يطلبها للعلم ، بأنها ليست إلا لك ، وفى هذا البيت إشارة إلى قصة المعراج ، وقد ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿ ثم دنى فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ وقد علمت حاصلها .

(١١٠) قوله « وقدمتك » إلخ عطف علي قوله « سريت » إلخ أيضا ، ثم إنه يحتمل أن المراد التقديم فى الرتبة والمكانة ، كما يدل عليه قوله « تقديم مخدوم على خدم » وذلك لأن الله قد أطلعهم على منزلته ﷺ بالوحى فى مدة حياتهم ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ (٣) الآية ، ويحتمل أن المراد =

---

(١) كان الأولى أن يقول : « ثم إلى سدرة المنتهى ، ثم إلى الكرسى » لأن سدرة المنتهى فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها ، والكرسى محيط بالعالم كله ، وهو جسم محسوس خلقه الله تعالى وجعله مركز إدارة العالم ، وإليه يتجه الناس بالدعاء وطلب الحاجة من الله تعالى لأن الله تعالى لا مكان له تعالى الله عن المكان والزمان .

(٢) كما تقول إن فلانا أقرب الناس إلى الله ، فليس معناه أن بين الله والناس مسافة ، وهو أقربهم مسافة - تعالى الله عن المكان ، إنما هو قرب محبة وود وتكريم ، والمكان الذى وصل إليه المصطفى ﷺ هابه جبريل ﷺ ، وقال له : « يا محمد أنت إن تقدمت اخترقت ، وأنا إن تقدمت احترقت » وأوحى إلى رسول الله ﷺ بالصلوات ، ومن هذا وأشباهه علم جبريل وغيره من الملائكة أن سيدنا محمد ﷺ أكرم الخلق على الإطلاق عند الله تعالى .

(٣) آل عمران : ٨١

وأنتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطباقَ بِهِمْ    فى مَوْكِبٍ كُنْتَ فيه صَاحِبَ العَلَمِ (١١١)

= التقديم فى الحس والخارج كما يدل عليه ما روى من أنه حشر له جميع الأنبياء والرسل ليلة الإسراء وصلى بهم فى المسجد الأقصى ، بعد أن أثنى كل على ربه بما هو أهله ، وكان ﷺ آخرهم فى ذلك ، فأثنى على الله بما ألهمه له ، فقال إبراهيم عند ذلك : « بهذا فضلكم محمد » [1] وذلك كان قبل المعراج على المشهور ، ولا يخفى أن الكاف مفعول ، و « جميع الأنبياء » فاعل ، وألحق الفعل التاء لأن « جميع » فى معنى جماعة ، أو لإضافته إلى جمع التكسير الذى يجوز تأنيثه ، وقوله « جميع الأنبياء » بالمد ، وقوله « بها » أى بتلك المنزلة أو الليلة المفهومة من قوله « ليلا » ، وقوله و « الرسل » أو وجميع الرسل ، فهو بالجر معطوف على الأنبياء ، ويحتمل أنه بالرفع معطوف على جميع ، وعلى الأول ، فهو صريح فى العموم ، وعلى الثانى فهو ظاهر فيه ، وهل كانت الأنبياء والرسل بأجسامهم وأرواحهم ، أو بأرواحهم فقط ، والراجح أنهم كانوا بأرواحهم فقط ، إلا عيسى وإدريس ، فإنهما كانا بروحهما وجسمهما ، وبعضهم رجَّح أن الأنبياء جميعاً كانوا بأجسامهم وأرواحهم ، وعطف الرسل على الأنبياء من عطف الخاص على العام ، كما هو المشهور لشرفهم ، وقوله « تقديم مخدوم على خدم » أى تقديما مثل تقديم مخدوم على خدم ، فهو بالنصب على المصدرية ، لكن على وجه التشبيه .

(١١١) قوله « وأنت تخترق » إلخ أى وقدمتك جميع الأنبياء ، والحال أنك تخترق ، بمعنى تقطع السموات السبع الطباق ، أى التى هى طبقة فوق طبقة ، قالوا « و » للحال ، لكنها حال منتظرة ، لا مقارنة ، ووصف السموات بأنها طباق ، =

---

(١) روى ابن جرير فى تفسيره أن رسول الله ﷺ قال بعد أن اثنى الأنبياء على الله تعالى فى بيت المقدس قبل عروجه إلى السماء : « كلكم أثنى على ربه وإنى مثن على ربى ، فقال : الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً ونذيراً ، وأنزل علىَّ الفرقان فيه بيان لكل شىء ، وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتى وسطا ، وجعل أمتى هم الأولون والآخرون ، وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكري ، وجعلنى فاتحاً خاتماً » فقال سيدنا إبراهيم : « بهذا فضلكم محمد ﷺ » ، قال أبو جعفر الرازى : خاتم بالنبوة ، فاتح بالشفاعة يوم القيامة » كذا من ابن كثير رحمه الله تعالى .

حَتّـى إذا لم تَـدَعْ شَأْواً لِمُستَبِقٍ مِـنَ الدُّنُـوِّ ولا مَرْقَى لِمُسْتَنِمِ (١١٢)

خَفَضْتَ كُـلَّ مَقَـامٍ بالإضافَـةِ إذْ نُودِيتَ بالرَّفْعِ مِثْلَ المُفْرَدِ العَلَمِ (١١٣)

---

= قوله تعالى : ﴿ سبع سموات طباقا ﴾ أى طبقة فوق طبقة ، وقوله « بهم » أى حال كونك ماراً بهم ، يعنى بالذى لقيه منهم ، ففى حديث الإسراء فى مسلم « أنه مر فى السماء الدنيا بآدم ، وفى الثانية بعيسى ويحيى ، وفي الثالثة بيوسف ، وفى الرابعة بإدريس ، وفى الخامس بهارون ، وفى السادسة بموسي ، وفى السابعة بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقوله « فى موكب » بكسر الكاف ، أى حال كونك فى موكب ، فهو حال أو هو خبر ثان لأنت ، والموكب الجمع العظيم المتلبس بهيئة عظيمة ، وقد كان معه ﷺ جبريل ، وما أعظمهما وأعظم هيئتهما ، وجملة «كنتَ فيه صاحب العلم » صفة لموكب : أى كنت فيه المشار إليه ، لأن العلم الرمح فى رأسه راية ، ومن شأن صاحبه أن يشار إليه ، وهو المراد ، فأطلق اسم الملزوم ، وأريد اللازم ، أو المعنى على التشبيه ، وكان جبريل يستفتح فى كل سماء فيقال له : ومن معك ؟ فيقول محمد ، كما تقدم ، وهذا يدل على أنه ﷺ هو المشار إليه فى ذلك الموكب .

(١١٢) قوله « حتى إذا » إلخ غاية لقوله وأنت تخترق إلخ ، و « إذا » ظرفية مجازية أى إلى مقام القرب . وقوله « لم تدع شأوا لمستبق » أى لم تترك غاية لطالب سبق ، فلم تدع بمعنى لم تترك ، و « شأوا » بفتح الشين المعجمة وسكون الهمزة ، وفى آخره واو ، أى غاية ، والمستبق : طالب السبق ، وهو الساعى ليسبق . والجار والمجرور متعلق بشأوا ، وقوله « من الدنو » بيان للشأو ، أى من القرب ، وقوله « ولا مرقى لمستنم » أى ولم تدع مرقى لمستنم ، والمرقى : محل الرقى ، وهو الدرجة ، والمستنم : طالب الرفعة وهو الساعى ليرتفع ، والجار والمجرور متعلق بمرقى ، وحاصل المعنى أنه ﷺ لم يزل يصعد إلى مقام القرب ، فلم يترك فيه غاية من القرب لطالب السبق ، ولم يترك درجةً لطالب رفعة ، وذلك المقام هو أعلى مقامات القرب ، وهو المعبر عنه فيما تقدم ، بقاب قوسين .

(١١٣) قوله « خفضت كل مقام » إلخ هذا البيت جواب إذا فى البيت قبله ، أى خفضت كل رتبة لغيرك ، وقوله « بالإضافة » أى بالنسبة إلى مقامك لا مطلقا ، وإلا فالأنبياء كلهم متصفون بالكمال ، لكنه ﷺ أكمل ، فمقام غيره منخفض بالنسبة =

كَيْما تَفوزَ بِوَصْلٍ أيِّ مُسْتَتِرٍ        عَنِ العُيُونِ وَسِرٍّ أيِّ مُكْتَتِمِ (١١٤)

= لمقامه المرتفع عن مقام كل مخلوق ، وإن كان ذلك المقام المنخفض مرتفعا فى نفسه ، وإنما انخفض بالنسبة لمقامه ﷺ . وإياك أن تعتقد أن غيره ﷺ من الأنبياء ليس متصفا بالكمال ، لأن ذلك كفر ، فالواجب عليك أن تعتقد أنهم متصفون بالكمال ، لكن نبينا أكمل ، وقوله « إذ نوديت بالرفع » أى لأنك نوديت من قبل الله تعالى نداء مصحوبا برفع شأنك إلى ما لم يصله أحد غيرك ، وهو أعلى مقامات القرب ، فإذ للتعليل ، وقيل : ظرف للزمان الماضى . وقوله : « مثل المفرد العلم » أى حال كونك مماثلا للمفرد العلم من حيث الاختصاص بكونه نودى نداء مصحوبا برفع لفظه ، فكما أن المفرد العلم خُصَّ بكونه نودى نداء مصحوبا بالرفع من بين أقسام المنادى ، فإنّ ما عداه منها منصوب ، كذلك ﷺ خُصَّ بكونه نودى نداء مصحوبا بالرفع من بين سائر الأنبياء ، فإنّ ما عداه منهم مخفوض المقام بالنسبة لمقامه ﷺ ، فإن قيل : المفرد العلم إنما نودى بالبناء على الضم لا بالرفع ، حتى يتم التشبيه ؟ أجيب بأن البناء على الضم رفع فى المعنى ، والمراد بالمفرد العلم : المعرفة ، من اطلاق الخاص وارادة العام ، لأن النكرة المقصودة من أقسام المعرفة عند المحققين ، فإنها تتعرف بالقصد والإقبال عليه كالمشار إليه ، وذلك كما فى قولك مقبلا على رجل مخصوص : يا رجل ، فالمقصود رجل معين لا شائع فى جنسه ، والظاهر أن التشبيه بالمفرد العلم إنما هو فى النداء بالرفع خاصة ، لا فى خفض مقامات غيره .

(١١٤) قوله « كيما تفوز » إلخ أى لكيما تفوز إلخ ، فاللام مقدرة قبل كى ، فتكون مصدرية ، وعلى هذا فكى هى الناصبة للفعل بنفسها . ويحتمل أن اللام ليست مقدرة قبلها ، فتكون تعليلية ، وعلى هذا فالناصب للفعل أن مقدرة بعدها ، لا هى نفسها على الصحيح ، و « ما » زائدة على الوجهين ، وعلى كل من الوجهين ، فهو علة لقوله « سريتَ وبتَّ » إلخ ، فالمعنى فعلتَ ذلك لأجل أن تفوز إلخ ، أى تظفر بوصل منَ اللهِ لَكَ ، حيث أحلك المنزلة التى رفعك إليها ، وناداك إلى الصعود إليها ، وقوله « أى مستتر عن العيون » بتشديد « أى » وجرها على أنها صفة لوصل ، وهو دال على معنى الكمال ، أى وصل كامل فى الاستتار عن العيون ، وقوله « وسر أىّ مكتتم » بتشديد أى وجرها على أنها صفة لسر ، وهو دال على معنى الكمال ، أى سر كامل فى الاكتتام عن الخلق ، ولا يخفى أن كـلا من مستتر ومكتتم بصيغة الفاعل ، =

فَحُزْتَ كُلَّ فَخَارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ وجُزْتَ كُلَّ مَقامٍ غَيْرَ مُزْدَحَمِ (١١٥)

= وبعضهم ضبط مكتتم بفتح التاءين ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ (١) كما يدل على ذلك حديث عائشة رضى الله تعالى عنها حيث قالت : يا رسول الله ما الذى أوحى إليك ربك إذ قال فأوحى إلى عبده ما أوحى ؟ قال : يا عائشة أتريدين أن تعلمى ما لا يعلمه جبريل ولا ميكائيل ولا نبى مرسل ولا ملك مقرّب ؟! فقالت : أسألك بأبى بكر إلا ما أعلمتنى ، فقال : إنى لما كنت قاب قوسين ، قلت اللهم إنك عذبتَ الأمم بعضهم بالحجارة ، وبعضهم بالمسخ ، وبعضهم بالخسف ، فما أنت فاعل بأمتى ؟ فقال : أنزل عليهم الرحمة من عنان السماء ، وأبدل سيئاتهم حسنات ، ومَنْ دعانى منهم لبيته ، ومن سألنى أعطيته ، ومن توكل علىَّ كفيته ، وفى الدنيا أستر على العصاة ، وفى الآخرة أشفعك فيهم ، ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه ، لما حاسبتُ أمتك . ولما أردتُ الإنصراف قلت : يارب لكل قادم من سفره تحفة ، فما تحفة أمتى ؟ قال الله تعالى : « أنا لهم ما عاشوا ، وأنا لهم إذا ماتوا ، وأنا لهم فى القبور ، وأنا لهم فى النشور » كذا فى بعض الشروح .

وذكر جمع من الشراح ما نصه : وهذا السر مأخوذ من حديث : « علمنى ربى ليلة الإسراء علوماً شتى ، فعلم أخذ علىَّ كتمانه ، وعلمٌ خيَّرنى فيه ، وعلمٌ أمرنى أن أبلغه ، قال على رضى الله عنه : فكان يُسرُّ إلى أبى بكر وعمر وعثمان ، وإلىَّ ماخير فيه » (٢) أ هـ . لكن لم يوقف على أصل لذلك فى كتب الحديث .

(١١٥) قوله « فحزت » إلخ فبسبب ما نلت من تلك المرتبة حزت إلخ ، والحيازة بالحاء المهملة : الجمع ، فمعنى حزت جمعت ، وقوله « كل فخار » مفعول لحزت ، والفخار بفتح الفاء كما هو المسموع وإن كان القياس الكسر ، لقول ابن مالك فى الخلاصة : =

(١) النجم : ١٠

(٢) عند ابن كثير فى تفسير سورة النجم ما نصه : « وقد ذكر سعيد بن جبير فى قوله تعالى : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ قال : ﴿ أوحى الله إليه ﴾ ﴿ ألم أجدك يتيما ﴾ ورفعنا لك ذكرك وقال غيره : أوحى الله إليه : أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك .

وجَــلَّ مِقْدارُ ما وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ وعَزَّ إدْراكُ ما أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ (١١٦)
بُشْرَى لنا مَعْشَرَ الإسْلامِ إنَّ لنا مِــنَ العِنايَةِ رُكْناً غَيْرَ مُنْهَدِمِ (١١٧)

---

= لفاعل الفعال والفاعله وغير ما مرَّ السماع عادله

وهو ما يفتخر به من الفضائل ، وقوله « غير مشترك » أى بينك وبين غيرك ، بل هو مختص بك ، وقوله « وجزتَ » بالجيم والزاى ، أى عبرت وتجاوزت ، وقوله « كل مقام » مفعول لجزتَ ، والمقام : الرتبة ، وقوله « غير مزدحم » بفتح الحاء أى مزدحم فيه لعدم الواصلين إليه ، وهو من باب الحذف والإيصال ، ولا يخفى أن لفظ « غير » فى الموضعين مجرور على أنه صفة للمجرور قبله ، وحاصل المعنى : فبسبب ما نلت من تلك المرتبة جمعتَ كل ما يُفْتَخَر به من الفضائل المختصة بك ، وعبرت وتجاوزت كل رتبة غير مزدحم فيها ، لأنه لا يصل إليها غيرك .

(١١٦) قوله « وجل » إلخ أى عظم ذلك ، فلا يحاط به ، وقوله « ما وليت » بالبناء للمفعول أى ما ولاك اللّه ، وقوله « من رتب » بيان لما ، والرتب المناصب الشريفة ، وقوله « وعز » بفتح العين وتشديد الزاى : أى امتنع ذلك ، فلا يحصل لأحد غيرك ، وقوله « ما أوليتَ » بالبناء للمفعول ، أى ما أولاك مولاك . وقوله « من نعم » بيان لما ، والمراد من النعم الأمور المنعم بها ، وكل من الجملتين إما مستأنف أو معطوف على ما تقدم .

(١١٧) قوله « بشرى لنا » إلخ أى هذه المناقب بشرى لنا إلخ ، فبشرى : خبر مبتدأ محذوف ، ولنا : خبر ، وساغ الابتداء ببشرى ، لأنها فى معنى النكرة الموصوفة ، فإنها بمعنى الخبر السار ، وقوله « معشر الإسلام » أى معشر أهل الإسلام ، وهو منصوب على الاختصاص ، أى أخص معشر الإسلام ، وقوله « إن لنا من العناية ركنا غير منهدم » أى إن لنا جميع المسلمين من أجل العناية بنا فى الأزل شريعة غير متغيرة بالنسخ ، فالمراد بالركن الشريعة ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، حيث شبه الشريعة بمعنى الركن بجامع الثبات فى كل ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، والمراد بالانهدام : التغير ، لكن لا مطلقا ، بل بخصوص النسخ ، أماتنا اللّه على سنته ، واتباع ملته بمنه وفضله ورحمته .

لمّا دَعَــا اللّهُ داعينــا لِطاعَتِــهِ   بِأكْرَمِ الرُّسْــلِ كُنّا أكْــرَمَ الأمَمِ (١١٨)
راعتْ قلوبَ العِدا أنباءُ بَعْثَتِهِ   كنَبْأَةٍ أجْفَلَتْ غُفْــلاً مِــنَ الغَنَمِ (١١٩)
ما زالَ يَلقاهُمُ فــى كُــلِّ مُعْتَرَكٍ   حَتّى حَكوا بِالقَنا لَحْما على وَضَمِ (١٢٠)

---

(١١٨) قوله « لمّا دعا اللّه » إلخ أى لما سمى اللّه إلخ ، ولا يخفى أن لمّا شرطية ، ودعا فعل الشرط ، واللّه فاعل ، وداعينا : مفعول ، ولطاعته متعلق بداعينا ، وبأكرم الرسل متعلق بدعا ، و « كنا أكرم الأمم » جواب الشرط ، والمعنى : لما سمى اللّه النبى ﷺ الذى دعانا ، أى طلبنا لطاعته تعالى « بأكرم الرسل » كنا معشر أمته أكرم الأمم ، لأن أكرم الرسل لا يبعث إلا لأكرم الأمم ، وفى التنزيل ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ (١) وجعل بعض الشراح داعينا بدلا من الفاعل ، وجعل لطاعته متعلقا بدعا والمعنى عليه : لما دعانا اللّه وهو داعينا لطاعته بواسطة أكرم الرسل ، كنا أكرم الأمم ، والأوّل أقرب كما لا يخفى .

(١١٩) قوله « راعت » إلخ أى أفزعت إلخ ، وهذه الجملة مستأنفة ، وقلوب بالنصب مفعول مقدم لراعت ، لكن على تقدير مضاف ، أى أصحاب قلوب ، ويحتمل أنه سمى الذوات بالقلوب ، فيكون قد عبَّر باسم الجزء ، وأراد الكل على سبيل المجاز المرسل ، والعدا : بالكسر والقصر جمع عدو ، والمراد بهم الكفار ، وأنباء بعثته : بالرفع فاعل مؤخر لراعت ، ولا يخفى أن إسناد راعت إلى أنباء البعثة من المجاز العقلى ، لأن موجد الروع فى القلوب هو اللّه تعالى ، وأنباء بعثته إنما هى سبب ، فهو من إسناد الفعل إلى سببه ، والمراد بأنباء بعثته أخبارها التى صدرت من الكهان والأحبار وغيرهم ، كقولهم : إنه سيظهر دين يغلب كل دين ، وإنما أفزعتهم لغفلتهم عنها كما يؤخذ من التشبيه بعد ، ولو كانوا ملتفتين إليها ما فزعوا منها ، وقوله « كنبئة » أى مثل نبئه أى زأرة الأسد ، التى هى صوته ، وجملة أجفلت بالجيم والفاء ، أى أفزعت صفة لنبئة ، وغفلا : بضم الغين سكون الفاء جمع غافل ، وهو مفعول لأجفلت ، وقوله « من الغنم » بيان لغفلاً ، مشوب بتبعيض ، وإنما كانت غفلا لكونها راتعة فى ربيعها مشتغلة فى أكلها وشهواتها ، فأجفلها ذلك الصوت وفرَّقها .

(١٢٠) قوله « ما زال » إلخ أى لم ينفك ﷺ عن كونه يلقاهم بنفسه تارة ، وبخيله ورجله أخرى ، فى كل معترك وقع بينه ﷺ وبينهم ، ويلقاهم بالإشباع (٢) ، والجار =

---

(١) آل عمران : ١١٠   (٢) أى بإشباع ضمة الميم .

وَدّوا الفَرارَ فكادوا يَغْبِطونَ بِهِ أشْلاءَ شالتْ مَعَ العِقْبانِ والرَّخَمِ (١٢١)

= والمجرور متعلق به ، والمعترك بفتح الراء محل الاعتراك ، أى الازدحام للحرب ، وقوله « حتى » إلخ غاية لقوله « ما زال يلقاهم فى كل معترك » وقوله « حكوا » بفتح الكاف ، لأن أصله حكيوا قلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين ، ومعنى حكوا : شابهوا ، وقوله « بالقنا » أى بطعن القنا ، فهو على تقدير مضاف ، والباء للسببية ، أى بسبب طعنهم بالقنا ، وكذا بسبب ضربهم بالسيوف ، ورميهم بالنبل ، والقنا : جمع قناة وهى الرمح ، ولحما : مفعول لقوله حكوا ، وقوله « على وضم » متعلق بمحذوف صفة للحما ، والوضم بالضاد المعجمة ما يضع القصاب اللحم عليه ، معداً لمن يأخذه ، وهو المسمى بالطبلية ، وقيل : إنه الحديد الذى يُغرز فيه اللحم حين يُشوى ليؤكل ، وحاصل المعنى أنه ﷺ ما زال يقاتل الكفار حتى تركهم قتلى معدين لأكل السباع والطيور لحومهم ، ويقال للذليل الحقير : « لحم على وضم » بطريق الاستعارة ، ويحتمل أن يكون هو المراد هنا كما يحتمل الحقيقة .

(١٢١) قوله « ودّوا الفرار » إلخ أى تمنوا الهرب منه ﷺ ، وإنما تمنوه مع أنه أقبح الخصال وأذمها عند العرب ، فإنه من أفعال اللئام ، وما كانوا يرضون به فضلا عن تمنيه لما استمر فيهم من القتل ، ولما كثرت ودادتهم للفرار ، وصار من شهواتهم المطلوبة لهم ، ولاتَ حين فرار لهم من غضب اللّه تعالى الذى حل بهم على يد رسول اللّه ﷺ ويد المؤمنين ، نزّل هربهم منزلة المحال الذى لا ينال إلا بالتمنى ، وقوله «فكادوا يغبطون به أشلاء شالت مع العقبان والرخم » أى فلتمنيهم ذلك قربوا من أن يغبطوا بذلك الفرار ، أشلاء : على وزن أشياء أى أعضاء شالت أى ارتفعت حال كونها مع العقبان ( بكسر العين ) جمع عقاب [١] ، وهو نوع من الطير ، ومع الرخم جمع رخمة ، وهى نوع من الطير أيضاً ، وإنما خص هذين النوعين لعظم ارتفاعهما دون غيرهما ، والغبطة هى تمني الشخص أن يحصل له مثل ما حصل لغيره ، فكأنهم يقولون يا ليت لنا مثل ما لأعضاء اللحم التى ارتفعت مع العقبان والرخم إلى منازلها . وأشلاء جمع شلو بكسر الشين وسكون اللام وهو العضو من اللحم ، وإنما غبطوا الأعضاء دون العقبان والرخم التى ارتفعت بها لما بينهم وبين تلك الأعضاء من المشابهة لأنهم لا حركة لهم ولا قوة بسبب طعن القنا وغيره ، فحالتهم كحالة الأعضاء لا كحالة العقبان والرخم .

(١) قال فى القاموس : والعُقاب – بضم العين – طائر جمعه أعقُبٌ وعِقبان – بكسر العين .

تَمْضِى الليالى ولاَ يدرونَ عدَّتَها     ما لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيالِى الأشْهُرِ الحُرُمِ (١٢٢)
كـأنَّمَا الدِّينَ ضيفٌ حَـلَّ ساحَتَهُم     بِكُـلِّ قَـرْمٍ إلى لَحْمِ العِـدَا قَـرِمِ (١٢٣)

---

(١٢٢) قوله « تمضى الليالى » إلخ أى تمر عليهم الليالى بأيامها ، والحال أنهم لا يعلمون عددها من شدة ما دخل فى قلوبهم من الفزع ، وخامر بواطنهم من الهلع ، بسبب جهاد النبى ﷺ والمؤمنين لهم ، فيسكرون من الخوف ، وتذهب عقولهم ، وينعدم تمييزهم ، فلا يدرون عدة الأيام بلياليها ، وعلم مما تقرر أن الواو فى قوله « ولا يدرون عدتها » واو الحال ، وقوله « ما لم تكن من ليالى الأشهر الحرم » أى ما لم تكن تلك الليالى من ليالى الأشهرم الحرم التى هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، بخلاف ما إذا كانت تلك الليالى من ليالى الأشهر الحرم المذكورة ، فإنها تمضى عليهم ويدرون عدتها ، لكونهم يفيقون من سكرهم من الخوف وترجع إليهم عقولهم ، ويوجد لهم تمييزهم ، لإمساك النبى والمؤمنين عن جهادهم فى الأشهر الحرم فى صدر الإسلام عند من رأى أن منع قتالهم فيها نسخ ، وقال عطاء : لم ينسخ ، وهو ضعيف ، وما ذكرناه فى عدِّ الأشهر الحرم هو الصحيح ، وقيل : هى المحرم ، ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، وعلى الأوّل فهى من سنتين ، وعلى الثانى فهى من سنة ، ويترتب على الخلاف ما لو نذر صومها مرتبةً فيصوم على الأوّل ذا القعدة أولاً إلى آخرها ، ويصوم على الثانى المحرم إلى آخرها .

(١٢٣) قوله « كأنما الدين » إلخ أى كأنما دين الإسلام ضيف حل ونزل ساحة الكفار ، فالضمير فى ساحتهم عائد على الكفار كما قال بعض الشارحين ، وهو قضية السياق ، أو ساحة الصحابة ، فالضمير فى ذلك راجع للصحابة كما قاله بعض الشارحين ، وهو المسموع من المشايخ ، وقوله « بكل قرم » بفتح القاف ، وسكون الراء ، أى مع كل شجاع ، لأن هذا الضيف الذى وقع التشبيه به شجاع ، فلذا نزل مع شجعان أمثاله ، فالباء بمعنى « مع » ، والقرم بفتح فسكون : الشجاع ، وقوله إلى لحم العدا قرم ، بفتح القاف وكسر الراء : أى شديد الشهوة إلى لحم العدا للمسلمين ، فالقرم بفتح فكسر : شديد الشهوة ، والجار والمجرور متعلق به ، وحاصل المعنى على جعل الضمير فى ساحتهم عائداً على الكفار ، كأنما دين الإسلام ضيف حل ساحة الكفار ، مع كل شجاع شديد الشهوة إلى لحم العدا للمسلمين ، ومن شأن الضيوف إذا كانوا كراما أن يشبعوا عند المضيف لهم مما يشتهون ، وفيه - على هذا - إقامة الظاهر مقام المضمر ، وإلاَّ فكان مقتضى الظاهر أن يقول إلى لحمهم ، ونكتته =

يَجُـرُّ بَحْـرَ خَميسٍ فَـوْقَ سابِحَةٍ يَرْمِي بِمَوْجٍ من الأبطالِ مُلْتَطِمِ (١٢٤)

مِـنْ كُـلِّ مُنْتَدِبٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبٍ يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ للكُفْرِ مُصْطَلِمِ (١٢٥)

---

= التصريح بوصفهم بالعداوة للمسلمين ، وحاصل المعنى على جعل الضمير فى ساحتهم راجعاً إلى الصحابة ، كأنما دين الإسلام ضيف ، حل ساحة الصحابة مع كل شجاع شديد الشهوة إلى لحم العدا للمسلمين ، ومن شأن المضيف أن يشبع ضيوفه مما يشتهون ، وعلى كل فالغرض من ذلك الإخبار بكثرة القتل فى الكفار .

(١٢٤) قوله « يجر » إلخ أى يستتبع هذا القرم ( بفتح القاف وسكون الراء ) الذى هو الشجاع ، فالمراد بالجر هنا الاستتباع ، فيكون قد شبه الاستتباع بالجر ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، ثم اشتق منه يجر بمعنى يستتبع ، ويحتمل أنه شبه الخميس الذى هو كالبحر بدابة تجر برسن تشبيها مضمرا فى النفس ، وحذف اسم المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وهو الجر ، فهو تخييل للاستعارة بالكناية ، وقوله « بحر خميس » أى خميس كالبحر فى تموجه وإهلاكه الكفار ، فهو من إضافة المشبه به للمشبه ، والخميس هو الجيش العظيم ، سمى بذلك لأنه مركب من خمس قوائم : مقدمة ، وميمنة ، وميسرة ، وساقة ، وقلب . وقوله « فوق سابحة » أى كائن فوق خيل سابحة ، أى مسرعة فى طلب الكفار كالسابح فى البحر ، وقوله « يرمى بموج » إلخ صفة للخميس ، والمراد بالموج ما يصل إلى الكفار من الطعن والقتل وغيرهما ، فيكون قد شبه ذلك بمعنى الموج ، واستعار اسم المشبه به للمشبه على طريق التصريح ، وقوله « من الأبطال » أى صادر ذلك الموج من الأبطال ، وإنما لم يقل منهم ، مع أن الأبطال نفس الجيش ، لإفادة أن ذلك الجيش كله أبطال ، والأبطال : جمع بطل ، وهو الشجاع ، وقوله « ملتطم » صفة لموج ، أى ملتطم بعضه ببعض .

(١٢٥) قوله « من كل منتدب » إلخ الجار والمجرور بدل من الجار والمجرور قبله ، أى من كل مجيب إلخ ، فالمنتدب – بكسر الدال – على أنه اسم فاعل ، وضبطه بعض الشروح بفتحها ، على أنه اسم مفعول بمعنى مدعوّ ، وعلى كل فقوله « للّه » متعلق به ، وقوله « محتسب » أى مدخر ثواب عمله عند اللّه ، وقوله « يسطو » أى يصول ، وقوله « بمستأصل للكفر » أى بآلة مستأصلة لأهل الكفر كالسيف وغيره من آلة القتال ، أى مزيل لهم من أصلهم ، يقال : استأصله إذا أزاله من أصله ، وقوله «مصطلم » أى مهلك لهم ، يقال : اصطلمه إذا أهلكه ، وفى الصحاح : الاصطلام : الاستئصال ، وعليه فهو توكيد .

حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الإسْلامِ وَهِيَ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِها موصولَةَ الرَّحِمِ (١٢٦)
مَكْفُـــولَةً أبـــداً مِنهُمْ بِخَيْـرِ أبٍ وخَيْـرِ بَعْلٍ فَلَمْ تَيْتَمْ ولَمْ تَئِمِ (١٢٧)

---

(١٢٦) قوله « حتى غدت » إلخ أى وما زال هذا المنتدب يسطو بمستأصل لأهل الكفر إلى أن غدت إلخ ، فهو غاية لمحذوف ، وغدت بمعنى صارت ، وهو بالغين المعجمة ، وقوله « ملة الإسلام » أى ملة هى الإسلام ، فالإضافة فى ذلك من إضافة الأعم إلى الأخص ؛ لأن الملة تشمل سائر الأديان . وقوله « وهى بهم » أى وهى مصحوبة بالصحابة ، والجملة اعتراضية بين اسم « غدت » وهو « ملة الإسلام » وخبرها ، وهو « موصولة الرحم » . وقوله « من بعد غربتها » متعلق بغدت ، بمعنى صارت ، والمراد بغربتها عدم شهرتها لقلة من ينتمى إليها ، وقوله موصولة الرحم بالنصب ، على أنه خبر لغدت كما علمتَ ، والمراد بكونها موصولة الرحم كثرة القيام بحقها بسبب كثرة من ينتمى إليها ، ويدخل فيها ، وقد شبه كثرة القيام بحقها بوصل الرحم ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، وأشار بذلك إلى حديث مسلم « بدا الإسلام غريبا » (١) أى ظهر بين قوم لا يقومون بحقه ، فهو مقطوع الرحم ، ثم قامت الصحابة بحقه فصار موصول الرحم .

(١٢٧) قوله « مكفولة » إلخ أى محفوظة ، وهو خبر ثان لغدت ، وقوله « أبدا » ظرف لقوله مكفولة ، وقوله « منهم » أى من الكفار ، وقوله « بخير أب وخير بعل » هو النبى ﷺ ، فإنه أشفقُ على أمته من الأب على أولاده ، وأقوَم بمصالحهم من =

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ، والترمذى وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود ، وابن ماجه عن أنس ، والطبرانى عن سيدنا سلمان وسهل بن سعد وابن عباس .

وروى البيهقى فى شعب الإيمان عن شريح بن عبيد مرسلاً : « إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا ، فطوبى للغرباء ، ألا إنه لا غربة على مؤمن ، ما مات مؤمن فى أرض غربة غابت عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » ورواه ابن جرير ، وابن أبى الدنيا إلا أن فى روايتهما « ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ ثم قال : إنهما لا يبكيان على كافر » وهو مروى عن أنس وجابر ، وسعد بن أبى وقاص ، وسهل بن سعد ، وسلمان وابن عباس ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وعمر ، وعلى ، وعمرو بن عوف ، وواثلة ، وأبى أمامة ، وأبى الدرداء ، وأبى سعيد ، وأبى موسى وغيرهم ، فهو مشهور أو متواتر كذا من « كشف الخفاء » للعجلونى .

هُمُ الجِبالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصادِمُهُمْ ماذا رَأى مِنْهُمْ فى كُلِّ مُصْطَدَمِ (١٢٨)

---

= البعل على زوجاته (١) ومثله ﷺ من يقوم مقامه من الخلفاء الراشدين والعلماء المهديين ، ولا شك أن المرأه التى كفلها خير أب وخير بعل (٢) فى غاية من المكانة ، ورفاهية من العيش ، وقوله « فلم تيتم » ( بفتح التاءين وسكون المثناة التحتية بينهما ) أى من جهة الأب ، وقوله « ولم تئم » بفتح التاء وكسر الهمزة أى من جهة البعل ، ففى ذلك لف ونشر مرتب ، يقال : يتم الولد بكسر التاء ييتم بفتحها إذا مات أبوه وهو صغير ، ويقال : آمت المرأة تئيم كباعت تبيع ، إذا خلت من زوجها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ (٣) .

(١٢٨) قوله « هم الجبال » إلخ هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، لأنها جواب عمّا يقال من الذين صارت بهم الملة إلى هذه الحالة ، والكلام على التشبيه ، أو هم كالجبال فى الصبر والصلابة ، وهذا يسميه البيانيون تشبيها بليغا ، لا استعارة ، وقوله « فسل عنهم مصادمهم » أى إن ارتبت فى هذا ، فسل عنهم مَنْ صادمهم من أعدائهم ، ولعلّ مراده فسل عنهم مؤرخ أخبار مصادمهم على تقدير حياته ، وإلا فكيف يتصوّر سؤاله الآن ، وقد مات من مدة مئين من السنين حتى عاد رفاتا ؟ والمصادمة اصطكاك الصفين ، ، وقوله « ماذا رأى منهم » أى من الشدة التى لا توصف لعظمها ، و « ما » اسم استفهام مبتدأ ، و « ذا » اسم موصول ، خبر اى ، أى شىء الذى رأى ، ويصح أن تكون « ماذا » بتمامها اسم استفهام ، وعلى هذا فهو مفرد بخلافه على الأوّل فهو جملة ، وقوله « فى كل مصطدم » بفتح الدال ، أى فى كل مكان الاصطدام الذى هو اصطكاك الصفين ، كما مرّ ، والمراد بالمصطدم الأماكن التى التقوا فيها مع أعدائهم ، وبين مصادمهم ومصطدم تجنيس الاشتقاق ، وهو ردّ الصدور على الإعجاز . =

---

(١) ولذلك قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى بالمؤمنين فى كتاب الله ، فأيكم ما ترك دينا أو ضيعة فادعونى فأنا وليه ، وأيكم ما ترك مالاً فليؤثر بماله عصبته من كان » رواه مسلم .

ويشير بقوله « فى كتاب الله » إلى قوله تعالى ، فى سورة الأحزاب الآية ٦ ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ .

(٢) هو رسول الله ﷺ . (٣) النور : ٣٢

وَسَلْ حُنَيْناً وَسَلْ بَدْراً وَسَلْ أُحُداً     فُصُولُ حَتْفٍ لَهُمْ أَدْهَى مِنَ الوَخَمِ (١٢٩)

---

= ومن هنا إلى قوله « طارت قلوب العدا » إلخ خاصيتها أن من كتبها على باب بلد ، أو دار ، أو بستان ، ما دامت مكتوبة لا يصل إلى ذلك سارق ولا دود ولا غير ذلك ، قال قائل هذه الفائدة : قد جُرِّبَتْ فى القمح والشعير وغيرهما ، وقال أيضا : كتبت هذه الأبيات على باب دار ، فجاء السارق فسمع صوتا فى الدار ، فرجع ، ثم قال لأصحابه ذلك ، فأخبروه بأن صاحب البيت غائب جمعتين ، ثم رجع ثانى ليلة ، فسمع فيه صوتا يقول له ما غبت شيئا ، ومنعه الله ببركة هذه الأبيات (١) .

(١٢٩) قوله « وسل حنينا » إلخ أى وسل زمن غزوة حنين ، وسل زمن غزوة بدر ، وسل زمن غزوة أحد ، ويحتمل أن يكون مراده : وسل أهل حنين وسل أهل بدر وسل أهل أحد ، أو وسل مؤرخ وقعة حنين ، وسل مؤرخ وقعة بدر ، وسل مؤرخ وقعة أحد ، والتفسير الأوّل أولى لأن قوله « فصول حتف » بدل من حنين ، وما عطف عليه بدل مجمل من مفصل ، وبعضهم جعله خبر مبتدأ محذوف ، أى هى فصول إلخ ، ومعنى قوله « فصول حتف لهم » أزمنة موت للكفار ، وقوله « أدهى من الوخم » أى أشد داهية عليهم لما يصيبهم فيها من الوخم الذى هو الوباء ، فإن ما يموت منهم فى زمن الوباء مع تطاوله لا يبلغ كثرة من يموت منهم فى زمن مقاتلة المؤمنين لهم مع قصره ، كالساعة الواحدة . وكانت غزوة حنين بعد فتح مكة سنة ثمان ، وهو اسم لواد بين مكة والطائف ، وفيه التقى رسول الله ﷺ والمسلمون مع المشركين ، فانهزم الكفار ، وقتل منهم كثير ، وسبيت أموالهم ونساؤهم ، وكانت غزوة بدر من غير قصد من المسلمين إليها فى يوم الجمعة سنة ثنتين ، و « بدر » اسم ماء على طريق مكة بينه وبين المدينة ثمانية وعشرون فرسخا ، وعنده كانت هذه الغزوة ، وقتل فيها من صناديد قريش سبعون ، وأسر منهم سبعون ، وكان عددهم نحو ألف ، والمسلمون نحو ثلثمائة ، =

---

(١) بشرط أن يكون القمح والشعير ، وغيره ، مزكى ، وإلاَّ فلا ، وأن يكون المنزل والبستان من منازل أهل الله ، وكم رأينا منازل وبيوتا فيها القرآن وكتب الحديث ، وسرقت ، لأن أصحابها لم يتقوا الله فى كسبهم وطعامهم ، فالشرط الأساسى تقوى الله تعالى .

ولم يذكر الشيخ ذلك ، لأن الناس فى وقته كانوا يؤدون الزكاة ويحفظون منازلهم بالصدقة . والسر الذى بينهم وبين الله تعالى محفوظ فى قلوبهم ، ومن حفظ الله حفظه الله .

الْمُصْدِرِى البِيضَ حُمْراً بَعْدَ ما وَرَدَتْ   مِنَ العِدا كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللِّمَمِ (١٣٠)
والكَــاتِبِينَ بِسُمْرِ الخَطِّ مَــا تَرَكَتْ   أَقْلامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ (١٣١)

---

= وروى أنه نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ، وميكائيل في خمسمائة ، في صورة الرجال على خيل بلق ، عليهم ثياب بيض ، وعلى رؤسهم عمائم بيض ، قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم ، ولم تقاتل الملائكة في سوى يوم بدر ، وإنما يكونون عددا ومددا ، وكانت غزوة أحد في شوال سنة ثلاث ، وهو اسم لجبل بالمدينة كانت الوقعة فيه ، واستشهد فيها من المسلمين سبعون ، منهم حمزة ، وقتل من المشركين اثنان وعشرون رجلا ، وكان المسلمون سبعمائة ، والمشركون ثلاثة آلاف ، والحرب سجال ، واحدة لنا ، وواحدة علينا .

(١٣٠) قوله « المصدرى البيض » إلخ أى أمدح المصدرى البيض ، إلخ فهو مفعول لفعل محذوف وأصله : المصدرين ، لكن حذفت نونه للإضافة إن جعلنا المصدرى مضافا للبيض ، أو للتخفيف إن جعلناه غيره مضاف ، والمصدرين جمع مصدر بضم الميم ، من أصدر عن الماء : رجع ، ويقال : أصدره غيرع أى أرجعه ، والمراد من البيض السيوف المصقوله ، فشبه السيوف المذكورة بإبل بيض ، أوردت ينبوعا أسود يجرى بماء أحمر ، ثم أصدرت عنه حمراء من تلبسها بالماء الذى وردته ، تشبيها مضمرا فى النفس ، وطوى لفظ المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو الإصدار ، ففيه استعارة بالكناية وتخييل ، وقوله « حمرا » أى من الدماء التى خالطتها ، وهو حال من البيض ، وقوله « بعد ما وردت » أى بعد ورودها ، فما مصدرية ، وقوله « من العدا » حال من قوله « كل مسود » الواقع مفعولا لقوله وردت ، وقوله « من اللمم » أى الشعر المجاور شحمة الأذن ، فاللمم بكسر اللام ، وجمع لمة ، وهى الشعر المذكور ، و « من » زائدة ، لأن المعنى على الإضافة ، والتقدير كل مسود اللمم ، فحاصل المعنى أمدح الصحابة الذين أصدروا أى أرجعوا السيوف البيض حال كونها حمراء من الدماء بعد ورودها كل شخص مسود اللمم ، حال كونه من العدا ، وفى ذلك دليل على شجاعة الصحابة رضى الله تعالى عنهم حيث لا يرضون إلا بقتل سود اللمم من العدا ، وهم الشبان فى الغالب .

(١٣١) قوله « والكاتبين بسمر الخط » إلخ عطف على قوله المصدرى البيض ، وأراد من الكاتبين الطاعنين ، فيكون قد شبه الطعن بالكتابة ، بجامع التأثير فى =

= كل ، واستعار الكتابة للطعن ، واشتق من الكتابة بمعنى الطعن الكاتبين بمعنى الطاعنين ، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، والمراد بسمر الخط : الرماح الخطية فالسمر جمع أسمر ، وهو الرمح ، والخط شجرة تتخذ منه تلك الرماح [1] وقيل : موضع باليمامة تجلب إليه تلك الرماح من الهند ، وقوله « ما تركت أقلامهم حرف جسم غير منعجم » أى لم تترك أسنة رماحهم طرف جسم من أجسام الكفار غير مزال عجمته ، بل أزالت عجمته ، أى خفاءه بالطعن ، بأن طعنته ليتميز الكفار من المؤمنين ، فإن الأمر مختلط فى الحروب ، فيتميز الكافر بطعنه ، والمؤمن بسلامته كما يتميز الحرف المعجم بنقطه ، والمهمل بخلوه عن النقط ، فالمراد بأقلامهم : أسنة رماحهم ، فيكون قد شبه أسنة رماحهم بالأقلام ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية ، والحرف بمعنى الطرف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ [2] أى على طرف وجانب من الدين ، وفى هذا البيت لطائف : منها تشبيه الصحابة بالكتبة ، وأسنة رماحهم بالأقلام ، وذلك دليل على غاية إحكامهم للطعن بها ، حتى أنها فى أيديهم كالأقلام فى أيدى الكتبة وليس عليهم كبير مشقة فى التصرف بها ، ومنها الإشارة إلى أنهم لا يطعنون طعنة إلا فى محلها ، كما لا تنقط الكتبة نقطة إلا فى محلها ، ومنها الإشارة إلى أنهم أعجموا حروف أجسام الكفار ، ليتميزوا من المسلمين ، ويوجد فى بعض النسخ بيت وهو :

إن قام فى جامع الهيجاء خاطبهم  تصاممت عنه أذنا صمة الصم

أى إن قام فى مجتمع الحرب خاطب الصحابة تغافلت عنه أذنا صمة الصمم ، أى أشدّهم شجاعة ، قال العلامة ابن مرزوق : وهذا البيت لم يثبت فى روايتى ، وإنما هو فى بعض النسخ ، والظاهر أنه ليس من كلام الناظم ، ولذلك وقع الاضطراب فى تفسيره ، وهذا شأن كثير مما أدخل فيه ، وفى ذلك دلالة على خلوص نيته ، وصدق محبته رحمه الله تعالى ، ونفعنا ببركاته آمين .

---

(١) الرماح الخطية : نسبة إلى مرفإ للسفن فى البحرين تباع به الرماح . قال فى القاموس : «ومرفأ السفن بالبحرين ، وإليه نسبت الرماح لأنها تباع به ، لا إنه منبتها » .

(٢) الحج : ١١

شاكِى السِّلاحِ لَهُمْ سيما تُمَيِّزُهُـمْ والوَرْدُ يَمْتازُ بالسِّيما عَنِ السَّلَمِ (١٣٢)
تُهْدِى إليكَ رِياحُ النَّصْـرِ نَشْرَهُمْ فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ فى الأَكْمامِ كُلَّ كَمِى (١٣٣)

---

(١٣٢) قوله « شاكى السلاح » إلخ أى حادّيه كما عليه الجوهرى ، وبعضهم فسره بتامّيه أى جامعين لأنواعه ، والمناسب لأخذه من الشوكة التى هى الحدة الأول ، وتركيب شاكى السلاح كتركيب المصدرى البيض ، فأصله شاكين السلاح ، لكن حذفت منه النون للإضافة أو للتخفيف ، وأصل شاكى : شاوك فدخله القلب المكانى ، فصار شاكو ، ثم دخله القلب الذاتى ، فصار شاكى ، وقوله « لهم سيما تميزهم » أى لهم علامة تميزهم عن غيرهم ، قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ (١) قال بعضهم : يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر ، وقوله « والورد يمتاز بالسيما عن السلم » أى والورد يتميز من السلم بالعلامة من طيب الرائحة وحسن الخلقة ، وبهاء المنظر ، فإن السلم ضد ذلك ، فالورد والسلم وإن اشتركا فى أن كلاً شجر مورق ذو شوك إلا أن بينهما فرقا ظاهر لكل ذى بصر ، وكذلك الصحابة وغيرهم ، فإنهما وإن اشتركا فى أن كلاً ذو سلاح ، إلا أن بينهما فرقا ظاهرا لكل ذى بصيرة ، فالصحابة يمتازون من غيرهم بشرف المنزلة وطيب الرائحة وبهاء المنظر وحسن الخلقة ، فإن غيرهم بضد ذلك ، فالمقصود من قوله « والورد » إلخ توضيح الفرق .

(١٣٣) قوله « تهدى إليك » أى ترسل إليك الرياح التى حصل بها النصر خيرهم السار على وجه الهدية ، فتهدى بمعنى ترسل ، وهو بضم التاء من أهدى ، والمراد برياح النصر الرياح التى حصل بها النصر ، فالإضافة لأدنى ملابسة ، ويحتمل أن المراد بها بركات النصر ، وثمراته ، وقد يراد بالرياح الدولات ، كما فى قول الشاعر :

إذا هَبَّتْ رياحُكَ فاغتَنِمْها فعُقْبَى كُلِّ عاصِفَةٍ سكونُ

والمراد بالنشر الخبر السار ، وإن كان فى الأصل الرائحة الطيبة ، وقوله « فتحسب الزهر فى الأكمام كل كمى » كان حق الكلام أن يقول : فتحسب كل كمى الزهر فى الأكمام ، لكن المصنف قد جعله من التشبيه المقلوب على حد قوله : =

---

(١) الفتح : ٢٩

كأنَّهمْ فى ظُهورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُبًا     مِنْ شِدَّةِ الحَزْمِ لا مِنْ شِدَّةِ الحُزُمِ (١٣٤)

---

= ومهمه مغبرة أرجاؤه     كأن لون أرضه سماؤه

والزهر ، نور (١) الشجر كما مر ، والأكمام جمع كم : وهو غلاف النور ، والكمى : الشجاع فى سلاحه ، من كمى جسده بالسلاح إذا ستره به ، وأصله كمى بتشديد الياء حذفت منه الياء الساكنة وسكنت المتحركة للوقف ، وحاصل المعنى أنه لما فتحت الأزهار فى رياض ملة الإسلام برياح نصرهم ، كان كلما تهب هذه الرياح من تلك الأزهار ، وتنشر إلى الشامّ روائح نشرهم يظن كل بطل فى الدروع الغامرة زهرا فى الأكمام الفاخرة ، وإنما قيد بكونه فى الأكمام ، لأنه فى أكمامه أحسن منظرا ، وأطيب رائحة منه ، فى خارج الأكمام .

(١٣٤) قوله « كأنهم فى ظهور الخيل » إلخ أى كأن الصحابة حال كونهم على ظهور الخيل نبت ربا فى الاستقرار والثبوت ، حتى إنهم لو تحركوا عليها لم ينقلعوا من ظهور الخيل ، وإنما يتحركون للطعن والاتقاء مع ثبوت أصلهم ، كما يتحرك نبت الربا (٢) إذا حركته الرياح ، فالضمير للصحابة ، و « فى ظهور الخيل » حال ، و « فى » بمعنى « على » كما فى قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿ ولأ صلبنكم فى جذوع النخل ﴾ . والربا جمع ربوة بتثليث الراء ، وهى ما ارتفع من الأرض ، ونبتها يكون أثبت من غيره لطول عروقه حتى يصل إلى الماء ، ويكون أحسن من غيره ، لأنه لا يستقر عليه الماء فيأخذ حظه من الشمس والرياح ، فتجده أخضر يعجب حسنه الناظرين وأما غيره فقد يستقر عليه الماء فيقتله ، أو يضعفه فيصفرّ لونه ، وتأمل قوله ﷺ «كالحبة فى حميل السيل » (٣) وإنما لم يشبههم بالشجر ، لأن الكفار تشبهه فى عدم التحرك ، فإنهم لا يتحركون للطعن والاتقاء ، وأما النبت فالرياح تميله يمينا وشمالا ، وقوله « من شدة الحزم » بكسر الشين المعجمة وفتح الحاء المهملة وسكون الزاى ، أى وذلك ، أعنى استقرارهم وثبوتهم فى ظهور الخيل من قوّة جودة رأيهم وتدبيرهم ، =

---

(١) بفتح النون وسكون الواو .

(٢) الربا : بضم الراء المشددة جمع ربوة : ما ارتفع من الأرض .

(٣) طه : ٧١

(٤) حميل السيل : أى ما حمله السيل من الغثاء .

طارتْ قُلوبُ العدا مِنْ بَأسِهِمْ فَرَقاً     فما تُفَــرِّقُ بَيْــنَ البَهْمِ والبُهَمِ (١٣٥)

وَمَــنْ تَكُــنْ بِرَسُــولِ اللّهِ نُصْرَتُهُ     إنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ فى آجامِها تَجِمِ (١٣٦)

---

= وقوله « لا من شدة الحزم » بفتح الشين المعجمة وضم الحاء والزاى : أى لا من ربط الحزم التى يربط بها السرج أو غيره على ظهر الدابة ، وظاهر أن من فى الموضعين بمعنى لام التعليل .

(١٣٥) قوله « طارت قلوب العدا » إلخ أى اضطربت قلوب العدا ، إلخ فشبه الاضطراب بالطيران ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، واشتق من الطيران بعد استعارته للاضطراب « طارت » بمعنى اضطربت على طريق الاستعارة التصريحية التبعية . وقوله « من بأسهم » أى من شدتهم وقوّتهم فى الحرب ، و « من » فى ذلك بمعنى لام التعليل ، وقوله « فرقا » بفتحات : أى فزعا ، وهو مفعول لأجله أى لأجل الفرق والفزع الذى حل بهم ، وقوله « فما تفرّق بين البهم والبهم » أى فبسبب ذلك حصل لهم دهش حتى صارت قلوبهم لا تفرق بين البهم بفتح الباء الموحدة وسكون الهاء جمع بهمة وهى السخلة ، فالبهم هى السخال ، وهى أولاد الضأن ، وبين البهم بضم الباء الموحدة وفتح الهاء جمع بهمة ، بضم الباء وسكون الهاء ، وهو الشجاع ، فالبهم هم الشجعان (١) ولا يخفى أنّ « تفرق » فى كلامه بضم التاء وتشديد الراء من فرّق بالتشديد لا من فرق بالتخفيف .

(١٣٦) قوله « ومن تكن برسول الله » إلخ لما ذكر أنه حصل للعدو الفزع الشديد من بأس الصحابة ، أشار إلى أن ذلك إنما هو بسرِّ رسول الله ﷺ ، حيث قال : « ومن تكن برسول الله » إلخ أى ومن تكن نصرته برسول الله ، كالصحابة ومن حذا حذوهم إلخ ، ولا تكون النصرة برسول الله ﷺ إلا باتباع سنته ، وترك ما كان على خلاف شريعته ، وذلك هو تقوى الله ، والحامل عليها خوف الله ، ومن خاف الله خاف منه كل شيء ، حتى الأسْد فى آجامها ، فمن حصلت له هذه المرتبة طارت قلوب العدا من بأسه ، وسلم من أعدائه ، وقوله « إن تلقه الأسد فى آجامها تجم » أى إن تلق الأسد التى هي جمع أسد ، وهو الحيوان المعروف ، مَن تكن نصرته برسول الله ﷺ حالة =

---

(١) فى القاموس : البُهمة : – بضم الباء – الشجاع الذى لا يهتدى من أين يؤتَى .

وَلَنْ تَـــرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرِ مُنْتَصِرٍ      بِهِ و لا مِــنْ عَــــدُوٍّ غَيْـرِ مُنْقَصِمِ (١٣٧)

أحَـــلَّ أُمَّتَـــهُ فـــى حِرْزِ مِلَّتِهِ      كاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الأشْبالِ فى أجَمِ (١٣٨)

---

= كونها فى آجامها التى هى جمع أجمة ، وهى الغابات ، أى المحلات التى تستتر فيها كالأشجار الملتفة ، تجم : بكسر الجيم بمعنى تسكت من هيبته ، فلا يسمع لها صوت خوفا من أن يكون صوتها دالاً عليها ، فيأتيها المنتصر برسول الله ﷺ ، فيقبض عليها ، وإنما قيَّد الأسد بكونها فى آجامها لأنها فيها أجرأ منها فى غيرها ، فإنه لا يقدر أحد على أن يدخل عليها فيها ، ولو انتزعت منه أعزّ ما يكون عليه ، لكن إن لقيت المنتصر برسول الله ﷺ انعكس الحال ، هذا ، ويحتمل أن المراد بالأسد الشجعان ، وبالآجام الحصون ، ويناسب حمل الأسد على حقيتها قصة سفينة مولى رسول الله ﷺ مع الأسد ، وهى أنه خرج عليه سبع بالصحراء فقال : « أقسمت عليك برسول الله أن تسكت » فسكت .

وهذا البيت واللذان بعده خاصيتها أن من كان خائفا فى بحر أو بر وكتبها بريقه فى كفه وأراها للسباع ، فإنها تذهب عنه بإذن الله تعالى .

(١٣٧) قوله « ولن ترى من ولى » إلخ : ترى بصرية على ما يقتضيه كلام بعض الشارحين ، ويحتمل أنها علمية ، و « من » زائدة فى المفعول ، والمراد بالولى من آمن به ﷺ ، وكان على هديه وطريقته ، والعدوّ ضده ، وقوله « به » أى برسول الله، فإن قيل ما فائدة قوله « ولا من عدوّ » إلخ بعد قوله « ولن ترى من ولى » إلخ مع أنه إذا أخبر بأن الولى منتصر علم منه أن العدوّ منقصم ، لأن من المعلوم أن أحد المتقابلين إذا انتصر كان مقابله بضد ذلك ، وبضدها تتميز الأشياء ؟! أجيب بأنّا لا نسلم أنه إذا أخبر بأن الولى منتصر علم منه أن العدوّ منقصم ، وإنما يعلم منه أنه غير منتصر ، وذلك أهّم من كونه منقصما ، لجواز أن ينهزم مع سلامته ، والأعم لا إشعار له بالأخص ، وعلى تسليم علم ذلك منه ، فعلمه منه باللزوم ، والمناسب لمقام المدح التصريح ، والمنقصم : بالقاف وفى بعض النسخ بالفاء ، والأول أولى ، لأن الفصم بالفاء القطع من غير إبانة ، والقصم بالقاف القطع مع الإبانة ، كما تقدم .

(١٣٨) قوله « أحل أمته » إلخ هذا البيت كالتعليل للبيت قبله ، فكأنه قال : لأنه أحل أمته إلخ . وقوله « فى حرز ملته » : أى فى ملته الشبيهة بالحرز ، فالإضافة فى ذلك من إضافة المشبه به للمشبه كما فى قول الشاعر : =

كَمْ جَدَّلَتْ كلماتُ اللّهِ مِنْ جَدَلٍ ... فيهِ وكَمْ خَصَمَ البرهانُ مِن خَصِمِ (١٣٩)

---

= والريح تعبث بالغصون وقد جَرَى ... ذهبُ الأصيلِ على لُجَيْنِ الماءِ

وإنما كانت ملته ﷺ شبيهة بالحرز ، لأنها تحفظ من اتبعها من نار الكفر ، فهى كأعظم الحصون المنيعة التى لا يدخلها إلا من هو من أهلها ، وقوله « كالليث حل مع الأشبال فى أجم » أى فالنبى ﷺ حل مع أمته فى ملته كالليث حل مع أشباله فى الأجم ، فكما أنه لا يستطيع أحد الدخول على الليث مع أشباله فى الأجم ، لا يستطيع أحد الدخول على رسول الله ﷺ مع أمته فى ملته ، والليث هو الأسد والأشبال هى أولاده ، والأجم جمع أجمة ، وهى الغابة أى الشجر الملتف ، لا يقال : ما أفاده قوله كالليث إلخ من أن الليث فى هذه الحالة يخاف منه غيره يخالفه ما أفاده قوله سابقا « إن تلقه الأسد فى آجامها تجم » ؟ لأنا نقول : الأسد إنما تجم فى آجامها من المنتصر برسول الله ﷺ ، كما استفيد مما تقدم ، وهذا لا ينافى أن غيره يخاف منها كما استفيد مما هنا .

(١٣٩) قوله « كم جدلت كلمات الله » إلخ لما كانت النصرة تارة تكون بالسيف وتارة تكون بالحجج ، وقد تقدم الكلام على الحالة الأولى ، أخذ يتكلم على الحالة الثانية ، فقال « كم جدلت كلمات الله » إلخ ، وكم خبرية فى الموضعين ، بمعنى كثيراً ، والمجرور تمييز لها ، وجدلت بتشديد الدال ، ويجوز تخفيفها ، أى قطعت وأزالت جداله ، وكلمات الله هى القرآن ، والجدل بكسر الدال اسم فاعل من جدل جدلا ، أى أحكم الخصومة إحكاما ، وقوله « فيه » أى فى أمره ﷺ ، وقوله « وكم خصم البرهان من خصم » أى وكثيراً خصم البرهان ، الذى هو الدليل القاطع من خصم ، بكسر الصاد ، وهو شديد الخصومة ، وفيه الحذف من الأواخر ، لدلالة الأوائل ، والتقدير : من خصم فيه ، أى فى أمره ﷺ ، وحاصل معنى البيت : كثيراً ما أزال القرآن جدال المجادل فى أمره ﷺ ، وكثيرا ما أزال الدليل القاطع خصومة شديد الخصومة ، فى أمره ﷺ ، والأول إشارة إلى ما وقع فى القرآن من جواب المعاندين السائلين له ﷺ ، ومن ذلك ما نقل من أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، فإن أجاب عن الكل أو سكت عن الكل ، =

---

(١) واسمه مهران بكسر الميم ، وإنما سماه رسول الله ﷺ سفينة لأنه كان يحمل الكثير من المتاع فى السفر ، فرآه رسول الله ﷺ فسماه سفينة .

= فليس بنبى ، وإن أجاب عن البعض ، وسكت عن البعض ، فهو نبى » فنزلت قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، ونزل ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ (*) فأحال علمها إلى ربه . والثانى إشارة إلى ما وقع منه ﷺ من الآيات ، حين سألوه آية على رسالته ، كانشقاق القمر وغيره ، ولا يخفى أن عطف الثانى على الأول من عطف العام على الخاص .

وهذا البيت والذى بعده خاصيتهما أن من كتبهما فى ورقة بيضاء لصغير ، وجعلها فى قصبة وربطها فى خيط حرير وعلقها عليه ، فإنه لا يصيبه شيطان ولا مرض ، ولا غير ذلك .

(١٤٠) قوله « كفاك بالعلم » إلخ لما ذكر أنه كثيراً ما خصم البرهان من خصم ، عقَّب ذلك بذكر برهانين ، حيث قال : كفاك بالعلم إلخ ، أى كفاك العلم ، فالباء زائدة فى الفاعل ، لأن زيادتها فى فاعل كفى كثيرة ، وقوله « فى الأمى » أى فى النبى الأمى ، وهو الذى لا يقرأ ولا يكتب ، نسبة للأم ، كأنه على الهيئة التى نزل عليها من أمه ، وهذا وصف مدح بالنسبة له ﷺ ، لأنه دليل على أن القرآن من عند الله ، وأما بالنسبة لغيره ﷺ فهو وصف ذم ، والجار والمجرور حال من العلم أو صفة له ، وقوله « معجزة » أى من جهة المعجزة ، فهو تمييز للنسبة فى « كفى » . وقوله « فى الجاهلية » أى الزمن الذى لا علم فيه ، والجار والمجرور مثل الجار والمجرور قبله ، وإنما قيد بقوله « فى الأمى » وقوله « فى الجاهلية » لأن كلاً من كونه أميا وكونه فى الجاهلية مظنة لعدم العلم ، لأنه لا يكون إلا بمطالعة الكتب العلمية ، وهو لا يقرأ ولا يكتب ، أو بملاقاة العلماء ، وهو منتف فى الجاهلية ، فتعين أن علمه ﷺ ليس إلا بتعليم من الله تعالى ، وقوله « والتأديب فى اليتم » أى وكفاك بالتأديب فى اليتم معجزة فهو معطوف على قوله بالعلم ، لكن المراد بالمعجزة مطلق الأمر الخارق للعادة وإن لم يكن مقرونا بالتحدى الذى هو دعوى الرسالة ، فاندفع ما يقال أن كونه ﷺ مؤدباً فى حال يتمه لا يعدّ معجزة ، لأن المعجزة هى الأمر الخارق للعادة ، المقرون بالتحدى ، وهو ﷺ فى حال يتمه لم يتحدّ ، لأن التحدى لا يكون إلا بعد الأربعين ، والمراد من التأديب : التأدب ، أو أنه مصدر المبنى للمفعول ، فهو بمعنى كونه مؤدبا =

---

(١) الإسراء : ٨٥ (*) الإسراء : ٨٥

خَـــدَمْتُهُ بِمَدِيحٍ أَسْتَقِيــلُ بِهِ ذُنوبَ عُمْرٍ مَضَى فى الشِّعْرِ والخَدَمِ (١٤١)
إذ قَلَّدانِي ما تُخْشَى عواقِبُهُ كأنَّنِــى بِهِما هَــدْىٌ مِــنَ النَّعَمِ (١٤٢)

= ليكون وصفا للنبى ﷺ ، وإنما قُيد بقوله « فى اليُتُم » بضمتين كما هو لغة فى اليتم بضم فسكون ، لأن شأن اليتيم ، وهو الصغير الذى لا أب له أن لا يكون فيه من الأدب ما يكون فى غيره ، فإن الأب غالبا يهتم بتأديب ابنه ، ويسعى فى تكميله باكتساب الصفات الحميدة ، بخلاف غير الأب ، وهو ﷺ قد مات عنه أبوه قبل ولادته ، وقيل بعدها ، وتربى عليه الصلاة والسلام فى كفالة عمه أبى طالب ، وكان ﷺ مؤدّبا بأحسن الأخلاق ، على خلاف العادة فى اليتيم ، وقد قال ﷺ « إن الله أدّبنى فأحسن تأديبى » (١) وبالجملة ، فقد بلغ ﷺ من العلوم ما لا يبلغه مَن تصدّى لها ، ومن الآداب ما لا يناله مَن له مؤدِّب ، فدل ذلك على أنه رسول الله حقا .

(١٤١) قوله « خدمته بمديح » إلخ أى خدمته ﷺ بما تقدم من المدح ، أطلب من الله أن يقيلنى بسبب هذا المديح ذنوب عمر مضى فى الشعر ، مدحا لأبناء الدنيا ، و « الخدم » بكسر الخاء المعجمة وفتح الدال المهملة جمع خدمة ، فالمراد بالمديح ما تقدم من المدح ، والسين والتاء للطلب ، كما تقدمت الإشارة إليه ، وجملة قوله « مضى » إلخ صفة لعمر ، وقد ذكر بعضهم أن الناظم كان فى مبدأ أمره كاتب إنشاء عند بعض السلاطين ، وقيل : إنه كان وزيرا ، وهذا وإن كان مباحا ، إلا أنه قد يحوج إلى المحرَّم ، كما يؤخذ من البيت بعده .

ومن هنا إلى آخر قوله « ولم أرد زهرة الدنيا » خاصيتها للملسوع ، تكتب بماء المطر والورد ، وتمحى ويشربها ، فإنها تزول سريعا بإذن الله تعالى .

(١٤٢) قوله « إذ قلدانى » إلخ أى لأنهما قلدانى ، إلخ ، فهذا البيت تعليل للبيت قبله ، والضمير الفاعل فى قلدانى للشعر والخدم ، وقوله « ما تخشى عواقبه » أى آثاما تخشى عواقبها ، من أنواع العذاب ، إن لم يغفرها الله تعالى ، فـ « ما » واقعة على الآثام ، والمراد بعواقبها أنواع العذاب ، وقوله « كأننى بهما هدى من النعم » أى كأننى بسبب الشعر والخدم هدى من النعم ، التى هى الإبل والبقر =

(١) رواه العسكرى ، وأبو الفضل بن ناصر وصححه ، ورواه ابن عساكر والسمعانى فى « أدب الإملاء » .

أطَعْتُ غَيَّ الصِّبا فى الحالتينِ وَما حصلتُ إلاَّ علـــى الآثامِ والنَّدَمِ (١٤٣)
فيا خَسارةَ نَفْسٍ فـــى تِجـارتهـــا لم تَشْتَـرِ الدِّينَ بالدنيا ولم تَسُمِ (١٤٤)
وَمَـــنْ يَبِــعْ آجِـــلاً مِنْــهُ بعاجِلِهِ يَبِنْ لَهُ الغَبْنُ فى بَيْعٍ وفى سَلَمِ (١٤٥)

---

= والغنم ، ومن شأن الهدى أن يقلد بجعل شىء فى عنقه ، من نعل ونحوه ، ليعلم أنه هدى . وحاصل المعنى ، أن الشعر والخدم جعلا الآثام التى تُخشى عواقبها من أنواع العذاب قلادة فى عنقى ، فصرت بسببهما أشبه الهدى من النعم ، فكما لا يخفى حال الهدى على من رآه بما جعل فى عنقه من نعل ونحوه ، كذلك لا يخفى حالى على من رآنى ، وعرف حالى بما اكتسبته من الآثام ، التى تخشى عواقبها بسبب الشعر والخدم .

(١٤٣) قوله « أطعت غى الصبا » إلخ بين بهذا البيت سبب كون الشعر والخدم قلداه الآثام التى تخشى عواقبها ، وذلك لسبب هو إطاعة غى الصبا ، والغى ضد الهدى ، وأضيف للصبا لأنه يدعو إليه ، فإنه زمن الجهل والبطالة ، وقوله « فى الحالتين » أى حالتى الشعر والخدم ، وقوله « وما حصلت إلاَّ على الآثام والندم » أى وما حصلت منهما إلاَّ على الآثام التى صدرت منى ، وعلى الندم على تلك الآثام .

(١٤٤) قوله « فيا خسارة نفس » إلخ هذا البيت تحقيق للندم ، وتبكيت للنفس ، لأن فيه نداء عليها بالخسارة فى تجارتها ، فكأنه قال : يا خسارة نفس موصوفة بما ذكر ، احضرى ، فهذا أوانك . وهذا كناية عن استعظام خسارة هذه النفس ، والتعجب منها ، فإن عادة العرب إذا استعظموا شيئا وتعجبوا منه نادوه ليحضر ، وقوله « فى تجارتها » متعلق بخسارتها ، وقوله « لم تشتر الدين بالدنيا » أى لم تأخذ الدين بدل الدنيا ، بل عدلت عن العظيم الباقى إلى الخسيس الفانى ، وقوله « ولم تسم » بفتح المثناة الفوقية ، وضم السين المهملة ، أى ولم تتعرض لأخذ الدين بدل الدنيا ، بل أخذت الدنيا وتركت الدين الذى تنجو به فى الآخرة ، وكأن الناظم عنَى نفسه فنادى عليها بالخسارة ، حيث اتبعت الشعر والخدم لأبناء الدنيا ، ولو صحبها التوفيق لتركت ذلك ، واشتغلت بالدين ، لكن التوفيق بيد اللّه يعطيه من يشاء .

(١٤٥) قوله « ومن يبع آجلا منه » إلخ هذا البيت تتميم لتحقيق الندم ، وتبكيت النفس ، لأن فيه توعدا بالغبن حيث بين فيه أن من يبيع الآجل بالعاجل يظهر له الغبن ، =

إنْ آتِ ذَنْباً فما عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ        مِنَ النبيِّ ولا حَبْلِي بِمُنْصَرِمِ (١٤٦)

= والمراد بالآجل الثواب الذى يكون فى الآخرة المحققة الباقية ، وبالعاجل الذى يأخذه من الدنيا الذاهبة الفانية ، وهذا على ما فى كثير من النسخ مما نصه « ومن يبع آجلا منه بعاجله » وفى بعضها : « ومن يبع عاجلا منه بآجله » ، وعليه فالمراد بالعاجل الثواب الذى يكون فى الآخرة المحققة الباقية ، وبالآجل الشيء الذى يأخذه من الدنيا الفانية الذاهبة ، وعلى هذا المثل المشهور « بُرة عاجلة خير من درة آجلة » (١) ولما كان الثواب المذكور محققاً ولا بد ، أطلق عليه عاجل ، لأنه كان حاصل بالفعل ، ولما كان الشيء الذى يأخذه من الدنيا غير محقق أطلق عليه آجل ، والظاهر أن الضمير فى « منه » راجع للدين فى البيت قبله ، كذا قال بعض الشارحين ، والأظهر أنه راجع لـ « من يبع » ، كالضمير فى عاجله ، وقوله « يبن له الدين » أي. يظهر له الخداع ، وقوله « فى بيع وفى سلم » كل منهما متعلق بالغبن ، والعطف فى ذلك من قبيل عطف التفسير ، لأن البيع المذكور فى كلام المصنف ، يسمّى سلما ، فاندفع ما يقال : الذى تقدّم فى كلام الناظم هو صورة السلم ، وأن صورة البيع غير بيع السلم ، وبعض الشارحين طرق احتمال أن يكون فى كلام الناظم حذف ، والتقدير ومن يبع آجلا من متاع الآخرة بعاجله من متاع الدنيا ، أو يشترى عاجلا من متاع الدنيا بآجله من متاع الآخرة ، فقوله « فى بيع » راجع للصورة الأولى ، وقوله « وفى سلم » (٢) راجع للصورة الثانية ، وفيه تكلف .

(١٤٦) قوله « ان آت ذنبا » إلخ هذا البيت تأنيس للنفس وترجٍّ لها فى رحمة الله تعالى ، و « آت » أصله أأت ، بهمزتين ، قلبت الثانية ألفا ، فصارت آت ، بالمد ، وهو مجزوم بأن الشرطية ، وعلامة جزمه حذف الياء ، وقوله « فما عهدى بمنتقض من النبى » أى فما إيمانى بمنقطع عن النبى ، لأنّ الذنب لا ينقض الإيمان ، فالمراد بالعهد الإيمان ، فتكون الإضافة فى قوله « عهدى » للعهد ، والمعهود هو الإيمان ، وقوله « ولا حبلى بمنصرم » أى ولا وصلى بمنقطع من النبى ﷺ ، فالحبل مستعار للوصل ، وفى البيت الحذف من الثانى لدلالة الأوّل ، كما فى نظائره ، والتقدير : ولا حبلى بمنصرم من النبى .

(١) برة : بضم الباء من برة ، وهى الواحدة من القمح خير من « درّة » بضم الدال وتشديد الراء المشددة المفتوحة وهى الجوهرة النادرة .

(٢) السّلم : السلفُ ، والمعنى : يظهر له الغبن فى حالة البيع ، وفى السلف أيضاً .

فَـــإِنَّ لـــى ذِمَّـــةً مِنْهُ بِتَسْمِيَتِى      محمداً وَهُوَ أَوْفَى الخَلْقِ بالذِّمَمِ (١٤٧)
إِنْ لَمْ يَكُنْ فى مَعَادِى آخِذاً بِيَدِى      فَضْـلاً ، وإلاَّ فَقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ (١٤٨)

---

(١٤٧) قوله « فإن لى ذمة » إلخ هذا البيت تعليل للبيت قبله ، ووجه ذلك أن اختياره التسمية باسمه ﷺ دليل على محبته فيه ، فإنه لا يتسمى بالإسم إلاَّ من أحب مسماه ، وأما من يكرهه فلا يتسمى به ، وقوله « وهو أوفى الخلق بالذمم » أى وهو ﷺ أشدهم وفاء بها ، فيقوم بحقها بأن يشفع لأهلها لعظم جاهه وعلو مكانته عند ربه . وفى كلام المصنف ترغيب فى التسمية باسمه ﷺ ، وقد جاء فى ذلك أحاديث : فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يوقف عبدان بين يدى الله تعالى فيأمر بهما إلى الجنة ، فيقولان : ربنا بم استأهلنا الجنة ولم نعمل عملا يجازينا الجنة ؟ فيقول الله عز وجل : عبداى ادخلا الجنة ، فإنى آليت على نفسى أن لا يدخل النار من اسمه أحمد أو محمد » وعن جعفر بن محمد « إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ إلا ليقم من اسمه محمد ، فيدخل الجنة كرامة لاسمه ﷺ » وفى لفظ آخر « ينادى يوم القيامة : يا محمد فيرفع رأسه من فى الموقف ، فيقول الله عز وجل أشهدكم إنى غفرت لكل من اسمه على اسم محمد » وعن أبى أمامة : « من وُلد له مولود فسماه محمدا تبركا ، كان هو ومولوده فى الجنة » رواه صاحب الفردوس (١) . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال « ما من مائدة وُضعت فحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس الله ذلك المنزل مرتين » . وبالجملة فالتسمية باسمه ﷺ أمر مندوب إليه نسأل الله تعالى أن ينظمنا فى سلك محبته بمنه وفضله ورحمته .

(١٤٨) قوله « إن لم يكن فى معادى » إلخ أى إن لم يكن ﷺ فى يوم عودى إلى الله تعالى آخذا بيدى ، بأن يشفع لى ، حال كون ذلك فضلا منه ، لا لسابقة منى تقتضى ذلك ، فقل يا زلة القدم ، وهو كناية عن سوء الحال والوقوع فى الشدة ، و« إلا » أى وإلا لم يكن فى ذلك اليوم آخذا بيدى ، بأن كان آخذا بيدى ، فقل يا ثبات القدم ، وهو كناية عن حسن الحال وحصول النعمة ، فقوله خطابا لمن جرده من نفسه « فقل يا زلة القدم » جواب الشرط الأوّل ، وهو قوله « إن لم يكن فى معادى آخذا بيدى » وجواب الشرط الثانى ، وهو قوله « وإلا » ، فإن أصله إن الشرطية المدغمة فى =

---

(١) الحافظ الديلمى رحمه الله ورضى عنه .

حاشاهُ أن يَحْرِمَ الراجِي مَكارِمَهُ     أو يُرْجِعَ الجارَ مِنْهُ غيرَ مُحْتَرَمِ (١٤٩)

---

= لا النافية محذوف لدلالة المقام والسياق عليه ، والتقدير : وإلا فقل يا ثبات القدم ، أى وإن انتفى لم يكن آخذا بيدى ، بأن كان آخذا بيدى ، فقل يا ثبات قدمى ، وبهذا يندفع استشكال هذا البيت ، بأن الظاهر منه أن قوله فقل « يا زلة القدم » جواب الشرط الثانى ، فيصير المعنى : وإن انتفى لم يكن آخذا بيدى ، فقل يا زلة القدم ، وهذا فاسد لا شك فى بطلانه ، وهذا كله على ما فى النسخ من قوله « إن لم يكن فى معادى » إلخ ، وقيل : الرواية « فإن لم يكن فى معادى » إلخ وعليه فلا إشكال ، لأن جواب الشرط الأول محذوف للعلم به من المقام والسياق ، وجواب الشرط الثانى مذكور بقوله ، « فقل : يا زلة القدم » . وتقدير البيت على هذا : فإن يكن ﷺ فى يوم عودى إلى الله تعالى آخذا بيدى ، بأن يشفع لى حال كون ذلك فضلا منه ، لا لسابقة منى تقتضى ذلك ، فقل : يا ثبات القدم ، وإلا ، أى وإن لم يكن كذلك فقل يا زلة القدم ، وهذا ظاهر لا إشكال فيه .

(١٤٩) قوله « حاشاه أن يحرم » إلخ هذا البيت لزيادة تسكين النفس من خوفها ، وتقوية تطمينها من قلقها ، وحاشا هنا اسم بمعنى المحاشاة ، وهى التنزيه ، فهو واقع موقع المصدر ، فيكون منصوبا بفعل مضمر ، والتقدير أحاشيه حاشاه ، أى انزهه تنزيهه ، والضمير المتصل به فى محل جر بإضافته إليه ، وأما حاشا المستعمل فى الاستثناء ، فتارة يستعمل فعلا ، وتارة يستعمل حرفا ، كما هو مشهور ، وقوله « أن يَحرم الراجى مكارمه » أى من أن يحرم النبى ﷺ الراجى منه مكارمه ، فهو على تقدير « من » والفاعل ضمير يعود على النبى ﷺ ، والراجى مفعول ، وسكنت ياؤه على لغة ، والمكارم : جمع مكرمة ، والمراد منها الشفاعة ، ويجوز ضم ياء يحرم على أنه مضارع حرم ، وفتحها على أنه مضارع حرم ، فإنه يقال أحرمه يحرمه بضم الياء وحرمه يحرمه بفتحها ، ويصح بناء الفعل للفاعل ، وقد قدّمنا الحل عليه ، ويصح أيضا بناؤه للمفعول ، وعليه فالراجى نائب فاعل ، وتسكين يائه حينئذ ظاهر ، وقوله « أو يرجع الجار منه غير محترم » الظاهر أن « أو » بمعنى الواو ، فالمعنى : وحاشاه من أن يرجع الجار منه أى المستجير به الداخل فى جواره ، حال كونه غير محترم ، بل يرجع محترما بشفاعته ﷺ ، فالجار بمعنى المستجير ، و « منه » بمعنى به ، « وغير محترم » حال من الجار . جعلنا الله من أهل شفاعته أجمعين .

ومُنْـذُ أَلْزَمْتُ أفكارِي مدائِحَهُ وَجَدْتُـهُ لِخَلاصِـى خَيْـرَ مُلْتَزِمِ (١٥٠)
وَلَنْ يَفوتَ الغِنَى مِنْهُ يداً تَرِبَتْ إنَّ الحَيا يُنبِتُ الأزهارَ فى الأكُمِ (١٥١)

---

(١٥٠) قوله « ومنذ ألزمت أفكارى » إلخ هذا البيت استدلال على قوة رجائه ، وأنه لا يخيب في ظنه ، فكأنه قال : إنما قوى رجائى ، وأنى لا أخيب فى ظنى ، لأنى منذ ألزمت أفكارى إلخ ، و « منذ » ظرف زمان ، وهو ظرف لـ « وجدته » ، وأفكارى مفعول أول لألزمت ، ومدائحه مفعوله الثانى ، والضمير العائد على النبى ﷺ مفعول أول لوجدت ، وخير ملتزم بكسر الزاى مفعول الثانى ، وبه يتعلق الجار والمجرور قبله . وتقدير البيت : وجدت النبى ﷺ فى الزمن الذى ألزمت فيه أفكارى مدائحه خير ملتزم لخلاصى من جميع الشدائد التى تصيبنى . والأفكار : جمع فكر ، وهو حركة النفس فى المعقولات ، والمدائح : جمع مديح ، وهو الثناء الحسن ، وإنما كان ﷺ خير ملتزم لخلاصه من الشدائد ، لأنه وفى بخلاصه منها على أحسن الوجوه وأتمها ، وأشار المصنف بذلك إلى الداء الذى كان أصابه ، وهو داء الفالج والعياذ بالله تعالى منه ، وكان هو السبب فى إنشاء هذه القصيدة ، فإنه لما أصيب به عملها فرأى النبى ﷺ فى النوم ، ومسح بيده الكريمة عليه فعوفى ، فلما استيقظ قال له بعض أصحابه الصالحين أسمعنى القصيدة التى مدحت بها النبى ﷺ ، فلقد سمعتها بين يديه ﷺ ، وهو يتمايل مثل القضيب » .

(١٥١) قوله « ولن يفوت » إلخ هذه الجملة مستأنفة ، والغنى بالكسر مع القصر اليسار ، ومع المدّ : تطريب الصوت مع سرور ، وبالفتح مع القصر : الإقامة ، ومع المدّ : الكفاية ، والضمير فى منه عائد على النبى ﷺ ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف إما صفة للغنى ، أو حال ، فالأول إن قدِّر معرفة ، والثانى إن قدر نكرة ، و « من » للابتداء ، وقوله « يداً » مفعول ، وجملة قوله « تربت » صفة ليداً ، وتربت بكسر الراء : أى التصقت بالتراب ، لكونها مفتقرة افتقارا حسيا ، بأن ضيعت ما كان فيها من الأموال ، أو معنويا بأن ضيعت ما كان لها من الثواب ، لاقترافها المعاصى ، وإنما لم يفت الغنى منه ﷺ اليد المذكورة لعموم الغنى منه ﷺ لجميع الأيدى التى تكون كذلك ومنها يد الناظم وقد استدل على ذلك بقوله « إن الحيا ينبت الأزهار فى الأكم » . ووجه الاستدلال بذلك أنه كما يشاهد محسوساً أن الحيا بالقصر ، الذى هو المطر ، ينبت الأزهار جمع زهر فى الأكم بضمتين جمع أكمة كقصب جمع قصبة ، والأكمة هى الربوة ، أى المحل المرتفع من الأرض ، مع كونها ليست مظنة =

ولم أُرِدْ زهرةَ الدنيا التى اقْتَطفتْ يَدا زُهَيْرٍ بما أثْنى عَلَى هَرِمِ (١٢)

= النبات لعدم استقرار الماء عليها لعلوها ، كذلك ﷺ ينيل الغنى مَن ليس مظنةً الغنى ، وهو اليد التى تربت ، وإنما أنبت الحيا الأزهار فى الأكم مع أنها مظنة عدم النبات ، بسبب عدم استقرار الماء عليها ، وسرعة انحداره عنها لعمومه ، حتى للأكم ، والتشبيه المذكور إنما هو على سبيل التقريب وإلا فهو عليه الصلاة والسلام لا يحيط بحقيقة كماله إلا الله تعالى .

(١٥٢) ( قوله ولم أرد زهرة الدنيا إلخ ) لما كان قوله « ولن يفوت الغنى » إلخ يوهم التعريض بطلب شيء من حطام الدنيا ، دفع هذا التوهم بقوله « ولم أرد زهرة » إلخ أى وإنما أردت الغنى منه فى الآخرة بالشفاعة فى المذنبين ، والمراد بزهرة الدنيا مستلزاتها من المال وغيره ، وإنما عبر عنها بالزهرة تشبيها لها بالزهر الذى لايدوم التمتع به ، بل يتغير سريعاً ، فيكون فى ذلك استعارة تصريحية ، والتعبير بالاقتطاف ترشيح لها ، وهو إما باق على حقيقته أو مستعار للأخذ . وقوله « يدا زهير » فاعل باقتطفت ، والمراد بزهير الشاعر المشهور وهو ابن أبى سلمى ، بضم السين أبو كعب صاحب « بانت سعاد » القصيدة المشهورة ، وله أخت تسمى الخنساء ، كانت شاعرة مشهورة ، وكان الشعر فيهم وراثة ، ولذلك كان زهير من الشعراء المقدَّمين على سائر الشعراء فى الجاهلية كامرئ القيس ، والنابغة الذبيانى ، وعنترة ، وطرفة بن العبد ، وقد روى أن النبي ﷺ نظر إلى زهير وعمره مائة سنة ، فقال ﷺ « اللهم أعِذْنى من شيطانه » فما لاك بعدها بيتاً حتى مات ، وقوله « بما أثنى على هرم » أى بالمدح الذى أثنى به على هرم ، بكسر الراء وهو أحد أجواد العرب وكان أحد ملوكهم ، وهو ابن سنان بن حيان ( بالحاء المهملة وبعدها مثناة تحتية ) وكان يصل زهير بالصلات الجزيلة الخارجة عن العادة ، ومن جملة ما اتفق له معه أنه حلف أنه كلما مدحه أعطاه غرة عبداً أو أمَة [1] أو قيمتها ، وأنه كلما سلم عليه يعطيه كذلك ، حتى إنه من =

(١) الغرة بضم الغين : العبد والأمة ، كذا فى القاموس .

يا أكْرَمَ الرُّسلِ ما لِى مَنْ ألوذُ بهِ       سِواكَ عِنْدَ حُلولِ الحادثِ العَمَمِ (١٥٣)
ولَنْ يَضيقَ رسولَ اللهِ جاهُكَ بِى       إذا الكريمُ تَحَلَّى باسْمِ مُنْتَقِمِ (١٥٤)

---

= كثرة عطائه له استحيا منه ، فكان إذا رآه فى قوم قال أنعموا صباحاً غير هرم ، فكل هذا لم يُرده الناظ إجلالاً لمدحه ﷺ عن ذلك ، إذ لا يتوسل بالعظيم إلا لنيل عظيم .

(١٥٣) ( قوله يا أكرم الرسل إلخ ) لما مدح النبى ﷺ على سبيل الإخبار عن الغائب أقبل بالخطاب عليه ﷺ فقال « يا أكرم الرسل » وفى بعض النسخ « يا أكرم الخلق » ولكونه ﷺ أكرم الرسل وأكرم الخلق اختص بالشفاعة العظمى ، وهى شفاعته ﷺ فى فصل القضاء كما تقدم . وقوله « ما لى من ألوذ به سواك » أى ليس لى أحد ألتجئ إليه غيرك وقوله « عند حلول الحادث العمم » أى عند نزول الحادث العام ، أي الشامل لجميع الخلق ، والمراد بذلك الحادث هول يوم القيامة فإن كلاً من الرسل يقول حينئذ « نفسى نفسى » ويخبر بأن الله غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله قبله ، ولا يغضب مثله بعده ، والنبى ﷺ يقول « أمتى أمتى » وقيل المراد بذلك الحادث : الموت .

(١٥٤) ( قوله ولن يضيق رسول الله جاهك إلخ ) أى بل هو رحب واسع يسعنى ويسع كل عاص مثلى ، فجد علىّ بالشفاعة لتنقذنى مما أستحقه من العقاب ، والمراد من الجاه القدر والمنزلة ، وهو مأخوذ من الوجاهة ، وهى رفعة القدر وسعة المرتبة ، ويقال رجل وجيه ، أى معروف مشهور بحسن الذكر وجودة الرأى ، وقوله « بى » أى عنى ، وقوله « إذا الكريم تحلى باسم منتقم » أى وذلك أعنى عدم ضيق جاهه ﷺ وقت كون المولى اتصف باسم هو منتقم » واتصافه بذلك عند انتقامه بالفعل من العصاة ، وذلك الوقت هو يوم القيامة . و « تحلى » بالحاء المهملة بمعنى اتصف ، وبالجيم بمعنى انكشف ، والأول أصح رواية ، والثانى أصح دراية [١] ، وهذا الشرط لا مفهوم له فهو مفهوم موافقة لأن جاهه عليه الصلاة والسلام لا يضيق فى كل وقت ، =

---

(١) قوله « والأول أصح رواية ، والثانى أصح دراية » أراد أن الأول ثبت بالرواية التى هى أصح من رواية الثانى ، والثانى أصح عن طريق الدراية لأن التحلى ( بالحاء ) لا يكون بالانتقام ، والتجلى يكون بالغضب يوم القيامة حتى يتمنى الناس الانصراف من الموقف ولو إلى جهنم لما يرون من تجلى الجبار جل وعلا بالغضب حتى يؤذن بالشفاعة للنبى ﷺ فيأذن الله تعالى بالقضاء بين العباد ، والله تعالى أعلم .

= وقد قيل فى كلام الناظم إشكال كبير ، وقلق عسير ، أما الإشكال فلأنه يقتضى أن الكريم يتصف فى المستقبل بالانتقام ، لأن إذا للاستقبال ، مع أن صفاته تعالى قديمة لم تزل ولا تزال ، وأما القلق فلأن الإسم عند أهل السنة هو المسمى وحينئذ فيكون التقدير إذا اتصف المسمى الذى هو الكريم بالمسمى الذى هو الاسم ، وهو المسمى الذى هو المنتقم ، وهو فى غاية القلق ، ورُدَّ ذلك بأن كلام الناظم مبنى على طريق أبى الحسن الأشعرى ، وهو المرْضىّ من مذهب أهل السنة ، وحاصله فى ذلك أن الكريم والمنتقم صفتان فعليتان : فالكريم مَن له الكرم ، والمنتقم من له الانتقام ، والصفة الفعلية عند الأشاعرة حادثة لأنه لا يرجع منها إلى الفاعل معنى قائم به ، ولذا قال أئمتنا : لا يتصف البارى تعالى بكونه خالقاً فى الأزل إلا مجازاً ، ولا نسلم أن كل اسمٍ عينُ المسمى ، بل من أسمائه تعالى ما هو غيره ، وهو كل ما دلت التسمية به على فعل كالخالق ، وبذلك اندفع الإشكال والقلق فى كلام الناظم ، نعم يرد عليه أنه يوزن كلامه باجتماع صفتين متضادتين فى وقت واحد فى محل واحد ، فإن المراد بالكرم التجاوز عن الذنب ، أو ما يتضمن ذلك ، والمراد بالانتقام المؤاخذة بالذنب ولا يتأتى اجتماعهما فى الوقت الواحد فى المحل الواحد ! ويجاب بأن المراد بالكريم مَنْ شأنه الكرم والتجاوز عن الهفوات ، والمراد بالمنتقم من اتصف بالانتقام بالفعل ، فصفته تعالى حينئذ الانتقام والأخذ بالجرائم بالفعل ، وهذا لا ينافى أن شأنه تعالى الكرم والتجاوز عن الهفوات .

(١٥٥) ( قوله فإن من جودك الدنيا إلخ ) هذا البيت تعليل للبيت قبله ، فكأنه قال : وإنما كان جاهك يا رسول الله لا يضيق بى بل يسعني وغيرى من العصاة ، لأن من جودك الدنيا إلخ ، ومن للتبعيض ، والمراد من الدنيا ما قابل الأخرى ، ولذلك جعلها الناظم ضرتها ، وفى كلامه تقدير مضاف : أى خيرى الدنيا وضرتها التى هى الآخرة ، فمن خير الدنيا هدايته ﷺ للناس ، ومن خير الآخرة شفاعته ﷺ فيهم ، وقوله « ومن علومك علم اللوح والقلم » من جهة التعليل ، لكون جاهه ﷺ لا يضيق عنه ، لأنه لا شك أن العلم من أكبر أسباب عظم الجاه وعلوه ، ويجوز أن يكون مستأنفاً ، و « من » فى قوله و « من علومك » للتبعيض أيضاً فهى للتبعيض فى الموضعين ، والمراد بعلومه ﷺ المعلومات التى أطلعه الله عليها ، فإنه تعالى أطلعه على علوم الأولين والآخرين (١)

(١) قال رسول الله ﷺ : « أتانى الليلة ربى - تبارك وتعالى - فى أحسن صورة فقال : يامحمد ، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفىَّ حتى وجدت =

= والمراد بعلم اللوح والقلم : المعلومات التى كتبها القلم فى اللوح بأمر الله تعالى فإنه ورد « أول ما خلق الله القلم ، فقال : له اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حى تقوم الساعة ، من مات على غير ذلك فليس منى » [1] أى ليس على طريقتى . واستشكل جعل علم اللوح والقلم بعض علومه ﷺ بأن من جملة علم اللوح والقلم الأمور الخمسة المذكورة فى آخر سورة لقمان (*) ، مع أن النبى عليه الصلاة والسلام لا يعلمها ، لأن الله قد استأثر بعلمها ، فلا يتم التبعيض المذكور ، وأجيب بعدم تسليم أن هذه الأمور الخمسة مما كتب القلم فى اللوح وإلا لاطلع عليها مَن شأنه أن يطلع على اللوح كبعض الملائكة المقربين ، وعلى تسليم أنها مما كتب القلم فى اللوح ، فالمراد أن بعض علومه ﷺ علم اللوح والقلم الذى يطلع عليه المخلوق ، فخرجت هذه الأمور الخمسة على أنه ﷺ لم يخرج من الدنيا إلا بعد أن أعلمه الله تعالى بهذه الأمور ، فإن قيل إذا كان علم اللوح والقلم بعض علومه ﷺ ، فما البعض الآخر ؟ أجيب بأن البعض الآخر هو ما أخبره الله عنه من أحوال الآخرة ، لأن القلم إنما كتب فى اللوح ما هو كائن إلى يوم القيامة فقط ، كما تقدم فى الحديث .

(١٥٦) ( قوله يا نفس لا تقنطى إلخ ) لما خاف الناظم على نفسه القنوط من رحمة الله تعالى ، بسبب شدة الخوف ، أقبل عليها يخاطبها بتحقيق رجائه ، ويؤنسها بعظم فضل ربه ، وأصل قوله « يانفس : يا نفسى » بالإضافة لياء المتكلم ، فحذفت ياء المتكلم ، ويجوز ضم السين وكسرها كما فى قولك « يا عبد » ، وقوله « لا تقنطى » أى لا تيأسى ، وهو بفتح النون على لغة كسرها فى ماضيه ، وبكسرها =

---

= يردها بين ثديَيَّ فعلمت ما فى السماوات وما فى الأرض » إلى آخر الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، وعبد الرزاق فى جامعه ، والترمذى ، وعبد بن حميد ، وهو رؤيا منامية ، ورؤيا الأنبياء وحى ، والصورة هنا صورة تجلى ، لا أن الله تعالى تجسم فى صورة - سبحانه وتعالى عن ما يتصف به الخلق . وتعالى أن يشبه شيئا أو أن يشبهه شيء ، والحديث صحيح .

(*) ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ .

(١) حديث « أول ما خلق الله القلم » ، رواه الإمام أحمد ، والترمذى وصححه ، ويجمع بينه وبين حديث « أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا النور النبوى المحمدى والماء والعرش ، وقيل الأولية فى كل شيء بالإضافة إلى جنسه أى أول ما خلق الله من الأنوار نورى ، وكذا باقيها » كذا فى كشف الخفا ، وفيه بحث طيب فراجعه إن شئت .

لَعَـلَّ رَحْمَةَ رَبِّـي حِينَ يَقْسِمُها     تَأْتِي عَلَى حَسَبِ العِصْيانِ فِى القِسَمِ (١٥٧)

= وضمها على لغة فتحها فيه ، وقوله « منزلة عظمت » أى من أجل زلة كبرت ، فـ « من » للتعليل ، ويحتمل أنها للتعدية لكن على تقدير مضاف ، والأصل : من غفران زلة عظمت . والزلة بفتح الزاى وتشديد اللام : الذنب ، وقوله « إن الكبائر فى الغفران كاللمم » أى إن الذنوب العظام التى ارتكبتيها أيتها النفس فى جانب الغفران ، أى بالنسبة له ، كصغار الذنوب ، فالكبائر هى الذنوب العظام ، واللمم (بفتح اللام المشددة وفتح الميم أيضاً ) : صغار الذنوب ، ومعلوم أنه تعالى يغفر الصغائر ، فكذلك الكبائر ، قال تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (١) وفى قول الناظم « إن الكبائر فى الغفران كاللمم » رد على من زعم أن الكبائر ليست كالصغائر ، كالمعتزلة ، فإنهم يقولون بأن الكبائر لا تغفر ، بل مرتكبها يخلد فى النار لأنه ليس مؤمناً ولا كافراً فيقولون أنه منزلة بين المنزلتين ، ويعذّب بعذاب أخف من عذاب الكافر ، والحق مذهب أهل السنة أن الكبائر كالصغائر فى الغفران ، وهو الموافق للقرآن (*) وللسنة ، وللدليل العقلى ؛ لأنه تعالى لا يجب عليه ثواب ولا يتحتم عليه عقاب ، فالثواب من فضله ، والعقاب من عدله ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون .

(١٥٧) ( قوله لعل رحمة ربى إلخ ) لما نهى الناظم نفسه عن القنوط كأنها قالت له : أنا لا أقنط لكن أخشى أن لا يكون حظى من الرحمة قدر ذنوبى التى ارتكبتها ، فأجابها بقوله « لعل رحمة ربى إلخ » أى أرجو أن تكون رحمة ربى تأتى فى القسم حين يقسمها بين العصاة على قدر عصيانهم ، فمن حمل من العصيان حملاً كبيراً كان ما يناله من الرحمة شيئاً كبيراً ، ومن حمل من العصيان حملاً صغيراً كان ما يناله من الرحمة شيئاً صغيراً ، والمراد الرحمة التى تنال العصاة لا الرحمة العامة التى تنال المطيع أيضاً ، فلا يقال إذا قسمت الرحمة بحسب العصيان : لم يبق للمطيع منها حظ ، فإن قيل كلام الناظم يقتضى أن من كانت ذنوبه أكثر كان ما يناله من الرحمة أعظم ، وكيف يصح ذلك ، مع أن من كانت ذنوبه أقل كان أقرب للرحمة وأقرب منه من كان طائعاً ؟! أجيب بأن الكلام فى الرحمة التى تنال العاصين ، =

(١) سورة النساء الآية : ٤٨

(*) قوله تعالى : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

يا رَبِّ واجْعَلْ رَجائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ     لَدَيْكَ واجْعَلْ حِسابِي غَيْرَ مُنْخَرِمِ (١٥٨)

= وقسمها على هذا الوجه ممكن لجواز العفو عما عدا الشرك ، وأورد عليه أن مقتضى كلامه عدم دخول بعض عصاة المؤمنين النار ، مع أن المقرر فى علم الكلام أنه لا بد من دخول طائفة منهم النار ، ثم يخرجون بشفاعته ﷺ (١) ، وأجيب أن الرحمة بالنسبة لهؤلاء هى الشفاعة العامة للإراحة من هول الموقف .

(١٥٨) ( قوله يارب واجعل رجائى إلخ ) لما اشتملت هذه القصيدة على أنواع التغزل وتوبيخ النفس ، والوعظ ، ومدحه ﷺ ، وذكر بعض معجزاته ، ومدح القرآن ، ومدح الصحابة ، وذم الكفار ، والإقرار بالذنب ، ختمها بالدعاء ، ثم بالصلاة على النبى ﷺ . وقوله : « يا رب » أصله يا ربى ، بالإضافة لياء المتكلم ، ثم حذفت ياء المتكلم للتخفيف ، وقوله « واجعل رجائى » إلخ معطوف على محذوف ، والتقدير يا ربِ ارحمنى ، واجعل رجائى للرحمة غير منعكس ، أى غير خائب ، بأن يحصل المرجوّ من عفوك عن ذنوبى كبائرها وصغائرها ، وقوله « لديك » أى عندك ، وهو ظرف لقوله اجعل ، أو لمنعكس ، وقوله « اجعل حسابى غير منخرم » أى اجعل ما حسبته ، أى ظننته من الجميل فيك ، وهو أن تُنيلنى من فضلك وكرامتك ما يليق بى غير ناقص ، بأن يحصل المحسوب ، أى المظنون ، تامًّا كاملاً ، وفى كلامه الحذف من الثانى لدلالة الأول ، أى غير منخرم لديك ، وفى الحديث حكاية عن الله تعالى « أنا عند ظنّ عبدى بى : إنْ خيرا فخير ، وإن شراً فشر » (٢) وقد قال من غلب عليه الرجاء :

وإنى لأرجو اللهَ حتى كأننى     أرى بجميل اللطف ما اللهُ صانعُ

وفسر بعضهم قوله « واجعل حسابى غير منخرم » بأن المعنى : واجعل تعداد الأمور الصادرة منك يا الله لى غير منقطع ، ونوقش بأنه يلزم عليه أن الناظم طلب أن لا ينقطع عذابه ، لأن من نوقش الحساب عُذِّب ، فكيف بمن طال حسابه ؟ فكيف بمن دام حسابه ؟! ولو قال : واجعل تعداد الأمور الصادرة منك يا الله غير معوج ، بأن يكون مستقيما لخلص من هذه المناقشة .

(١) قال ﷺ : يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ ، فيدخلون الجنة ويسمّون « الجهنميين » رواه البخارى وأحمد وأبو داود وغيرهم .

(٢) رواه الشيخان البخاري ومسلم ، والبيهقي وغيرهم .

وَالطُفْ بِعَبْـدِكَ فى الدارَيْنِ إنَّ لَهُ صَبْراً مَتَى تَدْعُهُ الأهْـوالُ يَنْهَزِمِ (١٥٩)
وَأْذَنْ لِسُحْبِ صَـــلاةٍ مِنْـكَ دائِمَةٍ علـى النبـىِّ بِمُنْهَلٍّ ومُنْسَجِمِ (١٦٠)
ما رَنَّحَتْ عَذَبـاتُ البانِ رِيحُ صَبًا وأطْرَبَ العِيسَ حادى العِيسِ بالنَّغَمِ (١٦١)

---

(١٥٩) قوله « والطف بعبدك » إلخ هذا البيت من تمام الدعاء ، ومعنى الطف : ارفق ، إذ اللطف معناه الرفق ، وعنى بالعبد نفسه ، واختار الوصف بالعبودية لما فيها من غاية الذلة والخضوع ، وذلك مناسب لمقام الدعاء ، وقوله « فى الدارين » أى دارى الدنيا والآخرة ، أى فيما قدّرتَ عليه فيهما ، ثم علل ذلك بقوله « إن له صبراً » أى إن لعبدك صبرا لا يثبت ، بل متى تدعه الأهوال ينهزم أمامها ، فيصير العبد بلا صبر فيهلك ، وباللطف يندفع الهلاك ، وقد امتثل الناظم فى هذا الدعاء لأمره ﷺ ، حين سمع رجلا يقول : « اللهم هَبْ لى الصبر » فقال له « طلبتَ من الله البلاءَ ، فاطلب منه العافية » .

(١٦٠) قوله « وأذن لسحب صلاة » إلخ لا يخفى أن قوله ائذن فعل دعاء ، والإذن فى حقه تعالى بمعنى الإباحة ، واللام للتعدية ، والسحب : بسكون الحاء ، كما هو لغة فى السحب بضمها ، وإن جعله بعض الشارحين للتخفيف ، وهو جمع سحاب الذى هو الغيم ، وإضافة سحب للصلاة من إضافة المشبه به للمشبه ، أى للصلاة الشبيهة بالسحب ، فى أن كلاً رحمة ، وقوله « منك » صفة لصلاة ، وقوله « دائمة » صفة أيضا لصلاة ، ويحتمل أنه صفة لسحب ، وقوله « على النبى » أى صادرة على النبى المعهود ، وهو سيدنا محمد ﷺ ، والباء فى قوله « بمنهل ومنسجم » متعلقة بائذن ، فهى للتعدية ، وفى الكلام موصوف محذوف ، والتقدير بمطر منهل ، ومطر منسجم ، والمنهل : المنصب لشدّته ، والمنسجم : السائل لعدم شدّته .

(١٦١) قوله « ما رنحت عذبات البان » إلخ أى مدّة ترنيح عذبات البان إلخ ، فـ « ما » مصدرية ظرفية والترنيح التمييل ، وعذبات البان : أغصانه ، والبان : شجر معروف طيب الرائحة . وقوله « ريح صبا » بفتح الصاد ، فاعل برنحت ، والمراد بريح الصبا الريح الشرقية التى تهب صوب باب الكعبة ، وإنما سميت بذلك لأنها تصبو أى تميل إليها ، وتسمى قَبولا بفتح القاف ، لأنها تقابل بهبوبها المشرق ، وأصول الرياح أربعة الأولى : الصبا ، وقد علمتهَا ، والثانية : الدّبور ، وهى الريح الغربية ، التى تأتى من مغرب الشمس ، وإنما سميت بذلك لأن من استقبل المشرق =

= استدبرها ، والثالثة : الشمال ، بفتح الشين ، وهى الريح البحرية التى يُسار بها فى البحر على كل حال ، وإنما سميت بذلك لأنها عن شمال من استقبل المشرق ، والرابعة : الجنوب بفتح الجيم ، وهى الريح القبلية ، وعامّة المصريين يعبرون عنها بالمريسى ، لأنها تهب من بلاد المرس ، وهم طائفة من السودان ، حسان الوجوه ، وكل ريح جاءت بين مهبى ريحين يقال لها النكباء ، سميت بذلك لأنها نكبت ، أى عدلت عن مهب تلك الرياح الأربعة ، وقد نظم الشيخ السجاعى حاصل ما تقدم بقوله :

أصـــول رياح أربــع سَمٌّ بالصبا ... قبولا أتت من مطلع الشمس شرقيَّه

دَبورٌ أتت من مغرب الشمس فاعلمنْ ... لذا عند مصـــرَ سَمٌّ ياصـــاحِ غربيَّه

شمالٌ تَجِـى مِـــنْ عَـنْ شمالِ مشرقٍ ... يُسارُ بها فـــى البحر تُدْعَى ببحريَّه

جنـــوبٌ تسمَّـــى بالمـــريسى نسبة ... لبلدان سُـــودانٍ ، وتُنْمَـــى لقبليَّه

ومـــا بيـــن ريحيـــن تهب فسَمِّها ... بنكبـــاء تجـــرى كالأصولِ بلا مريه

وقوله « وأطرب العيس » إلخ أى ومدة إطراب العيس إلخ ، فهو معطوف على قوله « رنحت » ، والإطراب إحداث الطرب ، وهو خفة تنشأ عن سرور مقتضية للحركة والنشاط ، والعيس بكسر العين مناسبة لكون الباء بعدها ، وإن كان أصلها الضم ، وهى إبل بيض يخالطها شقرة أو حمرة شديدة ، وهى من كرام الإبل ويقال للذكر : أعيس ، وللأنثى : عيساء ، والمراد بحادى العيس : سائقها فهو من حدا يحدو إذا ساق الإبل ، وقوله « بالنغم » متعلق بأطرب ، والنغم بفتح النون : الصوت الحسن ، وللإبل خاصية عظيمة فى حصول الطرب لها عند سماع صوت الحادى ، وكلما كان الصوت أحسن كان طربها أكثر ، حتى إنها لتقطع المسافة الكثيرة فى الزمن القليل ، بسبب ما يحصل لها من النشاط عند سماع الصوت الحسن ، ولا يخفى أن الترنيح والإطراب المذكورين ، لا ينقطعان ما بقيت الدنيا ، فلذلك أقيمت الصلاة [1] بهما ، =

---

(١) فى طبعة الوهبية « أقت الصلاة » . والترنح : التمايل يمينا وشمالاً ، والمطلوب من المؤذن : أن يتمايل يمينا وشمالاً مع بقاء صدره متجها إلى الكعبة المشرفة ، والتطريب : الحركة والشوق .

فقوله « فلذلك أقيمت الصلاة بهما » أى عند إقامة الصلاة يلتفت المقيم يمينا وشمالاً مع الحركة والشوق . والله تعالى أعلم .

..........................................................

= ويحتمل أنه أراد بذلك التأبيد ، فكأنه قال دائما وأبدا ، وإنما خصّ البان والعيس ، لأنهما من مألوفات الأحبة ، وتخصيص ريح الصبا أظهر من ذلك ، لأنها تصبو إلى باب الكعبة التى هى أعظم مكان فى البلد ، الذى هو مسقط رأس حبيبه ﷺ ، وقال بعضهم : يحتمل أنه أشار بالعذبات إلى عذبة النبى ﷺ لتمايلها بتمايله ﷺ عند سماعه المديح ، وأشار بالبان إلى ذاته الشريفة لطيب رائحتها ، كطيب رائحة البان ، بل أعظم ، وأشار بالعيس إلى أمّته لطربهم عند سماع المديح ، كطرب العيس عند سماع صوت الحادى ، وأشار بالنغم إلى المديح ، وحاصل المعنى على هذا ما تمايلت عذبة النبى ﷺ عند سماع المديح ، وأطرب المادحُ أمّته بمديحه ﷺ ، وفى هذا البيت والذى قبله براعة الختام وتسمى حسن المقطع وحسن الخاتمة ، وهى فى الشعر عبارة عن ختم القصيدة بأجود بيت يحسن السكوت عليه لأنه آخر ما يبقى فى الأسماع ، وربما حُفظ دون غيره لقرب العهد به .

ويوجد فى بعض النسخ أبيات لم يشرح عليها أحد من الشارحين ، لكن لا بأس بها وهى :

ثُمَّ الرضا عن أبى بكرٍ وعَـــنْ عُمَرٍ ... وعَــنْ عَلــىٍّ وعـن عثمانَ ذى الكَرَمِ

والآلِ والصَّحْبِ ثُــمَّ التابعيــنَ فَهُمْ ... أهْــلُ التُّقَــى والنَّقا والحلـم والكَـرَمِ

يا رَبِّ بالمصْطفَــى بَلِّغْ مقاصــدَنَـا ... واغفِرْ لنا ما مَضَــى يا واسعَ الكَــرَمِ

واغْفِــرْ إلهِــى لكـل المسلمين بما ... نتلوه فى المسجد الأقصَى وفي الحرم

بجــاهِ مَــنْ بَيْتُه فــى طِيبَةَ حَرَمٌ ... واسْمُـــهُ قَسَمٌ مِـــنْ أعظَـــمِ القَسَمِ

وهَــذِه بُــرْدَةُ المخْتــارِ قَدْ خُتِمَتْ ... والحَمْــدُ للّه فـــى بـــدْءٍ وفى خَتَمِ

أبياتُهــا قــد أتتْ ستينَ مَــعْ مِائةٍ ... فَــرِّجْ بها كَــربَنا يا واسِعَ الكَــرَمِ

* * *

# القصيدة المُضَرِيّة فى الصلاة على خير البرية

يَارَبِّ صَلِّ عَلَى الْمُخْتَارِ مِـــنْ مُضَرٍ — وَالأَنْبِيَا وَجَمِيـعِ الرُّسْلِ مَا ذُكِرُوا (١)

وَصَــلِّ رَبِّ عَلَـى الْهَادِى وَشِيعَتِهِ — وَصَحْبِهِ مَـنْ لِطَىِّ الدِّينِ قَدْ نَشَرُوا (٢)

وَجَــاهَدُوا مَعَهُ فِـى اللهِ وَاجْتَهَدُوا — وَهَاجَـرُوا وَلَهُ آوَوْا وَقَـدْ نَصَرُوا (٣)

وَبَيَّنُوا الْفَرْضَ وَالْمَسْنُـونَ وَاعتَصَبُوا — لِلَّهِ وَاعْتَصَمُـوا بِاللَّهِ فَانْتَصَرُوا (٤)

أَزْكَـى صَــلاَةٍ وَأَنْمَاهَــا وَأَشْرَفَهَا — يُعَطِّرُ الْكَـونَ مِنْهَـا نَشْرُهَا الْعَطِرُ (٥)

مَعْبُــوقَــةً بِعَبِيــقِ الْمِسْكِ زَاكِيَةً — مِـنْ طِيبِهَا أَرَجُ الرِّضْوَانِ يَنْتَشِرُ (٦)

عَدَّ الْحَصَى وَالثَّرَى وَالرَّمْلِ يَتْبَعُهَا — نَجْـمُ السَّمَا وَنَبَاتُ الأَرْضِ وَالْمَـدَرُ (٧)

وَعَــدَّ وَزْنِ مَثَاقِيــلِ الْجِبَــالِ كَمَا — يَلِيــهِ قَطْـرُ جَمِيـعِ الْمَاءِ وَالْمَطَرُ (٨)

وَعَــدَّ مَا حَــوَتِ الأَشْجَارُ مِنْ وَرَقٍ — وَكُــلِّ حَرْفٍ غَدَا يُتْلَـى وَيُسْتَطَرُ (٩)

وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ وَالأَسْمَاكِ مَعْ نَعَمٍ — يَلِيهِمُ الْجِنُّ وَالأَمْــلاَكُ وَالْبَشَرُ (١٠)

وَالذَّرُّ وَالنَّمْلُ مَعْ جَمْعِ الْحُبُوبِ كَذَا — وَالشَّعْرُ وَالصُّوفُ وَالأَرْيَاشُ وَالْوَبَرُ (١١)

وَمَــا أَحَــاطَ بِهِ الْعِلْمُ الْمُحِيطُ وَمَا — جَـرَى بِهِ الْقَلَمُ الْمَأْمُورُ وَالْقَدَرُ (١٢)

وَعَــدَّ نَعْمَائِــكَ اللاَّتِــى مَنَنْتَ بِهَا — عَلَـى الْخَلاَئِقِ مُذْ كَانُوا وَمُذْ حُشِرُوا (١٣)

وَعَــدَّ مِقْــدَارِهِ السَّامِى الَّذِى شَرُفَتْ — بِهِ النَّبِيُّونَ وَالأَمْــلاَكُ وَافْتَخَرُوا (١٤)

وَعَــدَّ مَا كَانَ فِى الأَكْوَانِ يَا سَنَدِى — وَمَا يَكُونُ إِلَــى أَنْ تُبْعَثَ الصُّوَرُ (١٥)

فِــى كُــلِّ طَـرْفَةِ عَيْنٍ يَطْرِفُونَ بِهَا — أَهْلُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِينَ أَوْ يَـذَرُوا (١٦)

مِــلْءَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِينَ مَـعْ جَبَلٍ — وَالْفَرْشِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِى وَمَا حَصَرُوا (١٧)

مَــا أَعْــدَمَ اللهُ مَوْجُوداً وَأَوْجَدَ مَعْـ — ـدُومًا صَلاَةً دَوَامًا لَيْسَ تَنْحَصِرُ (١٨)

تَسْتَغْــرِقُ الْعَدَّ مَعْ جَمْعِ الدُّهُورِ كَمَا — تُحِيطُ بِالْحَدِّ لا تُبْقِـى وَلاَ تَذَرُ (١٩)

لاَ غَـايَةً وَانْتِهَاءً يَا عَظِيمُ لَهَا ... وَلاَ لَهَا أَمَدٌ يُقْضَـى فَيُعْتَبَـرُ (٢٠)
وَعَدَّ أَضْعَافِ مَا قَدْ مَرَّ مِنْ عَدَدٍ ... مَعْ ضِعْفِ أَضْعَافِهِ يَا مَنْ لَهُ الْقَدَرُ (٢١)
كَمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى سَيِّدِى وَكَمَا ... أَمَـرْتَنَا أَنْ نُصَلِّيَ أَنْتَ مُقْتَدِرُ (٢٢)
مَعَ السَّلاَمِ كَمَا قَدْ مَرَّ مِنْ عَدَدٍ ... رَبِّى وَضَاعِفْهُمَا وَالْفَضْلُ مُنْتَشِرُ (٢٣)
وَكُلُّ ذَلِكَ مَضْرُوبٌ بِحَقِّكَ فِـى ... أَنْفَاسِ خَلْقِكَ إِنْ قَلُّوا وَإِنْ كَثُرُوا (٢٤)
يَارَبِّ وَاغْفِـرْ لِقَارِيهَا وَسَامِعِهَا ... وَالْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا أَيْنَمَا حَضَرُوا (٢٥)
وَوَالِدِينَـا وَأَهْلِينَـا وَجِيـرَتِنَا ... وَكُلُّنَـا سَيِّـدِى لِلْعَفْـوِ مُفْتَقِرُ (٢٦)
وَقَـدْ أَتَيْتُ ذُنُـوبًا لاَ عِـدَادَ لَهَا ... لَكِـنَّ عَفْـوَكَ لاَ يُبْقِى وَلاَ يَذَرُ (٢٧)
وَالْهَمُّ عَـنْ كُـلِّ مَا أَبْغِيهِ أَشْغَلَنِى ... وَقَـدْ أَتَى خَاضِعًا وَالْقَلْبُ مُنْكَسِرُ (٢٨)
أَرْجُـوكَ يَارَبِّ فِى الدَّارَيْنِ تَرْحَمُنَا ... بِجَاهِ مَنْ فِى يَدَيْهِ سَبَّحَ الْحَجَرُ (٢٩)
يَارَبِّ أَعْظِـمْ لَنَا أَجْـرًا وَمَغْفِـرَةً ... فَإِنَّ جُودَكَ بَحْـرٌ لَيْسَ يَنْحَصِرُ (٣٠)
وَاقْضِ دُيُـونًا لَهَا الأَخْـلاَقُ ضَائِقَةٌ ... وَفَـرِّجِ الْكَرْبَ عَنَّا أَنْتَ مُقْتَدِرُ (٣١)
وَكُـنْ لَطِيفًا بِنَا فِى كُلِّ نَازِلَةٍ ... لُطْفًا جَمِيـلاً بِهِ الأَهْوَالُ تَنْحَسِرُ (٣٢)
بِالْمُصْطَفَى الْمُجْتَبَى خَيْرِ الأَنَامِ وَمَنْ ... جَـلاَلَةً نَزَلَتْ فِـى مَدْحِهِ السُّوَرُ (٣٣)
ثُمَّ الصَّـلاَةُ عَلَى الْمُخْتَارِ مَا طَلَعَتْ ... شَمْسُ النَّهَارِ وَمَا قَـدْ شَعْشَعَ الْقَمَرُ (٣٤)
ثُـمَّ الرِّضَا عَـنْ أَبِـى بَكْرٍ خَلِيفَتِهِ ... مَـنْ قَامَ مِن بَعْدِهِ لِلدِّينِ يَنْتَصِرُ (٣٥)
وَعَـنْ أَبِـى حَفْصٍ الْفَارُوقِ صَاحِبِهِ ... مَنْ قَوْلُهُ الْفَصْلُ فِى أَحْكَامِهِ عُمَرُ (٣٦)
وَجُـدْ لِعُثْمَانَ ذِى النُّورَيْنِ مَنْ كَمُلَتْ ... لَهُ الْمَحَاسِنُ فِـى الدَّارَيْنِ وَالظَّفَرُ (٣٧)
كَـذَا عَلِـىٌّ مَعَ ابْنَيْهِ وَأُمِّهِمَا ... أَهْلُ الْعَبَاءِ كَمَا قَدْ جَاءَنَا الْخَبَرُ (٣٨)
سَعْـدٌ سَعِيـدُ بْنُ عَوْفٍ طَلْحَةٌ وَأَبُو ... عُبَيْـدَةٍ وَزُبَيْـرٌ سَادَةٌ غُرَرُ (٣٩)
وَحَمْـزَةٌ وَكَـذَا الْعَبَّاسُ سَيِّـدُنَـا ... وَنَجْلُهُ الْحَبْرُ مَـنْ زَالَتْ بِهِ الْغِيَرُ (٤٠)
وَالآلُ وَالصَّحْبُ وَالأَتْبَـاعُ قَـاطِبَـةً ... مَا جَنَّ لَيْلُ الدَّيَاجِى أَوْ بَدَا السَّحَرُ (٤١)

# القصيدة المحمَّدية للإمَام البوصيرى

مُحَمَّدٌ أشْرَفُ الأعْـرَابِ وَالْعَجَمِ　　مُحَمَّـدٌ خَيْرُ مَنْ يَمْشِى عَلَى قَدَمِ (١)

مُحَمَّــدٌ بَاسِطُ الْمَعْرُوفِ جَامِعُـهُ　　مُحَمَّـدٌ صَاحِبُ الإِحْسَانِ وَالْكَرَمِ (٢)

مُحَمَّــدٌ تَاجُ رُسْــلِ اللّه قَاطِبَةً　　مُحَمَّـــدٌ صَـادِقُ الأقْوَالِ وَالكَلِمِ (٣)

مُحَمَّـــدٌ ثَابِتُ الْمِيثَاقِ حَـافِظُهُ　　مُحَمَّـــدٌ طَيِّبُ الأخْـلاقِ وَالشِّيَمِ (٤)

مُحَمَّـــدٌ رُوِيَتْ بِالنُّــورِ طِينَتُهُ　　مُحَمَّـــدٌ لَمْ يَــزَلْ نُوراً مِنَ الْقِدَمِ (٥)

مُحَمَّـــدٌ حَـاكِمٌ بِالْعَدْلِ ذُو شَرَفٍ　　مُحَمَّـــدٌ مَعْدِنُ الإِنْعَامِ وَالْحِكَمِ (٦)

مُحَمَّـــدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللّه مِنْ مُضَرٍ　　مُحَمَّـــدٌ خَيْــرُ رُسْلِ اللّه كُلِّهِمِ (٧)

مُحَمَّـــدٌ دِينُـــهُ حَــقٌّ نَدِينُ بِهِ　　مُحَمَّـــدٌ مُجْمِــلاً حَقًّا عَلَى عَلَمِ (٨)

مُحَمَّـــدٌ ذِكْــرُهُ رَوْحٌ لأنْفُسِنَــا　　مُحَمَّـــدٌ شُكْرُهُ فَرْضٌ عَلَى الأُمَمِ (٩)

مُحَمَّـــدٌ زِينَـةُ الدُّنْيَا وَبَهْجَتُهَا　　مُحَمَّـــدٌ كَاشِفُ الْغُمَّاتِ وَالظُّلَمِ (١٠)

مُحَمَّـــدٌ سَيِّـــدٌ طَابَتْ مَنَـاقِبُهُ　　مُحَمَّـــدٌ صَاغَـهُ الرَّحْمَنُ بِالنِّعَمِ (١١)

مُحَمَّـــدٌ صَفْـوَةُ الْبَارِى وَخِيرَتُهُ　　مُحَمَّـــدٌ طَاهِـرٌ مِنْ سَائِرِ التُّهَمِ (١٢)

مُحَمَّـــدٌ ضَاحِكٌ لِلضَّيْفِ مُكْرِمُهُ　　مُحَمَّـــدٌ جَـــارُهُ وَاللّه لَمْ يُضَمِ (١٣)

مُحَمَّـــدٌ طَـابَتِ الدُّنْيَا بِبِعْثَتِهِ　　مُحَمَّـــدٌ جَـاءَ بِالآيَاتِ وَالْحِكَمِ (١٤)

مُحَمَّـــدٌ يَوْمَ بَعْثِ النَّاسِ شَافِعُنَا　　مُحَمَّـــدٌ نُورُهُ الْهَادِى مِنَ الظُّلَمِ (١٥)


مُحَمَّـــدٌ قَائِـــمٌ لِلّهِ ذُو هِمَـمٍ　　مُحَمَّـــدٌ خَـــاتَـمٌ لِلرُّسْلِ كُلِّهِمِ (١٦)

بحمد الله قد تم الفراغ من طباعة هذا الكتاب بإشراف مكتبة الآداب ( ورثة المرحوم على حسن ) عن نسخة الكتبخانة الكستلية التى راجعها المغفور له الشيخ محمد السملوطى ١٢٩١ هـ . ونسخة المطبعة الوهبية ١٢٨٢ هـ التى قابلها المغفور لها مصطفى وهبى على نسخة المؤلف . فقمنا بإعادة تصحيحها وضبط الأبيات ووضع علامات الترقيم ، وإضافة تعليقات الشيخ عبد الرحمن حسن محمود . وكان الفراغ من طبعها فى العشرين من جمادى الآخرة عام ١٤١١ هـ - فى مطالع عام ١٩٩١ م . وكافة حقوق طبعها محفوظة لمكتبة الآداب ( على حسن ) ٤٢ ميدان الأوبرا .

رقم الإيداع ١٥٤٩ / ٩١

الترقيم الدولى I. S. B. N 977 — 241 — 020 — 6

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار ( لاظوغلى ) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩




الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١م

٢٧٥ قرشا